ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية
والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

٢٦

رجب - ذو الحجة
١٤٢٧هـ
السنة ١٣

- الرسول الرحمة والحج نموذجاً ■ إيمان أجداد الرسول (ص)
- قراءة في حجة الوداع... ■ حجية الفعل النبوي
- معجزة النبي في كونه قارئاً أو أمّياً
- سيرة المصطفى (ص)
- عمرة القضاء
- مشاهد البعثة النبوية الشريفة من خلال نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج-المجلد ۲۶ ----- ۶
اشارة ----- ۶
اشارة ----- ۶
الرسول الرحمة والحج نموذجاً ----- ۱۲
معجزة النبیّ فی کونه قارءئا أو امیّاً ----- ۲۶
حجیة الفعل النبوی ----- ۷۰
إیمان أجداد الرسول صلی الله علیه و آله ----- ۱۰۴
سیرة المصطفی صلی الله علیه و آله ----- ۱۳۶
رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی کلمات الشعراء ----- ۱۸۲
عمرة القضاء ----- ۱۹۷
قراءة فی حجة الوداع ----- ۲۴۳
مشاهد البعثة النبویّة الشریفة من خلال نهج البلاغة ----- ۲۷۶
مجتمع النبی صلی الله علیه و آله فی الجاهلیة ----- ۲۹۵
تعریف مرکز ----- ۳۲۰

میقات الحج-المجلد ۲۶

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ۳

ص: ۴

ص: ۵

ص: ۶

الرسول الرحمة والحج نموذجاً

ص: ۷

محسن الأسدى

قضت إرادة اللَّه تعالى وحكمته سبحانه أن يبعث محمد بن عبد اللَّه صلى الله عليه و آله رسولًا ونبياً فى أمة عشعشت فى مفاصلها فوضى جاهلية جهلاء، وفى عهد عمّت فيه ضلالة عمياء، وفى زمن كانت دنياه تموج بآلهة عديدة وأرباب متفرقة تعبد عبر شركٍ مقيت وعبودية ذليلة و ظلم صارخ وتخلف وانحدار فى ظلمات قاتلة للأرواح كما للقلوب والمشاعر لما يترتب عليها من بعد عن «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

خصوصاً بعد أن استولى عمرو بن لحى على مكة وما والاها واستطاع أن يشيع الوثنية بين أهل مكة والقبائل حولها عبر عبادة الأصنام التى جاءهم بها، وهو بعمله هذا بدّل ديانة نبى اللَّه إبراهيم الخليل عليه السلام التوحيدية الخالصة للَّهوحده، والتى كان أهل الجزيرة العربية ومن حولها يدينون بها، وعلى إثر ذلك التبديل تكاثرت الآلهة فنشر الشرك بين أهل مكة وخارجها، حيث كان أهل الحجاز يستمعون إلى أهل مكة ويتبعون ما يرونه ويعتقدونه، لأنهم أهل الحرم المبارك والبيت الكريم وولاته وسدنته والقائمون على شؤونه، فانتشرت الوثنية فى هذه البلاد، واستتبع ذلك تفشى الانحرافات العبادية والخرافات الدينية والأمراض

ص: ٨

الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية، وتجذر الجهل والتسلط والاستغلال والظلم والتعسف.. وجميعها وجدت مكاناً لها بين طبقات مجتمعهم وأبنائهم، ثم انتقلت إلى أجيالهم وأعقابهم..

«.. إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ...» (١).

فترك كل هذا وغيره بدوره آثاره السيئة على مجمل حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الأخلاقية والنفسية... فأخلاقياً واجتماعياً- وإن حافظوا على جملة من الأخلاق التى تميزوا بها عن الآخرين كالوفاء بالعهد والكرم وعزة النفس والمروءة والشجاعة.. امتلأت بها قصائدهم ونواديهم فخراً وزهواً- كان فيهم ما ينكره العقل السليم وما يقشعرّ منه الخلق السليم والأدب القويم، فقد كانوا يرتكبون الخطايا ويردون مجالس اللهو والطرب، ويمارسون الرذيلة بأنواعها كالزنا، حتى لم تعد المرأة عندهم إلا سلعة مهينة معاملة ومعاشرة ونكاحاً وطلاقاً وإرثاً، ويدمنون على تعاطى الخمرة فى بيوتهم ومجالسهم.. والجهل يستمرئونه، ويحتكمون إلى ما ورثوه من عادات وتقاليد وإن فسدت..

وهناك ظاهرتان مؤلمتان، فقد كان فيهم أناس يئدون البنات خشية العار وسبيهنّ، ويرون فى وجودهن والإبقاء عليهن ذلة لهم.. ويقتلون الأولاد خوف الفقر والفاقة والافتقار.. وقد حكى لنا القرآن الكريم هاتين الظاهرتين:

«وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (٢)

١- الزخرف: ٢٢.

٢- النحل: ٥٨- ٥٩.

ص: ۹

«وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً» (۱).

وأما ثروتهم فقد استأثر بها فريق دون الآخرين، راح يملك الأسواق والأنشطة التجارية والنواحی الاقتصادية فی الحجاز وبالذات فی مكة، وكان صناديد قريش هم المتحكمون بهذه النواحی وتلك الأنشطة، وكانت مكة مركز البيت الحرام والعبادات خالصة لهم لا يستطيع أحد- مهما تمكن واقتدر- أن ينازعهم سلطانهم هذا. وبجانب هذه الطبقة هناك طبقة متوسطة الحال وأخرى سيطر عليها الفقر والحرمان، وهناك الرقيق أيضاً، وهم يشكلون ظاهرة واسعة وقد أسقط الكبار الظالمون المتعجرفون كل حقوق هذه الطبقة فی الحياة المناسبة، وجعلوهم يعيشون بين تلك الطبقات الثلاث عيشةً ذليلة يستخدمونهم أبشع استخدام خَدَمَة وعمالًا وأجراً...

وكانت القبائل العربية مفكّكة الأوصال، تغلب عليها الأنانية وحب الذات..

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً!

والنزعة القبلية والطبيعة العنصرية متفشية فيهم..

وهل أنا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!

وكان ديدنهم القتل والغزو والسلب، يُغير بعضهم على بعض، فيقتل قويهم ضعيفهم ويسبی، وكانت الحروب تطحنهم ويتقاتلون فيها قتال ذئاب مسعورة لأتفه الأسباب..، وحتى تضع الحرب أوزارها يحتاجون لسنين طويلة جداً.. ولم يكن لهم من يعودون إليه من زعيم يلوذون به أو مرجع يلجئون إليه أو دولة قوية

۱- الإسراء: ۳۱.

ص: ١٠

يركنون إليها وقت الشدائد لتحلّ مشاكلهم ويرضخوا لحكمها فيهم، وتدعم وحدتهم وتدافع عن استقلالهم ومكانتهم.. فتوالت فيها حروب طاحنة ومعارك دامية تذكيها الأحقاد والضغائن وتقودها ثارات قبلية ونعرات عصبية، حتى غدت أمة سيوفٍ مشهورة ورماح مشرعة ودماء نازفة وأعضاء مقطعة وأرامل، وأمهات ثكلى، وأطفال يتامى.. ونكبات وآلام..

أمة كانت تتقاتل بسبب جَمَل يملكه ضيف إحدى القبائل اقتحم مراعى قبيلة أخرى، أو ناقة قتلت، فما كان منهم إلا أن يدخلوا حرباً ضروساً و يتقاتلوا أربعين سنة تفيض فيها أرواح ودماء سبعين ألف إنسان من كلا القبيلتين: بكر وتغلب وحلفائهما، حتى كادوا ليفنوا عن آخرهم. إنها حرب البسوس تلك المرأة التميمية التى علا صراخها.. واذلاه.. فكانت الحرب ووقع القتال وزهقت الأنفس وسبيت الأمة ودمرت الحياة...

وهناك أمة أخرى لا تقل تمزقاً وفرقة وتشتتاً عن تلك الأمة، إنها قبيلتا الأوس والخزرج، وقد سجل لنا التاريخ أياماً مريرة كانت بينهم: فبعد أول يوم فتنة وقع بينهما (حرب سمير) وانضمّت كل بطون القبيلتين إليها واقتتلوا فيها عبر جولتين شرستين قتالًا شديداً، توالت أيامهم القاسية الأخرى:

يوم الرحابة، ويوم السرارة، ويوم الحصين، ويوم فارع، ويوم الحسر الذى لم تنفع فيه تلك الجهود الكبيرة للإصلاح من قبل رجلين فزاريين بعد أن شاهدا من قتالهم ما آيسا معه من الإصلاح بينهم.. ويوم الربيع وهو حائط فى ناحية السفح اقتتلوا فيه قتالًا شديداً حتى كاد يفنى بعضهم بعضاً وقد انهزم فيها الأوس ولم ينفعهم فرارهم، فقد تبعهم الخزرج حتى بلغوا دورهم لينزلوا بهم أشد العذاب قتلًا وتدميراً.. ويوم البقيع وفيه رجحت كفة القتال لصالح الأوس.. ويوم الفجار الأول وقد اصطبغت فيه ساحة المعركة بالدم الأحمر، هدف كلٍ من المتقاتلين إفناء الآخر.. ويوم معبس أقاموا فيها أياماً يخوضون قتالًا عنيفاً ضارياً فانهزمت الأوس هزيمة قبيحة حتى لاذت ببيوتها وآكامها.. ويوم الفجار الثانى وقد اتحدت به الأوس واليهود قريظة والنضير ضد الخزرج... وبغاث كان يوم حرب ضروس فرّ فيها الأوس أمام الخزرج قبل أن تدور الدائرة على الخزرج

ص: ۱۱

حتى علا الصياح: «يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب: أی‌اليهود..» إلا أن غضب الأوس لم يهدأ حتّى أضرموا النّار اللاهبة فی دور الخزرجيين ونخيلهم.. إنها أيّام عصيبة وحروب رهيبة قد كادت تفنی القبيلتين وتهلك الحيين ولم يشفع أنهما ينتميان لأب واحد وأم واحدة، ولم تقف الحرب وتنته بل ظلت سجالًا فما أن تضع واحدة أوزارها حتی تبدأ أخری أشد منها عنفاً وضراوة ونزفاً..

وأما المستوى الاقتصادی، فوضعهم فيه ليس بأقل سوءاً من أوضاعهم السابقة؛ فقد تأثر بأحوالهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.. وبانعدام الثقة والأمن والسلامة الاقتصادية والوعی بالأحكام والقوانين.. ولأنهم كانوا أبعد الأمم عن ذلك وعن نواحی التنمية كالصناعة لغلبة البداوة عليهم، وعن الزراعة وإن وجد شیء منها فی بعض الأماكن عندهم وراجت التجارة فی الأشهر الحرم، إلا أن الحروب الطاحنة والإغارات المستمرة وما يستتبعها من السلب والنهب كانت تلقی بظلالها القاتلة علی أیّ مظهر من مظاهر التنمية.. فساد الاستغلال والتسلط ثم الفقر والجوع والعوز والتخلف الاقتصادی..

كل هذا وغيره مظاهر تنخر فی بنية مجتمع الحجاز وكيانهم وتسیء إليهم حتی غدوا فی الحضيض الأسفل من الضعف والعماية والتخلف.. هذا أخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً.

وأما سياسياً فلا شك فی تبعية الوضع السياسی لوضعهم الاجتماعی الردیء والأخلاقی الوضيع والاقتصادی الظالم، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشیء من الاستقلال النسبی إذا ما قيست حياتهم السياسية بما عليه جيرانهم والمتاخمون لدول كبيرة تحيطهم، التی كانت حياتهم أقرب للعبودية لغيرهم بل العبودية بعينها غالباً، فقد حكم الفرس العراق، وغلبت الروم علی بلاد الشام، والأحباش علی اليمن.. وعاشت هذه البلدان انحطاطاً مقيتاً، ومورست مع أهلها ألوان مختلفة من الظلم والاستبداد والقهر والإذلال، لأن هذه الدول الكبری المتسلطة يومذاك

ص: ۱۲

کانت تری العرب عبیداً همجیین لا- حضارهٔ لهم ولا- مدنیهٔ عندهم، وبالتالی لا- یستحقون الحیاهٔ العزیزهٔ الکریمهٔ، وإلا أن یکونوا تابعین..

لقد کان ذلک الواقع المتخلّف والفاسد والضعیف تحیط به حضارتان عظیمتان ودولتان کبیرتان: دولهٔ الفرس ودولهٔ الروم، ویهود وغیرهم هنا وهناک، وجمیعهم یحلّون ما حرم اللَّه تعالی ویحرمون ما أحل، وصدّهم عن سبیل الهدی ترف حکامهم وتسلطهم وکان لدیاناتهم المنحرفهٔ أثر واضح علی معالم حیاتهم..

وغدت شعوبهم بسبب ذلک تتخبط فی حیرتها وشقائها وسط مدنیات مزیفهٔ، قوامها أسس مادیهٔ فقط بعیدهٔ عن الروح، ودون أن یکون لها أیتعلق بنور الوحی الإلهی، إلا بقایا أهل الکتاب تتمثل فی أفراد أبت أن تنزلق فی أوحال الشرک والجاهلیهٔ، وظلّت ثابتهٔ علی منهج التوحید منتظرهً خروج نبی جدید بشرت به کتبهم وأنبیاؤهم، وتعلقت به نفوسهم و آمالهم..

ص: ۱۳

هناك حكم عديدة تصلح أن تسجل لنا أموراً وتجيب عن تساؤلاتنا حول سبب اختيار هذه الأمة دون غيرها من الأمم لأعظم رسالة حملها رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله فإضافة الى أنها أمة توسطت الدنيا موقعاً فنورها يمكنه أن يعم الجميع ويصل إليه.. حيث إن موقعهم الجغرافى المتميز بين دول العالم سهّل انطلاق الرسالة إلى جميع الشعوب والدول المحيطة.

وأنها ظلت ملاذاً ومكاناً لعدد من الأنبياء والرسل والرسالات وأصحابها، فإن التدبر والتأمّل فى تلك المرحلة قبل البعثة النبوية الشريفة يضعنا أمام واقعين مختلفين أو حالتين مختلفتين:

واقع الأمة المختارة لحمل الرسالة السماوية الخاتمة.

وواقع الأمم الأخرى من غيرها.

وبمعرفة هذين الواقعين يمكننا أن نستخلص أسباباً أو حكماً أخرى تصلح لأن تكون مبرراً لاصطفاء هذه الأمة لأمر عظيم يتمثل بتشرفها بحمل الأمانة الربانية العظيمة، وبالتالى هداية المجتمع الإنسانى إلى أكمل الدين وأعظم الرشد وأبين الهدى وأتم النعم.. ولتكون معجزة الرسالة والنبوة التى ضمّها القرآن الكريم وتوفرت عليه شرائع الدين الجديد وأحكامه ومفاهيمه جليةً واضحة فى الأذهان والنفوس لا لُبس فيها ولا غموض ولا مجال للطعن والاتهام، ولعلّ من تلك الحكم:

«لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..» (۱).

«لَقَدْ مَنَّ اللَّه عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...» (۲).

«إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» الحديث.

نسب شريف لم تجد قريش فيه ما تطعن على النبى صلى الله عليه و آله، وقد أجاب

۱- التوبة: ۱۲۸.

۲- آل عمران: ۱۶۴.

ص: ١۴

أبو سفيان، وهو يومئذ أشد أعداء النبى صلى الله عليه و آله حين سأله هرقل عن نسب النبى صلى الله عليه و آله فقال: هو فينا ذو نسب.

لقد كانت أمة رسول اللّه صلى الله عليه و آله أقل أمم ذلك الزمان حضارة ومدنية فهم قوم أميون كما وصفتهم الآية:

«هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» (١).

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» (٢).

بل شاء اللّه أن يكون رسوله محمد بن عبد اللّه صلى الله عليه و آله لهذه الأمة الأمية أمياً أيضاً.

«مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ» (٣).

كل هذا جاء تأكيداً لحكمته تعالى ودفعاً لمزاعم قد تثار و تنطلى على كثير من الناس وتصدّق بها نفوسهم فتكون مبرراً تحتجّ به فتبعدهم عن الهدى والخير..

وحقاً لو كانوا أمة قارئة متعلّمة متحضرة تعرف المدنية وأصولها والحضارة ومعالمها كما هو عليه حال كل من اليونان والفرس والرومان وربما هناك غيرهم وهم أهل حضارات مجاورة لهم، لوقع الارتياب ولقال قائلهم:

إن ما حدث لهذه الأمة من تغيير وحمل الرسالة وما يترتب على ذلك هو نتيجة تأثر علمى واحتكاك ثقافى وانفعال حضارى مدنى..

إن الأخلاق القيمة التىأشرنا اليها كالوفاء بالعهد وعزةالنفسومضاء العزيمة، لم تكون معروفة عند الأمم المجاورة لها وإن عظمت حضارة وتقدماً، وهى أخلاق

١- الجمعة: ٢.

٢- آل عمران: ١۶۴.

٣- العنكبوت: ۴٨.

ص: ۱۵

تحتاجها تلك الأمانة السماوية ومسيرتها وتبليغها وأيضاً قيادة الأمة، فبدون هذه الخصائص لا يمكن لأی أمة أن تحمل أمانة أو تتحمل مسؤولية حتى سادوا الدنيا بأخلاقهم قبل سيوفهم.. وهو ما جاء به رسول اللّه صلى الله عليه و آله وطالما افتخر واعتز صلى الله عليه و آله بمشاركته فی تعزيز كل مبادئ الحق وإقرار مكارم الأخلاق، فقد شهد صلى الله عليه و آله حلف الفضول وكان عمره عشرين سنة، لأنّه رأى فيه قيماً ومبادئ سامية.. ويأتی الحجر الأسود وقصته عند تجديد بناء الكعبة، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين؛ ليكون علامة مضيئة على حبّ هذه الأمّة للصدق والأمانة رغم ما تتصف به من فساد أخلاقی، ويكشف عما وصل إليه النبی صلى الله عليه و آله من منزلة عظيمة بين قومه، فقد اختلفت قريش فيمن يستأثر بشرف وضع الحجر الأسود فی مكانه فاتفقوا- بعد أن كاد السيف يقع بينهم فيدميهم ويمزقهم- على تحكيم أول داخل من بنی شيبة، فدخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعمره ۳۵ سنة، فلما دخل هتفوا جميعاً: إنه محمد بن عبداللّه.. إنه الصادق الأمين. وبصوت واحد: هذا الأمين قبلناه حكماً بيننا.. هذا الصادق رضينا بحكمه.. فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضعه فی وسطه، و أمرهم جميعاً برفعه، ثم أخذه بيده الشريفة فوضعه مكانه، فحقن بهذا الدماء من أن تراق وحفظ الأرواح من أن تزهق، ووحّد بهذا صفهم وأشعرهم بقيمة وحدتهم!

الاختيار والبشرى!

وفعلًا تحققت البشرى ووقع اختيار السماء لهذه الأمة أن تكون حاضنةً للنبوة والرسالة الخاتمة والإمامة، فغدت الأمة المختارة.. وغدا محمد بن عبد اللّه صلى الله عليه و آله النبی المصطفی والرسول الخاتم والإمام المختار..

لقد أرسلت السماء محمداً صلى الله عليه و آله رسولًا ونبياً وهادياً ومرشداً وموحداً لمثل هؤلاء العرب ولمثل تلك الأمة، ليعلمهم معنى الحياة وتطورها على كل الأصعدة المعنوية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية.. وليبث فيهم الحياة الجميلة التی ترتضيها لهم السماء.. الحياة الخالية من الكراهية، المليئة بالحب..

ص: ۱۶

البعيدة عن الرذيلة والفرقة والنزاع والتسلّط والظلم..

وأوجد فيهم منابع للتسامح والمحبة والصبر والتحمل وكظم الغيظ حتى وهم يخوضون غمار الحرب، وراح يبث فيهم تعاليم صارمة ترفض وتشجب الفساد والإتلاف ونقض المواثيق والعهود، وتدعو إلى عدم انتهاك الحرمات وعدم التمثيل بالقتلى، وعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعدم قطع النخل والشجر أو حرقه، وعدم تهديم الدير والكنائس، وعدم التعرض للرهبان و المشغولين بالعبادة. ولم يلجأ صلى الله عليه و آله إلى القتال إلا اضطراراً، ولم يتجاوز عدد القتلى بضع مئات...

كما راح يعلّمهم ويدربهم على ضبط النفس وقوة الانضباط إلى درجة جعلهم يقيمون الصلاة فى ساحات الوغى و القتال ليتعلموا الصبر والالتزام والطاعة وليتزوّدوا السمو والرفعة والتعالى على الأذى والجراح والقروح التى يتعرضون لها حتى وسط غبار العواصف والقتال.. لقد أمرهم فى تلك الأوقات العصيبة بالصلاة للّٰه تعالى جماعةً لا فرادى، وكلما حان وقت الصلاة وهو يحين خمس مرات فى كل يوم يجب ألا تترك أو تؤجل صلاة الجماعة، فينبغى أن تصلى طائفة فتركع وتسجد بين يدى ربها بينما تشتبك الأخرى مع العدو، فإذا قضيت الصلاة فينبغى أن تغيّر كلتا الطائفتين موقعهما:

«وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ...» (۱).

إن فى سيرته صلى الله عليه و آله الكثير الكثير من الأمثلة السامية نجدها واضحةً فى حياته الكريمة، وهنا نقف عند شىء منها، ففى معاملته صلى الله عليه و آله لألدّ أعدائه؛ نجده وهو فى أوج قوّته عند فتح مكة، قريته التى آذاه أهلها واضطهدوه وقاطعوه وعذبوا أنصاره

۱- النساء: ۱۰۲.

ص: ۱۷

وأخرجوهم بقسوة حتى حينما لجأوا إلى يثرب.

وإذا ما اطلعنا على بعض ما تعرض له المسلمون الأوائل سنجد المعاملة الوحشية للرجال والنساء الأبرياء؛ فقد مزقوا بقسوة سميّة تلك المرأة البريئة كل ممزق، بالطعن فى موضع العفة بالحراب. أما زوجها ياسر فقد شدوا ساقيه إلى ناقتين وسيقتا فى اتجاهين متعاكسين.. وبلال هو الآخر عرضوه لأبشع صور العذاب على رمضاء مكة الملتهبة.. وهكذا خباب بن الأرت الذى جعلوه على سرير من الجمرات المحترقة وظلّ الطغاة عديمو الرحمة يركلونه بأرجلهم وجثموا بوحشية فوق صدره لينصهر الشحم تحت جلده.

وهكذا غيرهم حاصروهم وضيّقوا عليهم وعذبوهم بطرق وحشية ومثلوا بأجسادهم وانتهكوا حرمتهم... هذا إضافة إلى ما شنّوه من ملاحقات وحروب ضدهم بعد هجرتهم وتركهم بلدتهم مكة، وكان منها: بدر، وأحد، والخندق...

إذن كان يحقّ له أن يثأر منهم، حينما تمكن منهم بعد فتح مكة، لما أنزلوه به وبأصحابه وبالمؤمنين به، لكنه عفا عنهم وحتى عن أولئك الذين قتلوا عمّه حمزة وانتهكوا حرمة جسده ومثلوا به فشقوه ولاكوا جزءاً من كبده. أىّ معاملة قابلهم بها! إنها معاملة قلب يفيض بفطرة حب ورحمة لا مثيل لها وهو يردد:

«يا معشر قريش! ويا أهل مكة! ما ترون أنى فاعل بكم؟»

ص: ۱۸

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال:

«لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهم يسمعون وينظرون إليه، ويستشعرون بما يقول ويأمر ويعطيهم أمانهم وسلامهم وحياتهم..

وهناك أمثلة عديدة على ما كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يبذله لانتشال تلك الأمة من آثار الجاهلية وسيئات أخلاقها وموبقات أعمالها وينقلها إلى عالم حب وتآلف ومودة..

الأذان الذى كان يعدّ عملًا عظيماً ويدعو للاحترام والتقدير.. لقد أعطى هذا الشرف لمن؟ إنه لبلال العبد الحبشى دون غيره من المسلمين حتى تلغى تلك الفوارق المدمرة، لقد أمره النبى صلى الله عليه و آله فى عمرة القضاء أن ينادى للصلاة، فوقف هذا العبد الحبشى ذو البشرة السوداء والشفتين الغليظتين على سطح الكعبة المشرفة أكثر الأماكن عراقةً وقداسة وفضيلة، وما إن رأوا بلالًا يصدح بالأذان حتى صرخ عكرمة بن أبى‌جهل أحد العرب المستكبرين المشركين بصوت عال متألماً:

لقد أكرم اللّه أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. فيما قال مشرك آخر:

الحمد للّهالذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال بن أمبلال ينهق فوق الكعبة. وآخرون لما سمعوه غطوا وجوههم عنفةً وكبرياء وسخرية منه..

إنها رائحة الكبرياء والعنصرية والهوى تفوح منهم، وقد عزم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقرآنه المجيد على استئصالها:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (۱).

لقد راح صلى الله عليه و آله يواكب الناس حتى بعد إسلامهم ويسددهم ويقومهم ويقتلع ما فيهم من آثار تلك الجاهلية وما تركته فى نفوسهم، والإنسان ابن بيئته، ليبدلها

۱- الحجرات: ۱۳.

ص: ۱۹

بأخلاق إسلامية وآداب قرآنية بعيدة عن التعصب والعنصرية وطالما كان يقول:

دعوها فإنها نتنة دعوها فإنها نتنة..

سمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أبا ذر حدثان إسلامه يقول لابن عمه: يا بن الأمة، فقال له صلى الله عليه و آله: «ما ذهبت عنك جاهليتك بعد».

وقال صلى الله عليه و آله: له فى قضية مشابهة: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

وعودهم التعامل الطيب مع أعدائهم والرحمة بأسرائهم، فقد مرّ بلال بامرأتين يهوديتين أسيرتين على قتلى من اليهود، وما أن رأت إحداهما جثث القتلى حتى صاحت وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها. فقال رسولاللَّه صلى الله عليه و آله له حين ورده خبر ما فعله: انزعت منك الرحمة يا بلال؟! حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما (۱)!!

إنها أمثلة كثيرة، اخترت ما يحضرنى منها، تنبع من تعاليم الإسلام وأحكامه وتكاليفه وكلها رحمة للعالمين ونجاة لهم من سيئات الدنيا وعذاب الآخرة، وهدفها حياة خالدة:

«.. اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ..» (۲).

الحج نموذجاً حياً

ونكتفى هنا بنموذج واحد من تلك التكاليف وبما يتناسب مع منهج مجلتنا هذه التى احتلت مكانة مرموقة فى عالم المكتبة العلمية والمعرفية والثقافية، وراحت تؤدى دورها فى بيان أعظم الفرائض الإسلامية تربية وتهذيباً وبناء للروح الإيمانية والنفس الإنسانية والآداب والأخلاق... إنّها فريضة الحج، الدعوة الربانية العظيمة، والنداء السماوى الخالد، والمؤتمر الإسلامى الكبير،

۱- أنظر السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب المغازى للواقدى، عمرة القضاء، وتاريخ الطبرى، غزوة خيبر، سنة ۷.

۲- الأنفال: ۲۴.

ص: ۲۰

والتظاهرة الإيمانية الرائعة، التی تضم بین صفوفها أجناساً متعددة، ومذاهب وطبقات وقومیات شتی، بزیّ واحد لا یمیز غنیهم عن فقیرهم ولا- حاکمهم عن محکومهم ولا- أبیضهم عن أسودهم... إنه زی موحد قطعتا قماش أبیض اللون غیر مخیط یأتزر الرجل بأحدهما حول سوءته، فیما یرتدی الأخری فوق کتفیه، حاسر الرأس فی غیر خیلاء ولا تکلف، مردّدا نداء واحداً:

«لبیک اللهم لبیک، لبیک لا شریک لک لبیک، إن الحمد والنعمة لک والملک، لا شریک لک لبیک».. إنهم جمیعاً علی موعد واحد، وواد واحد، وحرم واحد، وبیت واحد، ومنسک واحد...

إن عالمنا- کما العوالم السابقة واللاحقة- یشاهدون فی کل عام فی موسم الحج مشهداً رائعاً واستعراضاً عظیماً للإسلام الموحد، بعیداً عن فروقات الجنس واللون والمکانة... عبر صف واحد یشد بعضه بعضاً، وأسرة ربانیة واحدة ترفرف علیها رحمة السماء.. وکلهم مدعوون «.. لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ...».

منافع دنیویة ومنافع أخرویة مفتوحة لهم أبوابها ینالها کل واحد منهم بقدر إخلاصه وصدقه..

إن الحج محراب عبادة ما أعظمه! ومیدان وحدة وأخوة وتعارف ومسؤولیة ما أروعه! وموسم خیر وتجارة ما أنفعه!

ص: ۲۱

معجزة النبىّ فى كونه قارءئا أو امیّاً

الشيخ محمد القائينى

تمهيد

اشتهر أن من معاجز الإسلام ما ظهر على يد النبى صلى الله عليه و آله من العلوم والمعارف، ومن جملتها ما حواه القرآن الكريم وتضمّنه الفرقان العظيم مع كونه صلى الله عليه و آله رجلًا أمّياً حسبما صرّح به الكتاب المجيد ونطقت به نصوص الروايات، فكان ذلك آية نزول هذه العلوم من مصدر الوحى وصدورها من مورده، بعد أن أبطل برهان القرآن قولهم: إنّما يعلمه بشر، بقوله: «لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (۱).

والكلام فى هذه المعجزة ومعنى كون النبى صلى الله عليه و آله أميّاً يتطلّب البحث- على سبيل الإجمال- عن حقيقة المعجزة ومعناها، وربطها بإثبات الدعاوى ومنها النبوّات، ثمّ البحث عن إعجاز القرآن ووجوه ذلك، ومن جملتها نزوله على يد رجل امّى.

فلذا نورد البحث فى فصلين:

الفصل الأول:

فى المعجزة وحقيقتها والفرق بينها وبين السحر وكذا الكرامات

۱- النحل: ۱۰۳.

ص: ۲۲

وغیر ذلک.

الفصل الثانی:

فی إعجاز القرآن علی العموم وخصوص صدوره علی ید النبیّ الأمّی صلی الله علیه و آله.

الفصل الأوّل: والکلام فیه فی جهات:

الجهة الأولی:

المعجزة من باب الإفعال مشتق من العجز.

والمراد بها فی الاصطلاح عجز البشر عن تحقیق ما یأتی به صاحب المعجزة وعدم تمکّنهم من الإتیان بما أتی به، مع اقتران ذلک بدعوی مثل النبوة والرسالة والإمامة. ولا- أخفیک أن بعض الشبهات المطروحة فی الإعجاز لا- تختصّ بما کان الفعل المعبر عنه بالمعجزة مقروناً بالدعوی، بل تشمل ما کان من قبیل الکرامات للأولیاء والتی لا تقترن بدعوی، وسنوافیک بذلک إن شاء اللّه تعالی.

ثمّ إن العامل الأساس للإعجاز هو عجز الناس عن مجاراته وعدم تمکّنهم عن مضاهاته سواء کان ذاک الفعل غیر ممکن للناس أصلًا أو کانوا لا یتمکّنون من فعله بالوجه الذی حقّقه صاحب المعجزة، من تحقیقه فی زمان أو مکان خاصّین وإن کان فعله علی وجه آخر داخلًا ممکناً لهم و مقدوراً.

وإن شئت فاصطلح علی القسم الأول بالإعجاز المطلق، وعلی القسم الثانی بالإعجاز النسبی.

فإحیاء الموتی- حیث فرض عدم تمکّن الناس العادیین من فعله بوجه- یعتبر معجزة مطلقة، وأمّا إنبات الزرع وإثمار الشجر فی غیر الموسم المناسب ومکانه فمعجزة نسبیّة، ونرید بذلک أن تحقیق هذا الفعل علی الوجه الخاص معجزة وإن کان تحقیقه علی وجه آخر لا یعد إعجازاً.

الجهة الثانیة:

هل العبرة فی المعجزة بعجز طائفة من الناس عن فعله أو أنّه لا- تکون المعجزة معجزةً حتی یعجز کل الناس وفی کل الأزمنة عن تحقیقه والإتیان به؟

ص: ۲۳

وهناك احتمال ثالث وهو اعتبار عجز السابقين و المعاصرين للإعجاز والمقاربين لعصره بمقدار تسمح الطفرة فی تقدّم العلوم عادة.

وهذا بحث هامّ جدّاً حيث يترتب على ذلك أنّه إذا كانت العبرة فی الإعجاز بعجز الكلّ وإلى الأبد فربما لم يمكن إثبات كون أمرٍ معجزة، حيث يحتمل مجیء زمان يتمكّن الناس أو بعضهم من فعل ذلك فيه، ومعه فلا يمكن للنّبی أن يثبت دعواه بالإعجاز؛ لعدم ثبوت كون فعلٍ معجزة إلّابانقضاء زمانه بل بانقضاء كل زمان يحتمل صدور ذلك الفعل فيه.

وهذا نقض للغرض من الإعجاز الذی هو إثبات دعوى الرسالة ونحوها.

وهذه الشبهة تتزايد قوّةً فی هذه الأعصار التی نال العلم فيها تقدّماً وسيعاً فی مجالات شتّى وتمكّن الناس من نيل امور كانت تعدّ دعوى نيلها سابقاً من الأوهام، بل كان الناس لا يصدقونها فی مطلع تحققها وربّما لا يصدق بعض الناس تحققها حتى الآن وبعد مضى زمان طويل من ذلك.

والذی ينبغی أن يقال هو: أن المناط فی كون الشیء معجزة هو أن يكون صدورها على يد صاحبها على غير الوجه الطبيعی بحيث لا يحتمل أن يكون نالها بصورة طبيعية ولا يحتمل أن ينالها غيره كذلك، سواء عجز الناس المعاصرون له عن فعله أو لا، وسواء تمكن من تأخّر عن عصره من فعله أو لا.

وربّما يكون الإعجاز فی صدور الفعل ابتداءً وإن كان صدوره ثانياً بعد ما صدر أوّلًا من صاحب المعجزة لا يعدّ إعجازاً.

فمعنى الإعجاز هو عجز غير صاحب المعجزة عن تحقيق فعلها على الوجه الذی تحقق من صاحبها وقد تقدّم تأكيد هذا فی تقسيم المعجزة إلى المطلقة والنسبيّة.

والعبرة فی إمكان التوصّل إلى فعل شیء بصورة طبيعية وأنّه صادر كذلك أولا- بحكم العقلاء؛ حيث لا- يحتملون كون صاحب المعجزة نال ما أتى به بصورة عادية؛ ولا- يعتنون باحتمالات ضعيفة موهومة فی هذا المجال كما لا يعتنون بأمثالها فی ساير شؤون حياتهم.

ص: ۲۴

فتکلّم الطفل فی بعض مراحل الطفولة خرق للعادة وإن کان هذا الطفل لو باشر ولیّه تعلیمه النطق فی نفس تلک المرحلة فتکلّم لا یعدّ إعجازاً، وربّما یکون تکلّم الطفل فی بعض المراحل معجزة مطلقة لا یمکن فی العادة وفی أیّ ظرف وشروط تحقّقه.

نعم عجز البشر کلّهم طریق واضح إلی معرفة کون الفعل الصادر علی وجه الإعجاز قد صدر بغیر الوجه الطبیعی والمعتاد، وإلّا فلا موضوعیة لعجز الکلّ عن فعله. وربّما لا یتیسر الجزم بالإعجاز ما دام لم یحرز عجز الکلّ أو یحتمل تمکّن البعض لولا ما ذکرناه.

وفی هذا المجال یواجهنا إشکال اشیر إلیه فی کلام للراوندی صاحب کتاب الخرائج أیضاً؛ وهو أنّه کیف یمکن الحکم بعجز البشر عن معارضة المعجزة بمثلها مع عدم الإحاطة بهم فی طول الزمان ولا عرضه سیما الأزمنة البعیدة الماضیة والأمکنة القاصیة، بل لا یمکن الإحاطة بمن یأتی فی الأزمنة المتأخرة وقدرتهم وبدون ذلک لا یحرز الإعجاز؟!

ویمکن الإجابة عن ذلک بوجوه:

الوجه الأوّل:

إنّه لو اعتبر فی الإعجاز عجز البشر- کلّهم حتی الناس الذین یأتون بعد زمان المعجزة- إلّاأن العقلاء یعتبرون عجز معاصریهم ومصاحبیهم طریقاً إلی معرفة باقی القدرات ویحصل لهم الوثوق بعدم اختلاف سایر الناس ممن یتواجدون فی سایر الأمکنة، ولا من کان فی سایر الأزمنة عن معاصریهم فی المکنة والقابلیّات.

لا- أقول: بعدم اختلاف الناس فی التطور والتقدم بحسب الأزمان المتأخرة، فإن الوجدان شاهد بتمکّن الناس من امور لم یتصورها الناس القدامی؛

بل أقول: بعدم اختلاف الناس فی القدرة الطبیعیّة وإن کانت القدرة المعتادة تتجلّی فی امور مختلفة باختلاف الأزمنة والأمکنة فلیس قدرة بعض البشر علی بعض الأمور التی کان یعجز عنه غیره من السابقین خارجاً عن القدرة الطبیعیة،

ص: ۲۵

ولا أن تمكّنه من بعض الأشیاء بعد عجز الغابرین خارج عن المعتاد.

بل العادة قاضیة بسیرٍ فی العلوم یقتضی اموراً وأحداثاً لو كان الناس القدامی مكان المتأخرین لواكبوا ما واكبه المتأخرون من التقدم والوقوف علی الجدید من الأحداث. إذن لا- یعتنی العقلاء فی شؤونهم الدنیویة بهذه الاحتمالات كما تشهد بذلك سیرتهم فی الأعصار السابقة علی قبول المعاجز.

ولیس هذا استدلالًا فی المسائل العقلیة بالإجماع التعبّدی لیكون مردوداً.

بل الغرض جعل الإجماع العقلائی متبهاً علی أمر قاطع. وهذا دلیل شریف یأتی نحوه فی كثیر من المسائل العقائدیّة فیما یتعلّق بالمبدأ والمعاد والرسالات وغیرها من المسائل العقلیة.

مثلًا: لا یحتمل وجود حجر طبیعی یوجب أخذه الحیاة الأبدیّة مع إمكان الاستیلاء علیه بصورة طبیعیّة، وكذلك ما كان من هذا القبیل من الاحتمالات.

وهذا لا یعنی- كما تقدم- توقف العلوم الطبیعیة عن الازدهار والتقدّم وانحصارها بما سبق؛ ولذا تری جهد العلماء فی التطلع وجدّهم فی التقدم.

الوجه الثانی:

إن المعاجز صدرت علی أیدی أشخاص عادیین فی الاستعدادات الطبیعیّة والعلوم البشریّة وإن كانوا ممتازین فی الصفات الإنسانیة والخلق والقیم بل كانوا فی العلوم الطبیعیة دون المعتاد أحیاناً. فتری أن نبی الإسلام- وهو أفضل أنبیاء اللَّه- كان امّیاً حسب النصوص ولم ینقطعوا عن اممهم زماناً یحتمل وقوفهم علی العلوم الطبیعیة بما یمكّنهم من الامور الخارقة.

الوجه الثالث:

إن المعاجز تصدر علی أیدی أصحابها بدون تكلّف، حتی التكلّف بمقدار لا بد منه فی الأفعال الطبیعیّة فضلًا عمّا یتكلّفه الناس فی الأفعال الغریبة والأشیاء النادرة من سرعة الحركات التی لا بد منها أحیاناً فی السحر وما بحكمه من الأفعال الغریبة ومن التخفی علی بعض الأعمال التی لامناص منها عادة فی كثیر من الأفعال غیر المتعارفة؛

ولهذا كان الإعجاز فی كل عصر مسانخاً للعلوم والفنون الرائجة فی كل

ص: ۲۶

عصر، لیثق الناس بعدم کون المعاجز من شؤون علومهم ولا هی من نتائج فنونهم. ولا یشق علیهم معرفهٔ ذلک ولا یصعب علی من له الأهلیّهٔ الوقوف علیه فیرتابون.

الوجه الرابع:

إن الأنبیاء وأصحاب المعاجز کانوا- باعتراف معاصریهم- امناء فی قومهم صلحاء فی بلادهم صادقین فی مقالهم معروفین بالصلاح والسداد، وهذا ما یوجب الوثوق بصدقهم فی دعواهم وفی فعل الإعجاز. وقد استند الأنبیاء فی دعوتهم الأمم- حسب ما یحکیه القرآن الکریم- إلی هذه الجههٔ- أعنی وثاقتهم وأمانتهم- فکان الرسول یدعو الناس إلی قبول رسالته لکونه أميناً وثقهٔ. وهذا استناد إلی مبنی عقلائی مقبول لدیهم، وممّا یؤکد أنّهم اعتمدوا علی مبنی عرفی وعقلائی أنّهم ضمّوا إلی ذلک ما یدفع التهمهٔ عنهم، وذلک هو عدم مطالبتهم بأجرهٔ علی عملهم فلا ینتفعون بقبول دعوتهم بل ینتفع الناس بالإجابهٔ؛

فإنّ هذه الوجوه تبعث علی الوثوق بصدق الإعجاز ومدّعیه والاطمئنان بذلک.

وقد استدللنا بهذه الآیات فی مباحث اصول الفقه علی حجیّهٔ أخبار الثقات.

وقد ورد فی بعض النصوص حجّیهٔ خبر المدّعی الثقهٔ إذا لم یعارضه حجّهٔ اخری.

وکیف کان فالآیات التی أشرنا إلیها عدهٔ نکتفی بذکر بعضها:

قال تعالی: «وَ إِلی عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ... أُبَلِّغُکُمْ رِسالاتِ رَبِّی وَأَنَا لَکُمْ ناصِحٌ أَمِینٌ» (۱).

وقال تعالی: «کَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِینَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِیعُونِ وَما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ» (۲).

وقال تعالی: «کَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِینَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّی

۱- الأعراف: ۶۸.

۲- الشعراء: ۱۰۶- ۱۰۹.

ص: ۲۷

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ» (۱).

وقال تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ» (۲).

وقال تعالى: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ» (۳).

وقال تعالى: «كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ» (۴).

وقال تعالى: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» (۵).

ثمّ إنّه تجدر الإشارة إلى أن تشخيص الإعجاز عن السحر أمر صعب لا يقف عليه الناس العاديون مباشرة، بل لابد فى ذلك من الخبرة والدقّة والمهارة ويكون اعتراف الخبراء الثقات سبباً لعلم غيرهم من الناس وموجباً لقطع ساير الناس كما حصل لهم القطع. ولا يجب أن يباشر الناس تشخيص المعاجز بأنفسهم بل يكفيهم أن يثقوا عبر مباشرة أهل الخبرة.

كما لا يجب وقوف الناس على المعاجز مباشرةً، بل يكفى الوقوف عليها عبر

۱- الشعراء: ۱۲۳- ۱۲۷.

۲- الشعراء: ۱۴۱- ۱۴۵.

۳- الشعراء: ۱۶۰- ۱۶۵.

۴- الشعراء: ۱۷۶- ۱۸۰.

۵- الدخان: ۱۷- ۱۸.

ص: ۲۸

إخبار الثقات ممن عاصروا المعجزات، فإذا جاز الاعتماد على الأخبار فى المعجزات السابقة جاز الاعتماد على أهل الخبرة فى المعجزات المعاصرة؛ فيكون الوقوف على الإعجاز لأهل الخبرة مباشريّاً ولغيرهم بواسطتهم، كما يكون الوقوف على المعاجز لمعاصريها مباشرة وللمتأخرين عنها بإخبار معاصريها عنها.

مثلًا: قد لا يتيسّر للأعجمى المباشرة فى تشخيص الإعجاز فى الكلام العربى وفصاحته والحدّ الطبيعى من الفصاحة فيه، ولكنّه إذا وقف على اعتراف فصحاء العرب بل عظماء فصحائهم ممن يعترف لهم بذلك بإعجاز القرآن علم بالأمر.

والغرض من الإشارة إلى هذا الأمر هو تنبيه الناس على عدم الانخداع بمجرد دعوى الإعجاز من أناس لا حقيقة لدعواهم، وإنّما وقفوا على أمور لغرض التأمر عليهم، وقد كانت المعجزات مسانخةً لفنون أعصارها حتى لا يشتبه الأمر على أهل الخبرة وتقوم الحجّة عليهم، كما صرح بذلك فى بعض النصوص.

فقد روى الكلينى فى الكافى بإسناده عن أبى يعقوب البغدادى قال: قال ابن

ص: ۲۹

السکیت عن أبی الحسن علیه السلام: لماذا بعث اللّه موسی بن عمران علیه السلام بالعصا؟ (۱) ویده البیضاء وآلة السحر وبعث عیسی علیه السلام بآلة الطب وبعث محمداً صلی الله علیه و آله علی جمیع الأنبیاء بالکلام والخطب؟!

فقال أبوالحسن علیه السلام: إنّ اللّه لما بعث موسی علیه السلام کان الغالب علی أهل عصره السحر فأتاهم من عند اللّه ممّا لم یکن فی وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة علیهم. وإنّ اللّه بعث عیسی علیه السلام فی وقت قد ظهرت فیه الزمانات واحتاج الناس إلی الطب وأتاهم من عند اللّه ممّا لم یکن عندهم مثله وممّا أحیا لهم الموتی وأبرء الأکمه والأبرص بإذن اللّه وأثبت به الحجّة علیهم. وإنّ اللّه بعث محمّداً صلی الله علیه و آله فی وقت کان الغالب علی أهل عصره الخطب والکلام وأظنّه قال: الشعر، فأتاهم من عند اللّه من مواعظه وأحکامه ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجة علیهم. فقال ابن السکیت: تاللّه ما رأیت مثلک قط.

قال العلامة المجلسی بعد ذکر الخبر: بیان: قوله: آلة السحر، أی ما یشبهه أو یبطله. والأوّل أظهر بقرینة الثانی. یعنی الشطر الثانی من الخبر فیما یتعلق بمعجزة عیسی (۲).

الجهة الثالثة:

فی علة صدور المعاجز علی ید الأنبیاء والأئمة؛ وبعبارة جامعة:

مدعی المنصب الإلهی، والربط بین الإعجاز وصدق مدعیه.

ثمّ علی تقدیر الربط بین المعجزة وصدق صاحبها فهل ینحصر طریق إثبات الدعوی بالإعجاز أو یمکن إثباتها بوجه آخر؟

ویمکن تحلیل الربط بین الإعجاز وصدق صاحبه بأنّه راجع إلی الفطرة والعقل الغریزی؛ فإن تمکین خصوص مدعی منصب خاص بأمر یستلزم الاعتراف بدعواه فی بناء العقلاء وفهمهم، ویکون التخلّف عن هذه الطریقة بدون الإعلام إغراء للناس. فالربط بین المعجز وبین الصدق إنّما هو فی حد اللزوم لا مجرد

۱- أصول الکافی ۱: ۲۴- ۲۵ ورواه فی البحار عن العلل والعیون والاحتجاج ۱۷: ۲۱۰.

۲- نفس المصدر.

ص: ۳۰

المناسبة غير الملزمة. ألا ترى أنه إذا ادعى شخص الوكالة عن أحد بحضرته وجعل الدليل على ذلك تخصيص الموكل له بشيء دون الآخرين كالاستيلاء على مورد الوكالة، وسكت المدعى عليه عن الرد، يكون ذلك دليلًا واضحاً على إمضاء الوكالة وصحّتها.

ويشهد بما ذكرنا تعبير القرآن عن المعجزة بالبرهان والبيّنة والآية:

قال تعالى فى معجزة موسى عليه السلام: «فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ» (۱).

وقال تعالى فى معجزة عيسى عليه السلام: «أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (۲).

وقال تعالى: «وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ... فَقَدْ جائَكُمْ بَيِّنَةٌ» (۳).

وأمّا البحث عن إمكان إثبات الدعوى بغير الإعجاز، فالظاهر أنّه كذلك حيث إنّه يمكن تصديق المدعى، بسبب الإلهام أو إخبار صادق محقق؛ ولذا بَشّر بعض الأنبياء ممن سلف بمن يأتى بعده مشفوعاً ببيان علائم تعيّن من بشّر به. نعم الإلهام وإخبار الصادق قد ينتهيان إلى الإعجاز.

وهناك من يدعى أن طريق إثبات النبوّة هو موافقة أحكام الشريعة مع النظام والفطرة، بل يعتبرون ذلك هو الإعجاز، وأمّا ما يصدر على أيدى أصحاب الرسالات من خوارق فهى امور لا حاجة إليها بل ربّما قيل: إنّها لاغية غير عقلائيّة. وهذه الدعوى وإن أمكن الموافقة عليها فى شطرها الأوّل؛ إن لم يكن المقصود منها الحصر استطراقاً إلى إبطال المعاجز. ولكنها باطلة فى شطرها الأخير.

۱- القصص: ۳۲.

۲- آل عمران: ۴۳.

۳- الأنعام: ۱۵۸.

ص: ۳۱

وهناك بحث فی إمكان صدور المعجزة من غير الصادق فی دعواه لایهمّ التعرض له، والحق أنّه لا محذور فی تمكّن غير الصادق ممّا لا يتمكّن منه الناس عموماً إذا لم يستلزم إغراءً للناس ولا إغوائهم حسبما حققناه آنفاً من ملاك اعتبار الإعجاز؛ لكون دعوى غير الصادق مشفوعة بحجّة عقلية تبطل دعواه. وإن كان فی التعبير عن مثل هذا الخارق بالمعجزة مسامحة. ويشهد لما ذكرنا قصّة السامری واستجابة بعض الدعوات وغير ذلك ممّا شهد به القرآن وغيره.

الجهة الرابعة:

فی إمكان الإعجاز و تعقّله وهل أن المعجزة توافق قانون العلّة والمعلول واحتياج المعلول إلى العلّة أو أنّها تخالفها وتضادّها؟

وقبل البحث عن موافقة الإعجاز لقانون العلّة لابد من بحث إجمالی عن هذا القانون ومضمونه ومدى صحته ثمّ مقايسة الإعجاز معه فنقول:

إن قانون العلّة أمر بديهی فطری مسلّم قبل أن يكون مؤيداً بحكم العقل.

ويعترف به كلّ ذی عقل سليم بل كلّ ذی شعور كالحيوانات وإن لم تكن ذوات عقول. وحقيقة هذا القانون هو امتناع تحقّق الحادث والممكن فی ذاته بدون علّة تحدثه وتفيض وجوده- ولا تفيض الوجود عليه- فإن الممكن ليس شيئاً قبل تحقّقه ليكون قابلًا لفيض، بل هو عدم محض كالممتنع، إلّاأن الممتنع لا يمكن تحققه أصلًا والممكن يتحقّق بسبب العلّة، فنسبة الوجود والعدم إلى الممكن إذا كانت واحدة لا يعقل ترجّح الوجود على العدم إلّابعلّة من خارج الذات. وأمّا ترجح العدم فيكفی له عدم وجود مرجح الوجود فعدم علة الوجود علّة العدم. فليس العدم أيضاً فاقداً للعلّة فما ظنّك بالوجود.

فقانون حاجة الممكن إلى العلّة فی وجوده أمر ضروری لا مجال لإنكاره بعد بداهته وكونه مفطوراً لدى الناس بل غريزياً لذوی الشعور.

ولا مناص من تحليل المعجزة وتصويرها بما لا يتنافى مع هذا القانون. وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم مع تصديقه الإعجاز يصدّق القانون المتقدم، بل هذا القانون هو من جملة ما يعتمد عليه القرآن بجدّ وأصالة فی إثبات حاجة العالم

ص: ۳۲

والسماوات والأرض إلی مبدأ وعلّة. ونحن- رعایةً للاختصار- نشیر إلی بعض الآیات المشیرة إلی قانون العلّة والتی تعترف به صراحة:

۱- قال تعالی: «کَیفَ تَکْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ کُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْیاکُمْ» (۱).

ومفهوم الآیة أنّه کیف تنکرون العلّة وقانونها مع وضوح الحدوث فیکم وأنّکم لم تکونوا ثمّ وجدتم.؟!

۲- وقال تعالی: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَیرِ شَیْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا یُوقِنُونَ» (۲).

والمعنی أنّهم هل وُجدوا بدون علّة توجدهم أم أنّهم العلة لوجود أنفسهم فباشروا إیجاد نفوسهم. ثمّ السماوات والأرض هی أیضاً بحاجة إلی علة، فهل إنّهم خلقوها؟ وإذا لم یکونوا خالقین للسماوات فلا مناص لهم من الاعتراف بوجود خالقٍ لها وهو اللَّه. وقد نبّه اللَّه علی هذا القانون بمجرد السؤال ولم یباشر بالإجابة إحالةً للجواب إلی الوضوح کما فی قوله تعالی: «هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ» فالقرآن لایعترف بقانون العلّة فقط، بل بوضوحه وبداهته أیضاً.

ولا بأس بالإشارة إلی بعض الأخبار الدالة علی الاعتراف بقانون العلّة:

ففی روایة عن عبداللَّه بن سنان عن أبی عبداللَّه علیه السلام أنّه قال فی الربوبیّة العظمی ثم الإلهیة الکبری: «لا یکون الشیء لا من شیء إلّااللَّه...» (۳).

والاستثناء فی الخبر لیس عن قانون العلّة فإنّها لا تقبل الاستثناء، بل هو استثناء عمّا هو أعم من القانون فیکون استثناء وجود اللَّه بغیر علّة من الاستثناء المنقطع فلا تغفل.

إذا تمهد شأن قانون العلّة نأتی إلی مسألة المعجزة وشأنها مع القانون الآنف

۱- البقرة: ۲۸.

۲- البقرة: ۱۶۴.

۳- البحار ۴: ۱۴۸، الحدیث ۲.

ص: ۳۳

فنقول: الإعجاز من الحوادث والوجودات الممكنة فلا مناص له من الاندراج فی القانون المتقدم، وبالنتیجة لا یجوز وقوع الإعجاز بدون علّة. ولم یدّع أصحاب المعاجز ولا المعترفون لهم بها أن المعجزات تصدر بلا علّة، وإنّما الذی یدعی هو:

اختلاف علّة المعاجز عن سایر العلل وأن علّة المعجزة فی انحصار ولیس فی ید عامّة الناس.

فالمعجزة توسعة لموضوع قاعدة العلّة وقانونها، لا توسعة للحكم بدون موضوع. ولیس هناك فی العقل ما یحصر العلّة فی خصوص شیء. بل وجود علل متعددة لحادث واحد فی الكون دلیل واضح علی عدم لزوم انحصار العلّة فی شیء واحد.

فإذا وجدت علل متعددة كونیة عامّیة لبعض الأحداث، فما المانع من وجود علّة أو علل كونیّة خاصّة لذلك الحادث؟ ولا ضرورة لكون العلل بأسرها فی ید عامة الناس، فالحرارة لها علّة ینالها الناس هی النار ولها علّة خارجة عن منالهم هی الشمس. وتولید الأمثال فی الإنسان بصورة وفی النبات بصورة اخری وفی بدء الخلق كان بصورة غیر دوامه.

والصعود لبعض الأشیاء بالسلالم ولبعضها بالطیران ولبعضها بالطفرة ولا مانع أن یكون لبعض بإرادة.

فاتضح أن المعجزة لا تخرق قانون العلّة وإنّما توسّع موضوعها.

وما فی بعض الكلمات من أن الواحد لا یصدر إلّامن واحد، یراد بذلك أنّه لابد من مسانخة بین المعلول والعلّة، وتكون جهة مشتركة بین العلل المختلفة لتأثیرها فی معلول واحد، ولا یراد بذلك عدم إمكان صدور واحد من أشیاء متعددة مختلفة بالصورة.

ثم إنه لو فرض إمكان التخلّف فی المعاجز عن قانون العلّة لم تفعل المعجزة أثرها المطلوب، فإن المعجزة لا تؤثر فی إثبات الدعوی إلّاإذا انضم إلیها قانون العلّة، وتوضیح ذلك:

ص: ۳۴

إن المعجزة إنّما تثبت صـدق صاحبها إذا کان التأثیر فی الکون ثابتاً عبر العلل والضوابط، وإلّا فلو أمکن الهرج فلا یمکن الاسـتناد إلی المعجزة فی صدق صاحبها بعد احتمال صدور ما یسمّی بالمعجزة بدون ضابط وقاعدة.

إذن، فإنکار الإعجاز لا یستند إلی إثبات قاعـدة العلّة، بل هو مستند إلی دعوی انحصار العلّة فی العلل المأنوسة وهذا غیر قاعدة العلّة. وربّما کان تفسیراً لها ولکنّه تفسیر باطل. وکأن هـذا التفسیر هو مقصود الکفّار فی قضیّة ولادة المسیح علیه السلام، حیث إن العلّة المتعارفة لتولید النسل هو الولادة من الأب، فردّ علیهم فی القرآن الکریم: «إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ» (۱)

وکأنّه علی التفسیر الموهوم المتقدّم لقانون العلّة أنکر الکفّارُ المعادَ حیث ذکروا أنّه: «أَ إِذا کُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً» ولم یکن ذلک بدعاً منهم «بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ» (۲).

وقد ردّ علیهم بوجوه:

الوجه الأوّل:

عدم انحصار قانون العلّة فی خصوص العلل المأنوسة لیستلزم إنکار المعاد.

الوجه الثانی:

تعدد نظام العلل المأنوسة فی الحیاة المادّیه، ولهذا قیس المعاد والحیاة الأخری علی الحیاة النباتیّة التی تختلف عن الحیاة الحیوانیة.

قال تعالی: «فَانْظُرْ إِلی آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ کَیْفَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتی وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» (۳).

«وَ اللَّهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیاحَ فَتُثِیرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلی بَلَدٍ مَیِّتٍ فَأَحْیَیْنا بِهِ

۱- آل عمران: ۵۹.

۲- راجع سورة الحج: ۸۱ وما بعدها، وغیر هذه السورة أیضاً.

۳- الروم: ۵۰.

ص: ۳۵

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها کَذلِکَ النُّشُورُ» (۱).

وقال تعالی: «وَ أَحْیَیْنا بِهِ بَلْدَهً مَیْتاً کَذلِکَ الْخُرُوجُ» (۲).

وقال تعالی: «وَ مِنْ آیاتِهِ أَنَّکَ تَرَی الْأَرْضَ خاشِعَهً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْیاها لَمُحْیِ الْمَوْتی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» (۳).

الوجه الثالث:

اعتبار التمکن من أمر دلیلًا علی التمکّن من إعادته وتکراره.

قال تعالی: «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ* قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّهٍ» (۴).

وقال تعالی: «أَیَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً* أَ لَمْ یَکُ نُطْفَهً مِنْ مَنِیٍّ یُمْنی* ثُمَّ کانَ عَلَقَهً فَخَلَقَ فَسَوَّی* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی* أَ لَیْسَ ذلِکَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتی» (۵).

الوجه الرابع:

الاستدلال لإثبات المعاد بالتمکّن والقدرة الزائدة علی إیجاد الحیاة الأولی.

قال تعالی: «أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتی بَلی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» (۶).

وقد جمع بین الوجهین الثانی والثالث فی سورة الحج (۷).

فاتضح بما قررناه بطلان حسبان منافاة الاعتراف بالمعجزة للاعتراف بقانون العلّة التی لا مناص منها فی إثبات المبدأ وغیره.

وربما ایدت دعوی بطلان المعاجز بأن المعجزة تنافی بعض الآیات عدا عن

۱- الفاطر: ۹.

۲- ق: ۱۱.

۳- فصلت: ۳۹.

۴- یس: ۷۸ و ۷۹.

۵- القیامة: ۳۶- ۴۰.

۶- الأحقاف: ۳۳.

۷- الحج: ۵.

ص: ۳۶

منافاتها لقانون العلّة، قال تعالی: «وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً* أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ قَبِیلًا* أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» (۱).

فزُعم أن المراد من قوله: هل کنت إلّابشراً، هو إنکار إمکان المعجزة وکونها تخلّفاً عن نظام الکون والعلل.

وربما زید لإثبات الدعوی المتقدمة، الاستدلال بقوله تعالی: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلًا» (۲).

ویرد علی هذه المغالطات أن آیة سورة الإسراء لا- ربط لها بإنکار المعجزة، وإنما هی بصدد الردّ علی شهوات الکفّار واقتراحاتهم وأهوائهم، وأن الرسول بشر لا یقدر علی ما یریده الناس وتهواه نفوسهم (۳).

وأمّا آیة سنّة اللَّه فواضحٌ عدم إنکارها للمعجزة بعد کون المعجزة أیضاً من سنن اللَّه فی إثبات الرسالات فکانت الآیة مثبتة لها لانافیة إیّاها.

الجهة الخامسة:

فی صدور المعجزة ووقوعها خارجاً من الأنبیاء والأولیاء بعد ما تقدم من إمکانها وعدم المحذور فیها.

لا ینبغی الریب فی صدور امور خارقة للعادة لا توافق القوانین العامّة الطبیعیّة، علی مرّ الدهور السالفة، من اناس عرفوا بالنبوّة والصلاح والسداد، وقد کثر النقل والحکایة علی أیدی الثقات والصلحاء بما لا یبقی الشک ولا یدع التردید،

۱- الإسراء: ۹۰- ۹۳.

۲- الفتح: ۲۳ وغیرها.

۳- وهناک بحث قرآنی وروائی فی کون المعاجز من أفعال أصحاب الرسالات أو هی فعل اللَّه مباشرة مقارنة لدعواهم لایهمّنا؛ حیث لا یؤثر فی الجهات المقصودة فی المقام، وظاهر الآیات والنصوص هو وقوع الأمرین، وقد فصّلنا الکلام فی بعض الرسائل.

ص: ۳۷

وهـذا ما يصـطلح عليه بالتواتر الإجمالى؛ فإن المعجزات لو فرض عدم تواترها بأشخاصـها لفظيّاً أو معنويّاً ولكنّها متواترة إجمالًا بمعنى أنّه يمتنع تواطؤ هـذا العـدد الكـبير على الكـذب فى الأـمور المختلفـة والمتباينـة بغض النظر عن وثاقـة الرواة والنقلـة، فكيف مع فرض وثاقتهم وصلاحهم؟!

هـذا، مع أنّه يمكن أن يقال: إن شأن نبىّ الإسـلام والقرآن وأهل بيته لدى المنصـفين هو شأن يفيد الوثوق بما يخبرون به بعدما عرفوا لدى عامّة الناس بالوثاقة والأمانة حتى لمن لا يعترف لهم بالنبوة والإمامة.

وقـد أسـمعناك اعتمـاد الأنبيـاء- حسب حكايـة القرآن- فى إقنـاع الامـم على كونهم امنـاء ثقـات لـدى الناس بغض النظر عن دعوى الرسالة التى أورثتهم التهمة.

وبناء العقلاء فى مثل ذلك على الاعتماد والركون لولا التعنّت والعناد.

وعلى هـذا الأساس تفيد إخبارات القرآن وأخبار نبى الإسـلام والأئمة من أهل بيته العظام، الوثوق بما أخبروا به بالغض عن ضمّ أخبار سـائر الأنبيـاء والامناء فلا يكاد يقلّ الوثوق الحاصل من ذلك لليهود والنصارى عمّا يحصل لهم من التوراة والأناجيل الموجودة؛ هـذا. سيّما وقـد صدّق القرآنَ والنبىَّ والأئمّةَ من أهل بيته المنصـفون من اليهود والنصارى وساير النحل فى أخبارهم وحكاياتهم، وليس هنا مجال تفصيلها فراجع كتاب عيون أخبار الرضا وغيره.

ثمّ إن أخبار الأنبياء والأوصياء وإن لم تصل إلينا مباشرةً لكنّها وصلتنا بواسطة الثقات من الناس ممن عرفوا بالصلاح والأمانـة- هـذا بالغض عن التواتر فى أسانيـد الأخبار- حتى أنك ترى أن من يخالفهم فى الـدين أو المـذهب يعترف لهم بالصـدق والأمانة كما كان يعترف لسادتهم ومواليهم من الأنبياء والأوصياء من لا يصدّقهم فى دعوى النبوة والإمامة.

وقـد جمع الإمـام شرف الـدين العـاملى فى كتـاب المراجعات طائفـةً من الشـيعة ممن اسـتند إليهم أهل السنّة فى الروايات لصـدقهم وورعهم بعد أن رموهم بالرفض والتشيع واتهموهم بالغلوّ والإفراط وما شابهها، ولو أنّهم كانوا يرمونهم بالكفر

ص: ۳۸

والزندقة کان أهون علیهم، ومع ذلک اعتمدوا علیهم لما لم یجدوا بُدّاً من ذلک لأمانتهم وورعهم، وذکر فی المراجعات أن هذا العدد- وقد أنهاه إلی مائة- هم بعض الشیعة ممّن یعتمد علیهم أهل السنّة، وإلّا فهناک غیرهم ممن یعتمدون علیهم من الشیعة. ونظیر ما فی المراجعات ما ذکره العلامة الأمینی صاحب الغدیر.

والغرض من هذا البیان هو أنّه لا- ینحصر الاعتماد علی أرباب الأدیان لمن یوافقهم فی الدین والملّة، ولا یتوقف التعویل علی أهل مذهب علی موافقتهم فی النحلة بل یجوز لغیرهم الاعتماد علیهم بعدما کان یعتمد المخالف لهم فی المذهب علیهم؛ لکونهم ثقات فی القول متورّعین عن الکذب، فلا- یکون إثبات المعاجز بإخبار أصحاب المذاهب دوریّاً ولا أن حکایتها بواسطة منتحلی الأدیان لغواً؛ هذا.

وهناک بعض المعجزات خالدة حیّة یمکن الوقوف علیها بالمباشرة بلا حاجة إلی نقل أو حکایة، ولا تتوقف الإحاطة بها علی إخبار أو روایة، وقد تقدّم أن بعضهم أنکر الحاجة إلی الامور الخارقة للعادة من قبیل إحیاء الموتی واعتبر الإعجاز ما کان من قبیل نظم الأحکام الثابتة فی الشریعة وموافقتها للفطرة.

ومن جملة المعاجز المعاصرة للأجیال هو القرآن الکریم الذی «لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ»، وهی معجزة خالدة بحفظ اللّه، حیث قال: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ

ص: ۳۹

لَحافِظُونَ»، وقد تحدّی البشر فی دعوته حیث قال: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِی رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ». وسیأتی بعض الکلام فی ذلک فی الفصل الآتی إن شاء اللّه تعالی.

الفصل الثانی: فی إعجاز القرآن الکریم

وتفصیل البحث فیه محوّل إلی مجال آخر والذی نحن بصدده هو أنّ من جملة وجوه إعجاز القرآن هو صدوره علی ید رجل أُمّی معروف هو وقومه بذلک مع ما اشتمل علیه القرآن من المعارف التی تنبیء عن علم صاحبه، بل قد حوی حقائق تحکی عن عظیم علومه.

وقد وُصف النبیّ صلی الله علیه و آله بالامّیة فی القرآن وغیره من الحدیث والسیر، بل هو من أوصافه المعروفة وقد تکرّر فی القرآن ذکره:

۱- قال تعالی: «قالَ عَذابِی أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ كُلَّ شَیْءٍفَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِی يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِی لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِی وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِی يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ» (۱).

۲- وقال تعالی: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ» (۲).

۱- الأعراف: ۱۵۶- ۱۵۸.

۲- الجمعة: ۲.

ص: ۴۰

۳- وقال تعالى: «وَ کَذلِکَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلَّا الْکافِرُونَ* وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ* بَلْ هُوَ آیاتٌبَیِّناتٌ فِی صُدُورِالَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ» (۱).

والمعروف أن الأمّی هو الذی لا یعرف الکتابة ولا قراءة الکتب ویحتمل أن یکون معناه هو من لا یعرف العلوم المفتقرة إلى الکسب والتعلّم الموقوفة عادة على القراءة والکتابة، ویکون عدم معرفة الکتاب والقراءة أمارة على الأمّیة.

قال ابن منظور: الأمّی الّذی لا یکتب. قال الزجاج: الأمی الذی على خلقة الأمة، لم یتعلم الکتاب فهو على جبلته. قال أبو إسحاق: معنى الأمی، المنسوب إلى ما علیه جبلته أمّه، أیالذی لا یکتب فهو فی أنّه لا یکتب، أمی؛ لأنّ الکتابة هی مکتسبة فکأنّه نسب إلى ما یولد علیه أی على ما ولدته أمّه علیه. وکانت الکتابة فی العرب من أهل الطائف تعلّموها من رجل من أهل الحیرة وأخذها أهل الحیرة عن أهل الدینار.

وفی الحدیث: إنا أمة أمیة لا- نکتب ولا- نحسب، أراد أنّهم على أصل ولادة أمهم، لم یتعلموا الکتابة والحساب فهم على جبلتهم الاولى.

وفی الحدیث: بعثت إلى امّة أمیة. قیل للعرب: الأمیون؛ لأنّ الکتابة کانت فیهم عزیزة أو عدیمة. ومنه قوله: «فی الامیین رسولًا منهم...».

وقیل لسیدنا محمد رسول اللَّه صلى الله علیه و آله الامّی؛ لأنّ أمة العرب لم تکن تکتب ولا تقرأ المکتوب وبعثه اللَّه رسولًا وهو لا یکتب ولا- یقرأ من کتاب، وکانت هذه الحالة إحدى آیاته المعجزة لأنّه صلى الله علیه و آله تلا علیهم کتاب اللَّه منظوماً تارة بعد اخرى

۱- العنکبوت: ۴۷- ۴۹.

ص: ۴۱

بالنظم الـذى أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه؛ وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثمّ عادها زاد فيها ونقص فحفظه اللَّه عز وجل على نبيه كما أنزله وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التى باين بينه وبينهم بها ففى ذلك أنزل اللَّه تعالى:

«وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ»، الـذين كفروا ولقالوا: إنّه وجد هـذه الأقاصيص مكتوبة حفظها من الكتب (۱).

وقال الطريحى: الأمّى فى كلام العرب الذى لا كتاب له من مشركى العرب (۲).

وقال الراغب: ويقال لكل ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أمّ وقيل: سمّى بذلك لنسبته إلى امّ القرى (۳).

وعن القاموس: أمّ القرى مكّة؛ لأنّها توسطت الأرض فيما زعموا، أو لأنّها قبلة الناس يؤمّونها أو لأنّها أعظم القرى شأناً (۴).

وفى المصباح: الأمّى فى كلام العرب الذى لا يحسن الكتابة، فقيل: نسبة إلى الأمّ، وقيل: نسبة إلى أمّة العرب؛ لأنّه كان أكثرهم أمّيين (۵).

وفى دائرة المعارف الإسلاميّة: الأمّى عنـد العرب هو الـذى لا يكتب... قال أبو حيّان فى تفسير البحر المحيط: الأمّى الّذى لا يقرأ فى كتاب ولا يكتب... وقد ثبت بالتواتر الذى لا شك فيه أن النبى صلى الله عليه و آله كان امّياً بمعنى أنّه لا يعرف القراءة والكتاب (۶).

وقال العلّامة المجلسى فى البحار: «ومن أسمائه صلى الله عليه و آله الرسول النبى الأمّى، إلى قوله: وأمّا الأمّى فقال قوم: إنّه منسوب إلى مكة وهى أمالقرى كما قال تعالى:

«بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا»، وقال آخرون: أراد الذى لا يكتب؛ قال ابن فارس:

وهذا هو الوجه لأنّه أدل على معجزة إلى قوله: وروى عنه: نحن أمة أمية لا نقرأ

۱- لسان العرب.

۲- مجمع البحرين.

۳- المفردات.

۴- القاموس.

۵- المصباح.

۶- دائرة المعارف، محمد بن جرير الطبرى، التفسير ۱: ۲۹۶؛ بولاف.

ص: ۴۲

ولا نكتب. وقد روى غير هذا» (۱).

وقال فى موضع آخر: وقيل: أمّى منسوب إلى أمّة يعنى جماعة عامة؛ والعامة لا تعلم الكتابة. ويقال: سمى بذلك لأنه من العرب وتدعى العرب الأميون. وقوله تعالى: «هو الذى بعث فى الأميين»؛ وقيل: لأنه يقول يوم القيامة: أمتى أمتى.

وقيل: لأنه الأصل وهو بمنزلة الأم التى يرجع الأولاد إليها، ومنه أم القرى. وقيل:

لأنّه لأمته بمنزلة الوالدة الشفيقة بولدها فإذا نودى يوم القيامة: يوم يفر المرء من أخيه، تمسك بأمته. وقيل: منسوب إلى أم وهى لا تعلم الكتابة لأنّ الكتابة من أمارات الرجل. وقالوا: نسب إلى أمّة يعنى الخلقة قال الأعشى:

وإنّ معاوية الأكرمين حسان الوجوه طوال الأمم

قال المرتضى فى قوله تعالى: «وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ»: ظاهر الآية تقتضى نفى الكتابة والقراءة بما قبل النبوة دون ما بعدها، ولأنّ التعليل فى الآية يقتضى اختصاص النفى بما قبل النبوة لأنّهم إنّما يرتابون فى نبوته لو كان يحسنها قبل النبوة فأمّا بعدها فلا تعلق به بالريبة فيجوز أن يكون تعلمها من جبرئيل بعد النبوة ويجوز أن لم يتعلم فلا نعلم. قال الشعبى وجماعة من أهل العلم: ما مات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى كتب وقرأ. وقد شهر فى الصحاح والتواريخ قوله صلى الله عليه و آله: إيتونى بدوات وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً (۲).

وقال فى موضع ثالث: قال الطبرسى رحمه الله: الأمى، ذكر فى معناه أقوال: أحدها الذى لا يكتب ولا يقرء. وثانيها: إنّه منسوب إلى الأمّة والمعنى أنه على جبلة الأمّة قبل استفادة الكتابة وقيل: إنّ المراد بالأمة العرب لأنّها لم تكن تحسن الكتابة.

وثالثها: إنّه منسوب إلى الامّ والمعنى أنّه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة.

ورابعها: إنّه منسوب إلى امّ القرى وهو مكة وهو المروى عن أبى جعفر عليه السلام.

۱- بحارالأنوار ۱۶: ۱۱۹.

۲- بحارالأنوار ۱۶: ۱۳۵.

ص: ۴۳

وفی قوله تعالی: «إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» أی ولو کنت تقرأ کتاباً أو تکتبه لوجد المبطلون طریقاً إلی الشک فی أمرک ولقالوا: إنّما یقرأ علینا ما جمعه من کتب الأولین.

قال السید المرتضی قدس سره: هذه الآیة نزلت علی أنّ النبی صلی الله علیه و آله ما کان یحسن الکتابة قبل النبوة، وأمّا بعدها فالذی نعتقده فی ذلک: التجویز لکونه عالماً بالقراءة والکتابة، والتجویز لکونه غیر عالم بهما من غیر قطع علی أحد الأمرین. وظاهر الآیة تقتضی النفی بما قبل النبوة لأنّ المبطلین إنّما یرتابون فی نبوته صلی الله علیه و آله لو کان یحسن الکتابة قبل النبوة فأمّا بعد النبوة فلا تعلق بالریبة والتهمة فیجوز أن یکون قد تعلمها من جبرئیل علیه السلام بعد النبوة (۱).

أقول: یظهر من هذا الکلام أنّ ما نسبه بعض المتأخرین إلی السید المرتضی من کون النبیّ صلی الله علیه و آله أمّیاً بعد البعثة أیضاً لیس تامّاً وأنّ السید متوقّف فی المسألة.

ثمّ إن صاحب البحار ذکر روایات یدعی ظهورها فی أن النبیّ صلی الله علیه و آله کان لا یکتب ولا تنفی القراءة. وأیضاً ذکر روایات تنفی کونه صلی الله علیه و آله أمّیاً فی القراءة والکتابة ثمّ قال:

«بیان: یمکن الجمع بین هذه الأخبار بوجهین: الأوّل: أنّه صلی الله علیه و آله کان یقدر علی الکتابة، ولکن کان لا یکتب، لضرب من المصلحة. الثانی: أن نحمل أخبار عدم الکتابة والقراءة علی عدم تعلمها من البشر وسائر الأخبار علی أنّه کان یقدر علیها بالإعجاز.

وقال: وکیف لا یعلم من کان عالماً بعلوم الأوّلین والآخرین أن هذه النقوش موضوعة لهذه الحرف (۲).

وقال الرازی فی تفسیره: قال الزجاج: معنی الأمّی الذی هو علی صفة أمّة

۱- المصدر نفسه: ۸۳- ۸۴.

۲- المصدر نفسه: ۱۳۴.

ص: ۴۴

العرب، قال علیه الصلوة والسلام: إنّا أمة أمیة لا نکتب ولا نحسب. فالعرب أکثرهم ما کانوا یکتبون ولا یقرأون والنبی علیه الصلوة والسلام کان کذلک فلهذا السبب وصفه بکونه أمیاً (۱).

وقال فی تفسیر نمونه (الأمثل) ما ترجمته:

والخطأ الّذی ینبغی التجنب عنه هو أنّ عدم الدراسة لا یعنی عدم العلم والذین یفسّرون لفظة الأمّی بعدم العلم کأنّهم لم یلتفتوا إلی الفرق بین الأمرین، فإنّه لا مانع من علم النّبی صلی الله علیه و آله- بتعلیم إلهی- بالقراءة أو بها وبالکتابة من دون أن یکون تعلّم ذلک من إنسان... إلی أن قال:

۱- لم یتعلم النّبی صلی الله علیه و آله القراءة والکتابة من إنسان قطعاً.

۲- لا دلیل صحیح أو معتبر فیما بأیدینا علی أن النّبی صلی الله علیه و آله کتب شیئاً أو قرأ قبل النّبوة ولا بعدها.

۳- لا ینافی هذا کون النّبی صلی الله علیه و آله قادراً علی القراءة والکتابة بتعلیم إلهی (۲).

إذا عرفت ما مهّدناه، فالبحث عن کون النّبی صلی الله علیه و آله امّیاً تارة بملاحظة حاله صلی الله علیه و آله قبل البعثة وأخری بعدها فالکلام فی مقامین:

وتمهیداً للبحث ننقل بعض کلمات أصحاب التاریخ فیما یتعلّق بالوضع العام لثقافة العرب بشأن العلم والکتابة؛ قال جرجی زیدان: لم یکن العرب فی جاهلیتهم یعرفون الکتابة إلا نفراً قلیلین ولم یکن کتابتهم بالأحرف العربیة المعروفة الیوم وإنّما کانوا یکتبون بالأحرف العبرانیة أو بالأحرف النبطیة. ولما ظهر الإسلام، لم یکن یکتب بالعربیة إلا بضعة عشر إنساناً کلهم من الصحابة، ومنهم علی بن أبی طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان، وأبوسفیان، وولداه، ومعاویة و یزید وغیرهم، فکان علی وعثمان وزید بن ثابت وعبداللّه بن الأرقم، ممن کتب للنبی، لأنّه لم یکن یکتب ولا یقرأ، فکتبوا له سور

۱- تفسیر الرازی، سورة الأعراف: ۱۵۷.

۲- تفسیر الأمثل: ذیل سورة الأعراف: ۱۵۷.

ص: ۴۵

القرآن والکتب التی خاطب بها الملوک یـدعوهم إلی الإسـلام. وکان بعضـهم یکتب له حوائجه والبعض الآخر یکتبون بین الناس فی المدینـة والبعض الآـخر یکتبون بین القوم فی میاههم وقبائلهم وفی دور الأنصار من الرجال والنساء. ولما تولی أبوبکر، کان عثمان بن عفان کاتبه یکتب له الکتب إلی العمال والقواد وصارت الکتابة من مناصب الحکومة (۱).

وقال أیضاً: لیس فی آثار العرب بالحجاز ما یدل علی أنّهم کانوا یعرفون الکتابة قبل الإسلام مع أنهم کانوا محاطین شمالًا وجنوباً بأمم من العرب خلّفوا نقوشاً کتابیـة کثیرة وأشـهر تلک الامم حِمْیَر فی الیمن، والأنباط فی الشـمال، والسـبب فی ذلک أنّ الحجاز أو عرب مضـر کانت البداوة غالبة علی طباعهم والکتابة من الصـنایع الحضریة... فجاء الإسلام والکتابة معروفة فی الحجاز ولکنها غیر شائعة فلم یکن یعرف الکتابة فی مکة إلا بضعة عشر إنساناً أکثرهم من کبار الصحابة (۲).

وقـال فی تاریـخ الجاهلیـة: والجـاهلیون کانوا امیین لا یخطون ولا یقرأون الخط وخصوصاً فی البادیـة. علی أن هـذا لا یعنی أنّ القراءة والکتابة کانتا مجهولتین لقد کانتا معروفتین فی القری وفی البادیة ولکن لم تکونا شائعتین (۳).

إذا عرفت ما تمهّد فالکلام یقع فی المقام الأوّل وهو فیما یتعلق بشأن النّبی صلی الله علیه و آله قبل البعثة فهل کان أمّیاً أبجدیاً آنذاک أو لا؟

المعروف بین أصـحاب السـیر- بل الظاهر أنّه متفق علیه بینهـم- أنّه صلی الله علیه و آله قبل النبوة کان أمّیاً لا یقدر علی قراءة ولا کتابة وکان کعامّـة قومه فی هـذا الوصف وإن کان بارزاً عنهم فی أوصاف نفسـیة کمالیة کالصدق والأمانة والخلق العظیم، وکان یعترف له بذلک الناس. وقد تقدم بعض الکلمات فیما یرتبط بذلک.

وربما نسب إلی بعضٍ خلاف ذلک، وأن النّبی صلی الله علیه و آله فی هذا المقطع من عمره

۱- تاریخ تمدن اسلامی ۱: ۲۵۳.

۲- تاریخ آداب اللغة العربیة ۲: ۱۹۷.

۳- تاریخ الجاهلیة: ۱۶۴.

ص: ۴۶

الشریف لم یکن أمیاً أبجدیاً بل کان قادراً علی القراءة والکتابة.

ونحن لا نتابع هذه المسألة لمجرد معرفة التاریخ، بل الذی یدفعنا إلی هذا البحث والتنقیب هو أهمیة المسألة من حیث ارتباطها الوثیق بشأن إعجاز القرآن ومعارف الإسلام ودفع الشبهة عن حقیقة هذا الدین الحنیف، فلذا یکون البحث عن ذلک بحثاً کلامیاً وممارسة ذلک مسألة عقائدیة.

والّذی یدلل علی کونه صلی الله علیه و آله أمیاً أبجدیاً قبل البعثة أمور:

الأمر الأوّل:

عدم حکایة قدرة النبی صلی الله علیه و آله علی القراءة والکتابة فی تاریخ صحیح ولا غیره مع ما ذکر فیه بشأن من کان من العرب یقرأ ویکتب وحصرهم فی عدد قلیل لا یتجاوز عدد الأصابع معینین بأسمائهم لیس هو صلی الله علیه و آله منهم؛ ومع هذا الوصف لو کان صلی الله علیه و آله غیر أمّی لکانت سنّة التاریخ تقتضی ذکره مع وجود دواعی کثیرة علی ذلک، ومن جملتها دواعی المخالفین لنبوّته، حتی أنّهم ذکروا فی هذا المجال بعض أسفاره إلی الشام وأنّه لقی بعض علماء أهل الکتاب فی سفره أو غیره فتعلم منه ما جاء به من القرآن، کما اشیر إلیه فی الکتاب قال تعالی: «لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ».

ص: ۴۷

وقد عدّ هذا الدلیل بعضهم شاملًا لما بعد البعثة واستدلّ به لإثبات کونه صلی الله علیه و آله أمیاً بعد البعثة إلّاأنّه سیأتی البحث عن ذلک.

قال فی المحکی عن ویل دیورانت:

الظاهر أنه لم یکن أحد یفکِّر فی تعلیمه- أی تعلیم النبی صلی الله علیه و آله- القراءة والکتابة، فلم تکن صناعة الکتابة والقراءة ذات أهمیةٍ فی نظر الأعراب؛ ولهذا لم یکن یتجاوز الذین یعرفون القراءة والکتابة السبعة عشر شخصاً؛ ولسنا نعلم أن محمداً صلی الله علیه و آله قد کتب شیئاً بنفسه، لقد کان له کاتب خاص بعد النبوّة، ومع ذلک فقد جری علی لسانه أعرق الکتب العربیة وأشهرها، وقد عرف دقائق الأمور أفضل بکثیر من المتعلمین (۱).

الأمر الثانی:

قوله تعالی: «وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (۲).

روی فی تفسیر الصافی عن تفسیر القمی أن هذه الآیة معطوفة علی قول اللّه تعالی فی سورة الفرقان: «وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَأَصِیلًا» (۳). فرد اللّه علیهم بما فی هذه الآیة.

وکیف کان، فظاهر عدم التلاوة وعدم الخط هو عدم القدرة فإنّه المناسب لنفی الارتیاب.

الأمر الثالث:

وصف النبی صلی الله علیه و آله بالامّی فی الکتاب وغیره؛ فإنّه یناسب اتصافه بنفسه بذلک لا باعتبار اتصاف قومه به. قال تعالی: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ» (۴)، وقال تعالی: «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِیِّ الْأُمِّیِّ» (۵).

۱- قصة الحضارة حکاها الشهید المطهری فی کتاب: النبی الأمی: ۷.

۲- العنکبوت: ۴۸.

۳- الفرقان: ۵.

۴- الأعراف: ۱۵۷.

۵- الأعراف: ۱۵۸.

ص: ۴۸

ولکن الاستدلال مبنیّ علی کون الأمّیة بمعنی عدم العلم بالکتابة والقراءة، وسیأتی إن‌شاءاللَّه تعالی بعض الاحتمالات الأخری فی معناه، وناهیک فی هذا المجال صحیح معاویة بن عمّار عن أبی عبداللَّه علیه السلام فی قوله تعالی: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولًا مِنْهُمْ» قال: «کانوا یکتبون ولکن لم یکن معهم کتاب من عند اللَّه ولا بعث إلیهم رسولًا فنسبهم إلی الأمیین» (۱).

الأمر الرابع:

بعض النصوص:

منها: ما رواه فی تفسیر الصافی عن العیون بإسناده عن الرضا علیه السلام فی حدیث:

«ومن آیاته أنّه کان یتیماً فقیراً راعیاً أجیراً لم یتعلم کتاباً ولم یختلف إلی معلّم، ثمّ جاء بالقرآن الذی فیه قصص الأنبیاء وأخبارهم حرفاً بحرف وأخبار من مضی ومن بقی إلی یوم القیامة».

بناء علی أن المراد من عدم تعلّم کتاب هو ما یشمل الکتابة والقراءة ولا أقل من ظهور عدم اختلافه إلی معلّم فی إثبات المقصود.

ومنها: روایة مشهورة عند أهل السنّة عن النبیّ صلی الله علیه و آله: «إنّا أمة أمّیة لا نکتب ولا نحسب». وسیأتی شأن هذا الحدیث ودلالته إن شاء اللَّه تعالی.

ومنها: ما روی فی التفسیر المنسوب إلی العسکری علیه السلام: قال العالم موسی بن جعفر علیه السلام: فلمّا ضرب اللَّه الأمثال للکافرین إلی قوله: «بسورة من مثله» من مثل محمّد صلی الله علیه و آله من مثل رجل منکم لا یقرأ ولا یکتب ولم یدرس کتاباً ولا اختلف إلی عالم ولا تعلم من أحد؟ وأنتم تعرفونه فی أسفاره وحضره حتّی بقی کذلک أربعین سنة ثمّ أُوتی جوامع العلم حتّی علّم الأولین والآخرین... وقال علی بن الحسین:

من مثله، مثل محمّد أمّی لم یختلف قط إلی أصحاب کتب وعلم ولا تلمذ لأحد ولا تعلم منه وهو من قد عرفتموه فی حضره وسفره؟ (۲).

۱- بحار الأنوار ۱۶: ۱۳۲.

۲- بحار الأنوار ۱: ۲۱۴.

ص: ۴۹

وقد یستدل لاحتمال عدم أمّیته صلی الله علیه و آله قبل البعثة بأمور، کقوله تعالی: «وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا» (۱). وقوله تعالی: (وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ» (۲).

فإنه لو کانت أمّیة النبی صلی الله علیه و آله أمراً مسلماً لم یکن هناک مجال لاتهامه بما فی الآیتین.

وردّ علی ذلک: أوّلًا: بأن الاکتتاب أعم من مباشرة الکتابة. وثانیاً: إنّه لا حدّ للمکابرة والعصبیّة.

وأمّا البحث فی المقام الثانی، أعنی ما بعد البعثة وأنّه کان أمّیاً أبجدیاً فی هذا المقطع من عمره الشریف أو لا؟

المعروف علی الألسن، بل ومال إلیه بعض العلماء من الفریقین، أن النبی صلی الله علیه و آله کان بعد البعثة أیضاً أمّیاً أبجدیاً لا یعرف القراءة ولا الکتابة إلی آخر حیاته صلی الله علیه و آله، وربّما ادعی علی ذلک الإجماع فی بعض الکلمات.

ولکن الإجماع لو کان لا اعتبار به فی مثل هذه المسألة التی هی عقائدیّة کالمسائل العقلیة، مع أنّه لا إجماع فی البین بعد تصریح جمع من العلماء بخلاف ذلک.

وکیف کان فقد صرح بالخلاف جمع أو نسب الخلاف إلیهم وربّما نسب إلی بعضهم التفصیل بین القراءة فأثبتوها والکتابة فأنکروها.

وقد لا ینافی هذا القول تمکنه صلی الله علیه و آله من الکتابة. وتوقف السید المرتضی فی المسألة حسبما حکاه العلّامة المجلسی واحتمل زوال الأمیة الأبجدیة عنه صلی الله علیه و آله بعد البعثة وإن نسب إلیه فی بعض الکلمات غیر ذلک سهواً. وممّن صرح بنفی الأمیة عنه صلی الله علیه و آله هو العلامة المجلسی فإنّه بعد أن أشار إلی بعض النصوص الّتی ربّما تنافی ذلک وأوَّلَها قال: وکیف لا یعلم من کان عالماً بعلوم الأوّلین والآخرین أن هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف؟! (۳).

أقول: وهذا القول عندی هو الحقّ الحقیق بالقبول.

۱- الفرقان: ۵.

۲- الأنعام: ۱۰۵.

۳- بحارالأنوار ۱۶: ۱۳۴.

ص: ۵۰

فإنّ الشواهد والحجج توازرت على قدرته صلى الله علیه و آله على القراءة والكتابة بعد النبوّة، ومما يدل بوضوح على اختصاص عدم القراءة والكتابة بما قبل البعثة وأنّه صلى الله علیه و آله كان قادراً على ذلك بعد البعثة أمور؛ كما وأنّ هناك أموراً قد يستند إليها فى إثبات كونه صلى الله علیه و آله أمّياً بعد البعثة كما كان قبلها بمعنى أنّه لا يقرأ ولا يكتب. ونحن نذكر هذه الأمور أوّلًا ثمّ نتبعها بما يدل على اختصاص الأمية بما قبل البعثة.

فنقول- بعد التوكّل على اللَّه-: ما استدل أو يمكن أن يستدل به لكون النبى صلى الله علیه و آله أمّياً أبجدياً بعد البعثة أمور، وعمدة الوجه هو: وصف النبى صلى الله علیه و آله بالأمّية بعد البعثة وقد تحقق أن المشتق حقيقة فى خصوص المتلبس بالمبدأ مجاز فى ما انقضى عنه؛

قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» (۱). وقال تعالى: «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» (۲).

والاستدلال مبنى على كون معنى الأمّى هو الأمية الأبجديّة وإذا ثبت بل واحتمل وجود معنى آخر له يكون الاستدلال ساقطاً، وسيأتى إن شاء اللَّه تعالى ما يدل بوضوح على كون الأمّى بمعنى آخر.

وقد يستدل لكون النبى صلى الله علیه و آله أمياً بعد الرسالة ببعض الأخبار مثل رواية الحسن الصيقل قال: سمعت أباعبداللَّه عليه السلام يقول: «كان ممّا منّ اللَّه عزّوجلّ به على نبيّه صلى الله علیه و آله أنّه كان أمّياً لا يكتب ويقرأ الكتاب» (۳).

وفى معنى الخبر احتمالان: الأوّل: أن تكون الواو فى قوله: ويقرأ الكتاب، حاليةً عطفاً على النفى لا- على خصوص المنفى. والمعنى عليه: أن من منن اللَّه على النبى صلى الله علیه و آله أنّه مع كونه أمياً لا يكتب مع ذلك كان يقرأ الكتاب.

وعلى هذا التقرير يبتنى الاستدلال بالخبر على زعم من ذهب إلى أن

۱- الأعراف: ۱۵۷.

۲- الأعراف: ۱۵۸.

۳- رواه الصدوق فى العلل.

ص: ۵۱

النبی صلی الله علیه و آله کان یقرأ ولا یکتب.

الثانی: عطف ویقرأ علی المنفی أعنی قوله: یکتب، والمعنی أنّه صلی الله علیه و آله کان لا یکتب ولا یقرأ.

والاستدلال بالخبر لکون النبی صلی الله علیه و آله أمیاً أبجدیاً یبتنی علی هذا التقریر.

ولکن کلا المعنیین بعیدان، لعدم مناسبة الأمیة علی التقدیرین مع الامتنان علی النبی صلی الله علیه و آله بسببها.

ولذلک یحتمل فی الخبر احتمال ثالث ربّما کان هو المتعیّن وهو الامتنان علی النبی صلی الله علیه و آله بسبب اشتماله علی العلوم ومنها القراءة والکتابة بعد ما کان أمّیاً قبل الرسالة لم یتعلم القراءة والکتابة من أحد.

ویؤکد هذا الاحتمال أنّه لم یعهد إطلاق الأمّی علی القاریء إذا لم یتمکّن من الکتابة خاصة. کما ویؤکد هذا الاحتمال أیضاً الحدیث الآتی.

کما أنّ الامتنان یستدعی زوال الأمّیة عنه صلی الله علیه و آله بعد الرسالة وإلّا فلا موجب للمنّة إلّاعلی بعض الوجوه المشتملة علی الکلفة.

وقد یوجّه الامتنان فی الحدیث بما تضمّنه قوله تعالی: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَهَ» ولکن الآیة تتضمن الامتنان علی الأمّیة لا علی الرسول نفسه. مع أن المنّة باعتبار کون النبی صلی الله علیه و آله منهم وأین هذا من کون المنّة باعتبار کونه امیّاً مثلهم؟

ومن الروایات معتبرة هشام بن سالم عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: «کان النبی صلی الله علیه و آله یقرأ الکتاب ولا یکتب».

ولا یبعد اتحاد الخبر مع سابقه فیجری فیه ما جری فی الخبر المتقدم.

وقد وقع الاشتراک فی عدة من وسائط الرواة فی الخبرین، ولا یحتمل فیه نفی قراءة الکتاب بعد تقدیم القراءة علی الکتابة هنا، مع أن الخبر هذا مصرح بأنّه کان یقرأ الکتاب وهو ینافی الأمّیة. فالاستدلال بالخبر علی نفی الأمیّة أولی.

ونظیر معتبرة هشام روایة أخری فی العلل بإسناده عن البزنطی، عن بعض

ص: ۵۲

أصحابه عن أبیعبداللَّه علیه السلام قال: «کان مما منّ اللَّه به عز وجل علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه کان یقرء ولا یکتب فلما توجه أبوسفیان إلی احد کتب العباس إلی النبی صلی الله علیه و آله فجاءه الکتاب وهو فی بعض حیطان المدینة فقرأه ولم یخبر أصحابه، وأمرهم أن یدخلوا المدینة فلما دخلوا المدینة أخبرهم» (۱).

ولا یبعد وحدة الأخبار الثلاثة، وقد عرفت قصور ها عن الدلالة علی کون النبی صلی الله علیه و آله أمیاً.

وقد یستدل لدعوی کون النبی صلی الله علیه و آله أمیاً بالروایة المعروفة عن النبی صلی الله علیه و آله: «إنّا أمّة أمّیة لا نکتب ولا نحسب».

وقد صرح فی بعض الکلمات بضعفها، وهی علی تقدیر اعتبارها سنداً قاصرة دلالة علی الدعوی بعد احتمال کونها ناظرة إلی مجموع الأمّة وعمومها لا آحادها، وقد صرح فی التاریخ والسیر بوجود عدد قلیل ومحدود فی العرب لم یکونوا أمیین.

هذا کلّه مع وضوح الروایات النافیة للأمّیة بعد الرسالة دلالة وسنداً وکثرتها عدداً، بل وصراحتها بما لا یقبل التأویل فلا تصلح هذه الروایات لمعارضتها. هذا مضافاً إلی موافقة النصوص النافیة لُلامیة الأبجدیة مع القرآن بناءاً علی ما تقدم تقریبه من دلالة بعض الآیات علی ذلک.

وعدم منافاتها لوصفه صلی الله علیه و آله بالأمیّة فی بعض الآیات بعد کون الکلمة من الألفاظ المشترکة.

وقد تقدّم بیان العلامة المجلسی فی الجمع بین هذه الأخبار، فراجع (۲).

ثم إنّ ما یدل علی عدم کونه صلی الله علیه و آله أمیاً أبجدیاً بعد البعثة فهو وجوه:

الوجه الأوّل:

إن الکتابة والقراءة علم من العلوم والخبرة بهما من الکمالات العالیة وفقدها نقص کبیر بل هو عیب فاحش، وقد ورد فی روایات واضحة

۱- بحارالأنوار ۱۶: ۱۳۳.

۲- المصدر نفسه: ۱۳۴.

ص: ۵۳

اشتمال النبی صلی الله علیه و آله وأهل بیته علی جمیع علوم الأنبیاء.

فلنا فی المقام دعویان: إحداهما أن الکتابة والقراءة علم وفضیلة.

ثانیتهما: اشتمال النبی صلی الله علیه و آله علی جمیع علوم السلف.

أمّا الدعوی الأولی: فهی واضحة لا تحتاج إلی إثبات ومن الغریب ما فی بعض الکلمات من إظهار التردید فیها أو دعوی خلافها. وکیف لا تکون القدرة علی القراءة والکتابة فضیلة بعد ما کان العلم بسایر اللغات ولغة الحیوانات من معاجز الأنبیاء والأولیاء.

وکیف کان: فقد أنکر فضل العلم بالکتابة والقراءة بعض مقاربی عصرنا (۱) واستظهر ذلک من ابن خلدون حیث ذکر فی المقدمة: کان النبی صلی الله علیه و آله أمّیاً وکان ذلک کمالًا له لأنّه کان یتلقی العلم من السماء. نعم الأمّیة نقص لنا لاستلزامها الجهل بالنسبة إلینا (۲). وهذه الدعوی مکابرة مع الوجدان.

وقد ورد فی بعض النصوص أن أوّل من خط بالقلم هو إدریس النبی علیه السلام.

روی الصدوق فی الخصال والمعانی فیما حکاه فی سفینة البحار عن أبی‌ذر رحمه الله قال: قلت یا رسول اللّه کم النبیّون؟ قال: مأة ألف وأربعة وعشرون ألف نبی؛ قلت: کم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمأة وثلاثة عشر جمّاً غفیراً؛ قلت: من کان أوّل الأنبیاء؟ قال: آدم علیه السلام؛ قلت: وکان من الأنبیاء مرسلًا؟ قال: نعم خلقه اللّه عزّ وجلّ بیده ونفخ فیه من روحه؛ ثمّ قال یا أباذر! أربعة من الأنبیاء سریانیون: آدم وشیث و أخنوخ وهو إدریس، وهو أوّل من خط بالقلم ونوح علیه السلام... (۳).

ولا یبعد ظهور هذا الخبر فی کون الخط کان إلهاماً إلهیاً لنبیّه، کما ویظهر من بعض الأخبار کون التکلّم ومنه العربیّة أیضاً کان إلهاماً، ویؤکده- بعیداً عن

۱- الشیخ مرتضی المطهری فی کتابه المترجم النبی الأمّی. فإنه ذهب إلی ذلک وذکر أن النبی صلی الله علیه و آله لم یکن یقرأ أویکتب فی عصر البعثة، صرّح بذلک فی الصفحة ۱۰ و ۱۵ وغیرها.

۲- نامه هدایت: ۱۹.

۳- سفینة البحار: مادة نبأ عن المعانی والخصال.

ص: ۵۴

الأخبار- النظم فى اللغات سيما فى العربيّة.

فعن النّبى صلى الله عليه و آله: «ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاماً» (۱).

وعن الباقر عليه السلام: «أوّل من شقّ لسانه بالعربيّة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان لسانه على لسان أبيه وأخيه، فهو أوّل من نطق بها وهو الذبيح» (۲).

وفى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله: «أوّل من فتق لسانه بالعربيّة المبينة إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن سنة» (۳).

وفى بعض الروايات تعلّم آدم للعربيّة، وربما كانت فى جملة الأسماء التى علّمها اللَّه تعالى إيّاه، وفى بعضها: إنها لغة أهل الجنة.

وأمّا اشتمال النبى صلى الله عليه و آله على جمع العلوم بل وكونه صلى الله عليه و آله أعلم من سائر الأنبياء، فقد ورد فى روايات عدّة نشير إلى بعضها:

۱- عن ضريس الكناسى قال: كنت عند أبى عبداللَّه عليه السلام وعنده أبو بصير فقال أبو عبداللَّه عليه السلام: إنّ داود عليه السلام ورث علم الأنبياء وإنّ سليمان عليه السلام ورث داود عليه السلام وإنّ محمداً صلى الله عليه و آله ورث سليمان عليه السلام وإنّا ورثنا محمّداً صلى الله عليه و آله... (۴).

۲- صحيحة (ظ) أبى بصير، عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: قال لى: يا أبا محمّد إنّ اللَّه عز وجل لم يعط الأنبياء شيئاً إلّاوقد أعطاه محمّداً صلى الله عليه و آله. قال: وقد أعطى محمّداً صلى الله عليه و آله جميع ما أعطى الأنبياء. الحديث (۵).

۳- عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك أخبرنى عن النبى صلى الله عليه و آله ورث النبيين كلهم؟ قال: نعم قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه. قال: ما بعث اللَّه

۱- ميزان الحكمة عن كنز العمّال مادة «عرب».

۲- المصدر نفسه: عن تحف العقول.

۳- المصدر نفسه.

۴- بحار الأنوار ۱۷: ۱۳۲، الطبعة الجديدة، وفى تعليقة أصول الكافى ۱: ۲۲۵.

۵- بحار الأنوار ۱۷: ۱۳۳، الطبعة الجديدة.

ص: ۵۵

نبیّنا إلّا ومحمّد صلی الله علیه و آله أعلم منه (۱).

۴- مفضل بن عمر، عن أبی عبداللّه علیهم السلام قال: کل نبی ورث علماً أو غیره فقد انتهی إلی آل محمّد علیهم السلام (۲).

۵- صحیح (ظ) زرارة قال: سمعت أبا جعفر علیه السلام یقول: لولا أنّا نزداد علماً لأنفدنا. قال: قلت: تزدادون شیئاً لا یعلم رسول اللّه صلی الله علیه و آله؟ قال: أما إنّه إذا کان ذلک، عرض علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله ثمّ علی الأئمة ثمّ انتهی الأمر إلینا (۳).

۶- الهروی قال: کان الرضا علیه السلام یکلم الناس بلغاتهم وکان واللّه أفصح الناس وأعلمهم بکل لسان ولغة فقلت له یوماً: یابن رسول اللّه: إنّی لأعجب من معرفتک بهذه اللغات علی اختلافها فقال: یا أبا الصلت أنا حجةاللّه علی خلقه، وما کان اللّه لیتخذ حجة علی قوم وهو لا یعرف لغاتهم. أوَ ما بلغک قول أمیر المؤمنین علیه السلام:

اوتینا فصل الخطاب فهل فصل الخطاب إلّامعرفة اللغات (۴).

۷- عمار الساباطی قال: قال لی أبو عبداللّه علیه السلام: یا عمار أبو مسلم فطلله وکسا وکسیحه سباطورا (۵) قال: فقلت له ما رأیت نبطیاً أفصح منک بالنبطیة. فقال: یا عمار: وبکل لسان.

۸- حسین بن علوان عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: إنّ اللّه خلق اولی العزم من الرسل، وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضلنا علیهم فی علمهم. وعلّم رسول اللّه صلی الله علیه و آله ما لم یعلموا وعلمنا علم الرسول وعلمهم (۶).

۹- عبداللّه بن الولید السمان قال: قال لی أبو عبداللّه علیه السلام: یا أبا عبداللّه! ما تقول الشیعة فی علی وموسی وعیسی علیهم السلام؟ قال: قلت: جعلت فداک ومن أیّ الحالات

۱- بحار الأنوار ۱۷: ۱۳۳، الطبعة الجدیدة، وفی تعلیقة أصول الکافی ۱: ۲۲۶.

۲- بحار الأنوار ۱۷: ۱۳۵، الطبعة الجدیدة، وفی تعلیقة أصول الکافی ۱: ۲۳۲.

۳- بحار الأنوار ۱۷: ۱۳۶، الطبعة الجدیدة، وفی تعلیقة أصول الکافی ۱: ۲۵۵.

۴- عیون أخبار الرضا علیه السلام، الشیخ الصدوق ۱: ۲۵۱.

۵- لغة الجملة نبطیة والعمار کان نبطیاً.

۶- بحار الأنوار ۱۷: ۱۴۵، چاپ جدید. و در حاشیة بصائر الدرجات: ۶۲.

ص: ۵۶

تسألنی؟ قال: أسألک عن العلم. فأمّا الفضل فهم سواء. قال: قلت: جعلت فداک فما عسی أقول فیهم؟ فقال: هو واللَّه أعلم منهما ثمّ قال: یا عبداللَّه ألیس یقولون: إنّ لعلی ما للرسول من العلم؟ قال: قلت: بلی، قال: فخاصمهم فیه، قال: إنّ اللَّه تبارک وتعالی قال لموسی علیه السلام: «وَکَتَبْنا لَهُ فِی الْأَلْواحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ» (۱)

فأعلمنا أنّه لم یبین له الأمر کلّه، وقال اللَّه تبارک وتعالی لمحمّد صلی الله علیه و آله: «وَجِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً» (۲)

و «وَنَزَّلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ» (۳).

ثمّ إنّه تجدر الإشارة إلی نقطة، وهی أن الأفضل أولی بالإمامة من غیره، وهذا ما یحکم به العقل الصریح والوجدان السلیم. ولکن الفضیلة المرجّحة للإمامة لیست هی مطلق الفضیلة وإنّما هی الفضیلة فیما یتعلّق بالإمامة التی یتصداها الشخص، فمن کان إماماً فی سبیل الهدایة إلی المعارف فینبغی أن یکون أفضل فی العلوم المرتبطة بذلک لا فی غیرها، ولذا لا یجب أن یکون النّبی عالماً بالعلوم

۱- الأعراف: ۱۴۵.

۲- النساء: ۴۱.

۳- النحل: ۸۹.

ص: ۵۷

الطبیعیّة کالطبّ والکیمیاء ونحوهما.

لا أقول: إن الأنبیاء لم یکونوا عالمین بعلوم العلماء فی غیر ما یتعلق بالمعارف وإنّما أقول: إن العقل لا یحکم بلزوم اشتمال الأنبیاء علی تلک العلوم، وهذا لا یعنی عدم اشتمالهم علی الکمالات.

نعم، لابد عقلًا من کون النبی والإمام أفضل من سایر أهل عصره فیما یتعلّق بشأن هدایة الأمّة وأعلم منهم فی هذا المجال، والنقل أیضاً یؤکد ذلک قال تعالی:

«أَفَمَنْ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ یُتَّبَعَ أَمَّنْ لا یَهِدِّی إِلَّا أَنْ یُهْدی فَما لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ».

فیتحصّل مما تقدم أنّه لا ـ یحکم العقل بلزوم کون النّبی صلی الله علیه و آله قادراً علی الکتابة والقراءة؛ حیث لا ـ مدخل لهما فی الفضیلة علی فاقدهما بعد أن کان الفاقد محیطاً بکل العلوم المرتبطة بهدایة الناس وأفضل من غیره فی هذا المجال، ولعله لهذا اشتبه الأمر علی من أنکر فضیلة الکتابة والقراءة فلا ینبغی الخلط.

الوجه الثانی:

جملة من النصوص تضمّنت صریحاً قدرته صلی الله علیه و آله علی القراءة والکتابة.

۱- منها: روایة الصدوق فی العلل والمعانی ورواها المفید فی الاختصاص والصفّار فی بصائر الدرجات وحکاها المجلسی فی البحار والبحرانی فی البرهان وغیرهم. ونحن نحکی روایة الصدوق عن البحار فقد قال: حدثنی أبی قال:

حدّثنی سعد بن عبداللَّه عن أحمد بن محمد بن عیسی عن أبی عبداللَّه محمد بن خالد البرقی عن جعفر بن محمد الصیرفی (الصوفی- خ) قال: سألت أباجعفر، محمد بن علی علیهما السلام فقلت (۱): یابن رسول اللَّه، لم سُمّی النبی الامّی؟ فقال: «ما یقول الناس؟» قلت: یزعمون أنّه صلی الله علیه و آله سمّی الأمی، لأنّه لم یحسن أن یقرء؛ فقال: «کذبوا لعنة اللَّه علیهم. أنّی ذلک واللَّه یقول فی محکم کتابه: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولًا

۱- ورد هذا الخبر ظاهراً فی المجمع عن أبی‌جعفر بقید الباقر، ولیس من البعید أن یکون من سهو القلم أو من‌الناسخ.

ص: ۵۸

مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ» (۱)

كيف كان يعلمهم ما لا يحسن. واللَّه لقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقرء ويكتب باثنين وسبعين أو بثلاثة وسبعين؛ وإنّه سُمّى الامّى لأنّه كان من أهل مكة ومكة من امّهات القرى وذلك قول اللَّه عز وجل: «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها» (۲).

وهذه الرواية معتبرة سنداً ورجالها من أجلاء الفقهاء، وإسنادها عال قريب إلى المعصوم زماناً، قليل الواسطة، وحصول القطع بسببها ليس جزافاً ودلالتها على المدعى واضحة.

هذا مع أن الرواية- لولا صحتها- تشتمل على خصوصية تمنع من الالتزام بكون النبى صلى الله عليه و آله أمّياً أبجدياً، وذلك لكون العمدة فى إثبات الأمية الأبجدية له صلى الله عليه و آله هو ورود وصف الأمّية له فى الكتاب والسير، فإذا احتمل كون الوصف باعتبار غير الأبجدية سقط الاستدلال بذلك لإثبات الأمّية من حيث الأبجديّة، وهذه الرواية لو لم تُثبت بوجه قاطع ذلك فلا أقل من فتحها باب الاحتمال.

وهناك رواية أخرى قريبة من هذه الرواية لا يبعد اتحادهما، رواها الصدوق فى‌العلل؛ متنها: عن أبى جعفر عليه السلام قال: قلت: إن الناس يزعمون انّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يكتب ولا- يقرء. قال: «كذبوا لعنهم اللَّه أنّى يكون ذلك وقد قال اللَّه عز وجل: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» (۳)

فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرء الكتاب؟!» قال: قلت: فلِمَ سُمّى بالامّى؟ قال: «نسبة إلى مكة وذلك قوله تعالى: «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها» فقيل: امّى، لذلك» (۴).

وربما يشكل صحّة الروايتين من حيث المتن بجهات:

۱- الجمعة: ۲.

۲- بحارالأنوار ۱۶: ۱۳۲.

۳- الجمعة: ۲.

۴- بحارالأنوار ۱۶: ۱۳۳.

ص: ۵۹

الأولى: إن «أمّ القرى» ليست علماً لمكّة، بل هى وصف عام لها ولغيرها من مراكز البلاد والقرى قال تعالى: «وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا» (۱). هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى لما كان الغرض من الوصف والإضافة هو التمييز والتخصيص بل التعيين والتوضيح لم يناسب النسبة إلى وصف عام بل كان ذلك لغواً.

الثانية: إنّه قد أطلق الأمّى فى القرآن على غير المكّى قال تعالى: «وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ» (۲)؛ فإن المراد بالأمّيين ما يقابل معنى أهل الكتاب، وقال تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ» حيث إن المراد من الأميين عوام اليهود ممن كانوا يسكنون يثرب وحواليها لا مكّة.

الثالثة: مقتضى قواعد الأدب النسبة إلى المركبات تركيب إضافة هو النسبة إلى المضاف إليه بعد حذف المضاف دون العكس، فيقال فى النسبة إلى أبى‌طالب وأم على وبنى تميم: طالبى وعلوى وتميمى، فكان المفروض على هذا أن يقال فى النسبة إلى أم القرى: قروىّ لا أمّى.

وهذه الشبهات كلّها مردودة. وبداراً ينبغى الاعتذار عن صاحب الإشكالات بأنّه لم يطّلع على الرواية وإلّا فالإشكال على الرواية بأمثال ما ذكر يعدّ من الغرائب. ومع الغض عن ذلك فما ذكر من وجوه القدح كلّها مردودة:

أمّا القدح الأوّل فيرد عليه: أوّلًا: أنّه لم يعلم كون أم القرى وصفاً عامّاً فربما كان مشتركاً لفظياً بينه وبين غيره؛ لاحتمال وجود وضع آخر له خاص فكان علماً لمكّة بعد كونه وصفاً عامّاً. وهذا أمر شائع وليس هناك ما ينفى هذا الاحتمال بالغضّ عن الخبر.

وثانياً: لا مانع من إطلاق لفظ موضوع لمعنى على مصداق منه بالخصوص

۱- القصص: ۵۹.

۲- آل عمران: ۲۰.

ص: ۶۰

إطلاقاً مجازياً بحيث يراد الخصوصية بذلك اللفظ لا مجرد الجرى باعتبار المعنى العام.

وثالثاً: لا دليل على عدم صحة النسبة إلى الوصف العام، ودعوى كونها لغواً يدفعها الوجدان؛ فإن الإضافة والنسبة يحققان التميز والاختصاص، وربّما يحصل الغرض بمجرد الإضافة والنسبة إلى الوصف العام، بل ربّما كان التوضيح بما يزيد على ذلك لغواً أو مخالفاً للغرض. ألاترى أنّه يقال فى العرف: فلان قروى وفلان بلدىّ وفلان بدوى فهل تكون هذه النسب لغواً؟!

وصحة الاستعمال يكفى لها استساغة الطبع وطباع العرف- فى شتّى اللغات- تصحح النسبة إلى الوصف العام ولا تمنع منه.

وأمّا القدح الثانى فهو أغرب من غيره؛ فإنّه لو سلّم إطلاق الأمّى على معنى سوى ما تضمّنه الخبر من مكّة وفرض كون الإطلاق حقيقيّاً فهل يعنى ذلك اختصاص المعنى به؛ وعدم صحة إطلاقه على معنى آخر؟ لعمرى ينبغى أن يعدّ ذلك من الطرائف.

وأمّا القدح الثالث: فيرد عليه أنّه ليس هناك ما يعيّن فى النسبة إلى المركب بتركيب الإضافة أن تكون النسبة إلى المضاف إليه، وقد أسمعناك أن العبرة فى صحة الاستعمال باستساغة الطبع العرفى والتحقيق جواز النسبة إلى المضاف أيضاً.

قال السيوطى وماتنه: أنسب لصدر جملة إسناديه، فقل فى تأبط شراً...

وصدر ما ركب مزجاً فقل فى بعلبك: بعلى، وانسب لثان تمما إضافة إمّا مبدوّة بابن أو أب أو أم كعمرى وبكرى وكلثومى فى ابن عمرو أبى بكر وأمّ كلثوم (۱).

وكيف كان: لا ندور فى صحة الاستعمال مدار وقوعه، بل يكفى لها استساغة الطباع المستقيمة، مع ما أشير إليه من صحة النسبة إلى المضاف فى كلام شارح الألفيّة، بل وعدم صحّة الإضافة إلى المضاف إليه أحياناً لكونه موجباً للّبس وإفهام الخلاف.

۱- البهجة المرضية.

ص: ۶۱

۲- ومنها: الحدیث المتواتر بین الفریقین من قول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لما حضرته الوفاة: إیتونی بدوات وکتف لأکتب لکم کتاباً لن تضلّوا بعدی أبداً (۱).

ولولا ذکر الدوات والکتف لاحتمل أن یکون المراد بالکتابة الفرض والتقدیر أو الجعل والتشریع کما فی قوله تعالی: «کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیامُ» وقوله تعالی: «إِنَّ الصَّلاةَ کانَتْ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ کِتاباً مَوْقُوتاً»؛ إلّاأنّه بعد طلب الدوات والکتف ینتفی هذا الاحتمال رأساً.

واحتمال کون المراد من ذلک مباشرة غیره صلی الله علیه و آله الکتابة ولکنّها بأمره ربّما لا یساعده ظاهر الکلام، حیث إن المفهوم منه هو مباشرته صلی الله علیه و آله للکتابة.

ثمّ إن هذه الروایة لا تدلّ علی مجرد قدرته صلی الله علیه و آله علی الکتابة، بل تدل علی عدم کون ذلک أمراً غیر معهود لدی الصحابة حیث لم ینقل استغرابهم لما أراده صلی الله علیه و آله من الکتابة عند وفاته، ولا- عدّ ذلک من جملة خوارق العادة والمعجزات؛ ولا أن من ذکر الحدیث فی عداد أدلّة الإمامة خطر بباله سوی مباشرة النبی صلی الله علیه و آله للکتابة، وإن کان هذا الأمر قد یخطر بالبال فی باب ذکر الحدیث فی مسألة کون النّبی صلی الله علیه و آله أمّیاً أو لا.

ومما تجدر الإشارة إلیه أن هذه الروایة تصلح دلیلًا لقدرته صلی الله علیه و آله علی الکتابة حتی لو لم یثبت سندها- مع أن صدورها قطعیّ- والسرّ فی ذلک أنّه لو کان المعهود منه صلی الله علیه و آله الأمّیة الأبجدیّة بعد کون اتصافه صلی الله علیه و آله بالأمّیة أمراً قطعیاً حسبما دلّ علیه الکتاب وغیره کان جعل الحدیث بمضمون واضح الکذب غیر معقول بعد کون المقصود بالحکایة أمراً آخر یستلزم أمراً کذباً. فإن المقصود الأصیل بالحکایة هو ما یدلّ علی نصب الإمام والمدلول بالتبع هو عدم الأمّیة الأبجدیّة فتأمل جیّداً، فإنه حریّ بذلک، وله آثار فی الروایات وتطبیقات فی الآثار. ولذا کان إثبات اللغات بالروایات الضعیفة أمراً جایزاً لکون المقصود بالأصالة فی الحدیث والخبر

۱- وممّن استدل بالحدیث هذا للمدعی السید المرتضی فیما حکی عنه، بعد أن حکی عن الشعبی وجماعة من أهل العلم أنه ما مات رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حتی کتب وقرأ، حکاه المطهری فی کتاب النبی الأمّی: ۱۶.

ص: ۶۲

هو حکایة المضمون لا إثبات اللغة والأوضاع.

۳- ومنها خبر البصائر عن عبدالرحمن بن الحجاج قال: قال أبوعبداللَّه علیه السلام:

«إن النّبی صلی الله علیه و آله کان یقرء ویکتب ویقرء ما لم یکتب» (۱).

ولعل المراد من قراءة ما لم یکتب هو غیر العربیّة من سایر اللغات کما فی الحدیث الآتی.

۴- ومنها خبره الآخر عن الثمالی عن أبی عبداللَّه علیه السلام قال فی قول اللَّه تعالی لما أنزل ألواح موسی علیه السلام أنزلها علیه وفیها تبیان کل شیء کان وهو کائن إلی أن تقوم الساعة... فأخرجوها إلیه (یعنی إلی محمد صلی الله علیه و آله) فنظر إلیها وقرأها وکتابها بالعبرانی، ثمّ دعا أمیرالمؤمنین علیه السلام فقال: دونک هذه ففیها علم الأوّلین وعلم الآخرین، وهی ألواح موسی علیه السلام، وقد أمرنی ربّی أن أدفعها إلیک؛ قال: یا رسول اللَّه لست أحسن قراءتها (۲).

۵- وفی روایة أخری قریب بمضمونها و فیه: أین الکتاب الذی توارثتموه...

فأخذه النبی صلی الله علیه و آله، فإذا هو کتاب بالعبرانیة دقیق فدفعه إلیّ (۳).

۶- ومنها: روایة أبی الصباح الکنانی قال: خرج علینا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وفی یده الیمنی کتاب، وفی یده الیسری کتاب. فنشر الکتاب الذی فی یده الیمنی فقرء: بسم اللَّه الرحمن الرحیم کتاب لأهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا یزاد فیهم واحد ولا ینقص منهم واحد. قال: ثمّ نشر الذی بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم لا یزاد فیهم واحد ولا ینقص منهم واحد.

۷- ومنها: جملة من النصوص وردت فی قراءة النبی صلی الله علیه و آله کتابات فی المعراج علی أبواب الجنان وغیرها.

ففی روایة عبدالصمد ص ۱۳۸.

۱- بحارالأنوار ۱۶: ۱۳۶ عن البصائر: ۶۳.

۲- البحار ۱۶: ۱۳۷، عن البصائر: ۳۸.

۳- بحارالأنوار ۱۷: ۱۳۹ عن البصائر: ۳۹.

ص: ۶۳

وفی روایة أخری له ص ۱۳۹.

وفی روایة جابرالأنصاری

وفی روایة للصدوق رواها بإسناده عن سلمان الفارسی.

وفی روایة أبی‌بصیر.

وفی روایة تفسیر القمی.

وفی روایة حکاها العلّامة الأمینی عن جمع من الحفّاظ منهم الخطیب البغدادی بإسناده عن أنس بن مالک قال: قال النّبی صلی الله علیه و آله: «لما عرج بی رأیت علی ساق العرش مکتوباً: لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه أیدته بعلیّ نصرته بعلیّ» (۱).

وکذا روی محب الدین الطبری فی الریاض عن أبی الحمراء من طریق الملّا فی سیرته وفی ذخائر العقبی ومناقب الخوارزمی.

وفی روایة الحوینی فی الفرائد روایتها بطریقین نحوه.

وبإسناد آخر عن أبی‌الحمراء خادم النبی صلی الله علیه و آله نحوه.

ومثله روی الحافظ السیوطی بأسانید عن أبی الحمراء کما فی کنز العمّال (۲) وبطریق آخر عن جابر.

و الهیثمی فی مجمع الزوائد والسیوطی فی الخصائص.

هذا ما عثرت علیه من النصوص علی عجل، ولعل المتتبع یجد مزید روایات ویعثر علی غیر ما ذکرناه من النصوص.

نعم، هناک کلام فی حقیقة الکلام العرشی الذی وجده النّبی صلی الله علیه و آله مکتوباً لما أسری به. وإذا کان النّبی صلی الله علیه و آله یقرء مثل ذلک ولو بإعجاز فما ظنّک بکلمات أرضیّة لا مؤونة فیها.

۱- الغدیر ۲: ۵۰ و ۵۱.

۲- نفس المصدر وراجع کنزالعمال ۶: ۱۵۸.

ص: ۶۴

ومنها ما ذکر فی تاریخ الطبری وابن الأثیر فیما یتعلّق بالسنة السادسة للهجرة وکتاب صلح الحدیبیة ما یفید أن النبی صلی الله علیه و آله رفع العهد وکتب کلمة بیده، رغم أنه لم یحسن الکتابة.

والمحتمل قویاً أن یکون قول: لیس یحسن یکتب، من اجتهاد بعض الرواة فی بعض الطبقات.

الوجه الثالث: قوله تعالی: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ یَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً» (۱)، فإن تلاوة الصحف ظاهرة فی قراءتها عن نظر إلیها لا عن ظهر القلب؛ فإنه فرق بین تلاوة الآیات کما فی غیر هذه الآیة وبین تلاوة الصحف.

ویمکن الاستدلال لقدرته صلی الله علیه و آله علی القراءة بما تضمّن استحباب قراءة القرآن من المصحف حتی لمن حفظه ویتمکّن من قراءته عن ظهر الغیب، فکیف کان النبی صلی الله علیه و آله تارکاً لهذا الأمر، مع أن التکلّم للقراءة أمر بسیط سهل لا یحتاج إلی مؤونة کثیرة.

فقد تحصّل مما تقدّم أن الأسناد والمدارک المعتبرة ومنها النصوص الکثیرة واضحة الدلالة علی أن النّبی صلی الله علیه و آله بعد الرسالة کان یقرأ ولم یکن أُمّیاً، سواء فرض أنّه باشر الکتابة کما فی بعض النصوص أو لم یباشرها.

هذا ما تیسّر لنا إیراده فی هذه المسألة منذ زمن بعید وأسأله تعالی أن یجعله خالصاً لوجهه الکریم وذخراً، وأن یجعل ثوابه لوالدیّ اللذین لهما علیّ الحق العظیم، وقد أردف اللَّه تعالی الأمر بالإحسان إلیهما بعبادته، غفر اللَّه لنا ولجمیع المؤمنین بمحمد وآله الطاهرین، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه‌ربّ العالمین.

۱- البیّنة: ۳، ۴.

ص: ۶۵

حجية الفعل النبوى

دراسة فى الاستناد إلى فعل النبى وسيرته

فى ضوء أصول الفقه الإسلامى

حيدر حب اللَّه

تمهيد

يمثل فعل المعصوم- من النبى والإمام- أحد أوجه السنّة ومظاهرها، وكما استند العلماء المسلمون إلى أقوال النبى فى الاحتجاج بها والاعتماد عليها، والأخذ بها مصدراً من مصادر المعرفة الدينية على غير صعيد ومجال، كذلك شكّلت سيرة النبىّ وأفعاله، سيما سيرته فى الحرب والتعامل مع الكافرين، مستنداً رئيساً فى الاجتهاد الفقهى؛ لتصبح هذه السيرة وتلك الأفعال مرجعاً للفقيه وغيره.

وقد وقع بحثٌ بين أصوليى المسلمين فى حجيّةِ فعل المعصوم، ثم أشكل الأمر بينهم فى أن الفعل لو كان حجّةً فما معنى حجيّته؟ وكيف يفيد الفعل فى الاستدلال على الدين والشريعة؟

وقد ظلّ هذا البحث رائجاً فى الوسط السنّى حتى عصرنا الحاضر؛ حيث ألّفت دراسات مستقلّة فيه، من أشهرها دراسة الدكتور محمد سليمان الأشقر، ومن قديمها كتاب فى أفعال النبى، لأبى الحسن الأشعرى (۳۲۴ ه)، (۱) ولعلّه مضمون

۱- انظر: إسماعيل باشا، هدية العارفين ۱: ۶۷۷.

ص: ۶۶

كتاب أفعال النبى لعلى بن عبد العزيز بن محمد الدولابى (۳۳۵ ه)، وهو من أعلام مذهب الإمام الطبرى (۱)، أما فى الوسط الشيعى، فقد تمّ تناول الموضوع إلى قريب القرن العاشر الهجرى، لينحسر تدريجياً البحث فيه بعد ذلك، وليتحوّل إلى مبادئ واضحة تقريباً.

لكننا نعتقد بأن تغييب هذا البحث لم يكن دقيقاً، فالمسألة فى دراسة الفعل النبوى لا تقف عند حدود مبدأ الحجيّة، وربما لذلك- أى إيقافها عند حدود مبدأ الحجية وغيره- انحسر دور هذا البحث فى أصول الفقه الإمامى مؤخراً، انطلاقاً من وضوح نظرية العصمة فى المدرسة الكلامية الشيعية، الأمر الذى ظلّ مفتوحاً على احتمالات فى الوسط الذى يُنكر العصمة أو لديه مواقف من دائرتها.. بل تتعدّى حدود مبدأ الحجيّة إلى مجالات أخرى فى الفعل النبوى، كتحديد مؤدّيات الفعل ومعطياته، وكذا ألوان دلالاته، وعلاقاته بأشكال الأدلة الأخرى.

وعلى هذا الأساس، سوف ندرس فى البداية أصل حجية الأفعال النبوية، ثمّ نتعرّض لمؤدّى الفعل ومعطياته، وكيفية ومعوّقات توظيفه فى الاجتهاد، لنختم بعد ذلك بالحديث عن دلالاته المختلفة، إن شاء اللّه تعالى، مشيرين سلفاً إلى أنّ بعض المباحث التفصيليّة فى الأفعال كثرت فيها الأقوال وطالت بها الآراء، سيما فى الوسط السنّى، وكثيرٌ منها لا داعى له، ولا حاجة إلى الإطالة فيه إلى هذا الحدّ، لهذا سنعرض عنه، بل إن بعض التقسيمات لأفعال النبى وأنواعها بلغت حدّاً مبالغاً فيه لا ينفع الأصولى فى شىء معتدّ به، مثل تقسيم ابن حبان فى صحيحه أفعال النبى إلى خمسين نوعاً (۲).

۱- راجع: ابن النديم، الفهرست: ۲۹۲؛ وإسماعيل باشا، هدية العارفين ۱: ۶۷۸.

۲- صحيح ابن حبان ۱: ۱۴۵- ۱۴۹.

ص: ٦٧

حجيّة الفعل النبوى، المستند والدليل

لابدّ لكى ننظر فى الدليل على حجية الفعل من استعراض أدلّة حجيّة السنّة؛ لنرى شمولها له أم لا، وهل هناك وجهٌ آخر يمكن إضافته فى المقام أم لا؟

وحيث كنّا قد استعرضنا سابقاً هذه الأدلّة، فى دراسة أخرى (١)، ولكى لا نغرق فى التكرار والإطالة، نشير إليها بإيجاز، محيلين القارئ إلى أصل البحث فى حجية السنّة.

أ. أمّا دليل العصمة:

مع شموله لتمام الأفعال، فهو يثبت حجيّة الفعل؛ لفرض عدم إمكان صدور الحرام منه أو ترك الواجب، مما يكشف- فى الحدّ الأدنى وفى الجملة- عن الإباحة، فهذا الدليل تام، بل مع القول بعدم صدور المكروه منه يستفاد أيضاً فى عدم كراهة الفعل الذى ثبت صدوره عنه، وهكذا.

ب. أما الآيات القرآنية:

١- فما دلّ على لزوم الإيمان بالنبى والتصديق به- وهو آيات الطائفة الأولى المتقدّمة هناك- لا يشمل الفعل؛ إذ من الواضح أنّ الإيمان يصدق حتى لو لم يكن فعله حجةً، ولا ملازمة لا عقلًا ولا عقلائياً ولا شرعاً بين الأمرين، فإذا كان المطلوب التصديق بالنبى والإيمان به، فهذا لا ينافيه عدم كون فعله حجّةً، كما لا إطلاق فى تلك الآيات يفيد الشمول لمثل الفعل النبوى حتى لو سلّمنا أصل دلالتها على حجية السنّة.

٢- وأما ما دلّ على تنزيل القرآن ليبيّنه الرسول صلى الله عليه و آله، فإن الظاهر عرفاً من البيان- بعد تسليم أصل دلالة الآيات على حجيّة السنّة- هو البيان اللفظى، أما غيره فيحتاج إلى إشارة وتوضيح، وليس منسبقاً من الآيات، فالتبيين فى اللغة العربية ينصرف إلى القول والكلام، ولا مانع من الشمول للفعل إذا كان هناك معطيات مسبقة تشير إلى إدخاله فى دائرة التبيين لا مطلقاً، ولهذا لو قلت: إنّ زيداً من الناس يريد أن يبيّن كتاب القانون لابن سينا، فلا ينصرف من ذلك سوى البيان

١- انظر: حيدر حب الله، التأسيس القرآنى لحجية السنّة النبوية، قراءة وتقويم، مجلّة الاجتهاد والتجديد، العدد ١: ٢٤٥- ٢٩٦، شتاء ٢٠٠٦ م.

ص: ۶۸

القولی، وأما أن يكون قيامه بفعل الطبابة شرحاً بنفسه لكتاب القانون فهذا ما يتطلّب قرينةً وشاهداً إضافيّاً، كما هو واضح.

۳- وأما ما دلّ على تعليم الكتاب والحكمة، وأنّ ذلک من وظيفة الرسول صلى الله عليه و آله، فهو غير واضح فی الشمول لمثل الفعل إلا بقرينة، مثل ما لو قال النبی صلى الله عليه و آله: «صلّوا كما رأيتمونی أصلّی» (۱)، فمن الممكن أن يكون فعله ذا دور فی التعليم، أما مع عدم نصب قرينة خاصّة فإنّ العرف لا يفهمون التعليم من الفعل إلا بقرينة مسبقة، نعم قد يفهمون السلوک العام الأخلاقی ذا دور فی التعليم، أما غير ذلک فغير واضح، تماماً كما قلنا فی النقطة السابقة.

۴- وأما ما دلّ على مدح النبی صلى الله عليه و آله بألوان المدح وغير ذلک، فلم نقبل دلالته على حجيّة السنّة هناک، لكن على تقدير دلالته يمكن استظهار حجيّة الفعل فی الجملة من مثل «وَإِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِيمٍ»، فإنّ من يرى أنّ مثل هذه الآية ينفع فی حجيّة السنّة، من الطبيعی له أن يجعل الفعل النبوی حجّةً؛ لأن الآية تركّز نظرها على جانب الخُلق المنتمی إلى دائرة الفعل، كما أنّ ما دلّ على اتباع الرسول للدين و.. يفيد ذلک، فإنّ من يرى دلالة مثل هذه الآية على حجيّة السنّة لا يسعه إنكار دلالتها على حجيّة الفعل؛ لأنّ مركز الدلالة فيها هو اتّباع النبی لأوامر اللّه، مما ينتمی إلى مسألة الفعل لا القول فقط، فهذه الطائفة تدلّ على حجية الفعل النبوی.

۵- وأما ما دلّ على وحيانية السنّة، وأنّه لا ينطق عن الهوى، وأنه لو تقوّل على اللّه لعاقبه، وهی الطائفة التی قلنا- ببعض آياتها- دلالتها على حجيّة السنّة، فلا يفيد حجيّة الفعل؛ لأنها ظاهرة فی القول، بل كأنها صريحة به، بقرينة «ينطق» و «تقوّل علينا»، فلا وجه لدلالة مثل هذه الآيات على حجيّة الفعل، ما لم تنضم إليها شواهد إضافيّة.

۱- عوالی اللئالی ۱: ۱۹۸، و ۳: ۸۵، ۱۰۲؛ وبحار الأنوار ۸۲: ۲۷۹؛ وصحيح البخاری ۱: ۱۵۵؛ ومسند الشافعی: ۵۵؛ وسنن البيهقی ۲: ۳۴۵، و ۳: ۱۹۶؛ وسنن الدار قطنی ۱: ۲۸۰؛ وسنن الدارمی ۱: ۲۸۶.

ص: ۶۹

۶- وأمّا ما دلّ علی لزوم طاعة النبیّ صلی الله علیه و آله، فقد قدّمنا هناک أن مسألة الطاعة تستبطن الأمر والنهی وما فی قوّتهما، فالعرف یفهم- عندما یأمرنا المولی بطاعة شخصٍ ما- أن نلتزم أوامره وننزجر عن نواهیه، والأوامر فی الغالب من شؤون الأقوال لا الأفعال، فالفعل لوحده لا یدلّ علی أمر إلا مع قرینة، اللهم إلا فی مثل ما هو فی قوّة اللفظ کالإشارات الدالّة، فیکون حجّةً لا لحجیّة الفعل بل لحجیة الأمر، فلا معنی للطاعة بناءً علی صدور فعل، نعم إذا کان محفوفاً بأمرٍ لفظی بالمتابعة یصیر حجةً، لکن لا لنفسه بل لحجیة ذلک الأمر اللفظی، کما لو أمر بالاقتداء به فی مناسک الحج، ثم أقامها أمامنا فیکون هذا الفعل حجةً لأمره الأوّل لا لنفسه.

۷- وأما ما دلّ علی لزوم التأسّی، فهو ظاهر ظهوراً واضحاً فی الفعل، فأن یکون أسوةً بمعنی صیرورة أفعاله قدوةً ومثالًا، وکذا آیة الزواج من زینب بنت جحش زوجة ابن النبیّ بالتبنیّ، فإنها حصریة فی دلالتها علی الفعل، فبعض نصوص هذه الطائفة ظهوره حصریّ فی الفعل تقریباً، بل لا دلالة له علی حجیّة القول إلا بواسطة، فهذه من أقوی الآیات دلالةً علی حجیة الفعل النبوی، ولذلک

ص: ۷۰

وجدنا البحث عن هذه الآية فى مباحث الأفعال النبوية من علم أصول الفقه، وقد كنّا أدرجنا المواقف حولها لدى البحث عن الدليل القرآنى على حجية السنّة، فلا نعيد.

۸- وأمّا آية: «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (الحشر: ۷)، فإذا فسّرنا الإتيان بالأمر كانت خاصّةً بالقول، أما مع إطلاقها فتكون ظاهرةً فيه، أما ظهورها فى غيره فغير واضح، فإنّ العرف لا يفهم من مثل هذا التعبير حجيّة الفعل، إلا إذا كانت لديه معطيات مسبقة عن شخص النبى صلى الله عليه و آله كعصمته.

وبهذا يظهر أن بعض طوائف الآيات- كآيات التأسّى- ظاهرة فى حجيّة الفعل، إلا أن الطوائف التى تبنّينا هناك دلالتها على حجيّة السنّة، وهى ما دلّ على حجيّة قوله ناسباً إياه إلى اللّه ولزوم طاعته، فلا ظهور لها فى حجيّة الفعل إطلاقاً، إلا إذا نصّ النبىّ صلى الله عليه و آله لفظاً على لزوم اتباعه فى فعلٍ ما، كما فيما ورد فى الصلاة، أو قامت قرينة حافة تشير إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله كان يقصد من الفعل الخاص كالعبادات تعليم أمرٍ دينى، مما يكوّن ظهوراً حالياً فى النسبة إلى اللّه تعالى.

كما أنّ الدليل القرآنى لا يشمل أفعال أهل البيت عليهم السلام أيضاً، كما تقدّم لدى بيان أصل حجيّة سنّتهم عليهم السلام، على خلاف دليل العصمة، سواء كان هذا الدليل على العصمة عقلياً أو قرآنياً.

ج. أمّا طوائف الروايات:

۱- فما دلّ على أنّ الرسول أوتى مثل القرآن، وأنه يشرّع منه، لا يفيد حجيّة الفعل، بل هو أقرب إلى الاختصاص بالقول، وهى تتحدّث عمّا حلّله الرسول وحرّمه، فلا ظهور لها فى الأفعال؛ إلا بقرينة إضافية.

۲- وأما الطائفة الدالّة على أنّ الرسول صلى الله عليه و آله لا يأمر الناس إلا بما أمره اللّه تعالى، فهى ظاهرة- ولو بقرينة الأمر- بالقول، ولا أقلّ من أنه ليست فيها أىّ إشارة للفعل النبوى، وقد كنّا علقنا هناك أيضاً فيما يخصّ هذا الأمر، فليراجع.

۳- وأما الطائفة الدالّة على النهى عن تفسير القرآن وتأويله، فهى أجنبية؛

ص: ۷۱

لأنّ أقصى ما تفيده لزوم الرجوع إلى النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام لكى يوضح لنا مدلول القرآن، وهذا المقدار أقرب إلى البيان القولى منه إلى الفعل، بحيث يُشبع البيانُ القولى- وهو القدر المتيقّن- الحيثية التى فيه.

۴- وأما ما دلّ من الروايات على لزوم إطاعة الرسول صلى الله عليه و آله، فحاله حال الآيات القرآنية، وقد بيّنا هناك أنّ الآيات لا يتحقّق مضمونها إلا عبر الأمر والنهى، وهما فى الأصل من مقولة البيان القولى.

۵- وأما ما دلّ على لزوم اتباع سنّة الرسول صلى الله عليه و آله وإحيائها، فهو يدلّ على حجيّة الأفعال النبوية التى تتحوّل إلى سيرة قائمة، لا مطلق الأفعال، لظهور السنّة فى السيرة لا مطلق القول والفعل والتقدير، كما أشرنا إلى ذلك فى محلّه.

۶- وأما ما دلّ على الاستماع إلى حديث النبى ونقله وحفظه.. فكلّه ظاهر فى خصوص القول، ولا أقل من عدم ظهوره فى الفعل.

وبهذا ظهر أنّ طوائف الروايات لا تدلّ على حجيّة الأفعال، نعم قد يدلّ بعضها- مثل الطائفة الخامسة- على حجيّة ما تحوّل إلى سيرة نبوية، إلا أنه رغم ذلك كلّه لا ينفع؛ لعدم وجود أخبار تفيد الوثوق بالصدور، وروايات الطائفة الخامسة ليست بهذه المثابة، فلا دليل فى الحديث على حجيّة الفعل النبوى.

د. وأما دليل تعذّر العمل بالقرآن وحده:

فهو لا ينفع هنا؛ لأن تمام المحاذير التى أبديت هناك ترتفع بالعودة إلى السنّة القولية، مثل عدم إمكان فهم القرآن، أو عدم إمكان استخراج العبادات منه وأمثال ذلك، فالسنّة القولية، وهى القدر المتيقن من حجيّة السنّة، تُشبع حيثية هذا الدليل، مما لا يجعله ملزماً فى مجال السنّة الفعلية، بعد أن كانت السنّة القولية المقدارَ المتيقّن فى الحجية.

ه. وأما الدليل الخامس:

فقد ذكرنا هناك أنه لا يقدّم جديداً غير ضمّ عصارة الأدلّة السابقة عليه، فلا يُعطى أزيد منها، فيرد عليه ما يرد عليها، فلا نعيد.

ص: ۷۲

و. وأما دليل الإجماع (۱):

فبغضّ النظر عن سلسلة الانتقادات التى سجّلناها عليه سابقاً، لا يفيد أزيد من أعمال النبى صلى الله عليه و آله التى تحوّلت إلى سنّة عملية له، ككيفيّة الصلاة مثلًا، لا مطلق أفعاله، فالمتيقّن من الإجماع هذا المقدار لا مطلق الفعل.

ز. وأما دليل السيرة المتشرعيّة:

فالمتيقن منه الأفعال التى تندرج ضمن سيرة النبى صلى الله عليه و آله سيما فى العبادات لا مطلقاً، لكننا بيّنا سابقاً أنّ المتيقّن من دليل السيرة ما كان هناك ظهورٌ حالى فيه يقتضى صدوره على وجه بيان حكم اللَّه تعالى كالعبادات مما فيه نسبةٌ إلى اللَّه تعالى، ولا يُحرز انعقاد السيرة على أكثر من ذلك.

وعليه، فجملة الأدلّة العامة على حجيّة السنّة لا تفيد حجيّة فعل النبى صلى الله عليه و آله عدا دليل العصمة، ولولاه لما ثبت منها حجيّة الفعل، إلاـ ما كان احتوى ظهوراً حالياً فى تعليم الدين وأمثال ذلك، كما فى باب العبادات، أو قام دليل لفظى على لزوم الاقتداء به فيه، كما ورد فى الصلاة، نعم بعض الأدلّة غير الثابتة كالإجماع قد يفيد ما هو أزيد قليلًا، لكنه غير ثابت.

وبهذا يستبين أيضاً أنّ المصادرة على المطلوب بالقول: لا يمكن بعد إثبات حجيّة السنّة النبوية عدم حجيّة الأفعال، لأنها من السنّة، فكيف تكون السنّة حجةً والفعل ليس بحجة؟! غير صحيحة؛ وذلك أنّنا بصدد البحث عن كون الفعل جزءاً من السنّة أم لا، ولا يوجد تلازم عقلى ولا عرفى ولا شرعى بين حجيّة القول وحجية الفعل، لهذا كنّا محتاجين إلى دليل خاصّ فى المقام على حجيّة الأفعال النبوية.

هذا فيما يخصّ سنّة النبى صلى الله عليه و آله، وأما ما دلّ على حجيّة سنّة أهل البيت عليهم السلام، فمثل دليل الثقلين وغيره لا يفيد إلا عبر تأسيس مفهوم العصمة، فإن ثبتت

۱- ذكر دليل الإجماع فى خصوص الأفعال الشيخ الطوسى فى كتاب العدة ۲: ۵۷۲- ۵۷۳.

ص: ۷۳

عصمتهم علیهم السلام مطلقاً كان فعلهم حجة، وإلا فسائر الأدلّة الدالّة على الرجوع إليهم يتمّ الاقتصار فيها على مراجعتهم والرجوع إليهم، والقدر المتيقن هو السنّة القولية، وغيرها يحتاج إلى دليل.

فدليل العصمة هو الدليل الوحيد لإثبات حجيّة السنّة الفعليّة، وقد لاحظنا أبا الصلاح الحلبى يستند إلى هذا الدليل فى باب الأفعال بالخصوص (۱)، وما فعله جملة من أصوليي السنّة- سيما الظاهرية- من تتبع أخبار الآحاد للاستدلال بها على حجية السنّة العملية غير وجيه، لكثرة الضعف السندى والدلالى فى هذه الروايات، وقد كان السيد المرتضى (۴۳۶ ه) رفض هذه الطريقة لاعتمادها على الآحاد التى كان يرفض الاستناد إليها (۲).

وعليه، فأفعال النبىّ صلى الله علیه و آله حجّة.

مؤدى حجيّة الفعل

بعد البناء على حجيّة الفعل وأنّه من السنّة، يُنظر فى كيفية الاحتجاج به والتوصّل إلى الحكم الشرعى عبره، وهنا ظهرت اتجاهات بين المسلمين، أبرزها:

الاتجاه الأول:

ما ذهب إليه جماعة من أصوليي المسلمين، كبعض المالكية والشافعية ونسب إلى أبى العباس، وأبى سعيد، وابن خيران، من أنّ أفعال النبى صلى الله علیه و آله تقع على الوجوب إلا ما خرج بالدليل (۳).

وقد انتقد بعض العلماء، مثل ابن حزم وابن عربى، هذا القول بأنّه يلزم منه التكليف بما لا يطاق، لاستلزامه التأسى بالنبى بكل شىء فَعَلَه، حتى لو وضع يده

۱- أبو الصلاح الحلبى، الكافى فى الفقه: ۱۰۴.

۲- المرتضى، الذريعة ۲: ۵۷۶.

۳- انظر: ابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام ۴: ۴۵۸؛ والشنقيطى، أضواء البيان ۳: ۴۵۷ – ۴۵۸؛ والمرتضى، الذريعة ۲: ۵۷۸؛ والطوسى، العدّة ۲: ۵۷۵؛ وقد رفض الطوسى هذا القول إلا أنّه نصّ على تبنّيه له فى كتاب الخلاف ۱: ۵۷۰؛ ولعلّه عدل عن رأيه فى أحد الكتابين إلى الآخر، وراجع: العينى، عمدة القارى ۹: ۲۵۱؛ والشيرازى، التبصرة: ۲۴۲- ۲۴۳؛ والإسنوى، التمهيد: ۴۳۹.

ص: ۷۴

فى موضع لزم أن نضعها فيه (۱).

إلا أنّ هذه الملاحظة يمكن لأنصار الاتجاه الأول تفاديها بالقيد الذى وضعوه فى نظريتهم، وهو قيد إلا ما خرج بالدليل، بحيث يدّعى أنّ الكثير من هذه الموارد العادية يتيقّن بعدم لزوم التأسى بها، وهو ادّعاء يلقى قدراً كبيراً من الصحّة، انطلاقاً من السيرة الإسلامية المتصلة ومن استلزام التكليف بما لا يُطاق.

الاتجاه الثانى:

ما ذهب إليه أهل الظاهر وبعض الشافعية وأبو بكر الصيرفى والقفال والقاضى أبو حامد، فيما نسب إليهم، وتبنّاه بعض علماء الإمامية، من أنّ أفعال النبى تقع على الندب والاستحباب إلا ما خرج بالدليل (۲).

والذى يبدو مستنداً لهذا الفريق هو آية التأسى بعد حملها على الاستحباب (۳)، وسيأتى الحديث عن طبيعة دلالة الآية وأمثالها هنا.

الاتجاه الثالث:

القول بحمل فعله صلى الله عليه و آله على الإباحة، إلا ما خرج بالدليل.

الاتجاه الرابع:

ما اختاره المحقق الحلى فى معارج الأصول وأبو إسحاق الشيرازى فى التبصرة، ونسب إلى أكثر الشافعية، وأبى بكر الدقاق وأكثر المتكلّمين، من التوقف فى المسألة وعدم البت فيها (۴)، وكأن المبرّر فى ذلك تساوى الاحتمالات التى تفسّر لنا فعله (۵).

وقد ذهب بعضهم كالإسنوى إلى أنّه كلّما أمكن حمل فعل نبوى على العبادة أو العادة حمل على العبادة؛ معلّلين ذلك بغلبة التعبّد فى أفعاله (۶)، مع أنّ التعبّد لا

۱- انظر: ابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام ۴: ۴۷۱؛ وابن عربى، الفتوحات المكية ۲: ۱۶۵ دار صادر.

۲- انظر: ابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام ۴: ۴۵۸؛ والنبذ فى أصول الفقه الظاهرى: ۷۰؛ والنراقى، مستند الشيعة ۱۹: ۲۴۷؛ وهو الظاهر من على بن يونس العاملى، الصراط المستقيم ۳: ۲۹۱؛ والشيخ الطوسى، التبيان ۸: ۳۲۸؛ والجصّاص، أحكام القرآن ۳: ۴۶۵-۴۶۶؛ والشيرازى، التبصرة: ۲۴۲.

۳- انظر: الشيرازى، التبصرة: ۲۴۳، وقد ردّ عليه فى الصفحة التالية.

۴- انظر: المحقق الحلى، معارج الأصول: ۱۷۰؛ والشيرازى، التبصرة: ۲۴۳.

۵- المحقق الحلى، معارج الأصول: ۱۷۰؛ والشيرازى، التبصرة: ۲۴۲، وانظر: هذه الأقوال عند الجصاص فى الفصول فى الأصول ۳: ۲۱۵.

۶- الإسنوى، التمهيد: ۴۴۰.

ص: ۷۵

يساوق عباديّة الفعل؛ فإن الرسول يمكنه أن ينوى قصد القربة من الأكل والشرب وغيرهما فيصير فى فعله هذا متعبّداً، كما يمكن ذلك لأىّ متشرّع آخر، دون أن يعنى ذلك عبادية هذا الفعل أو ذاك، فلا ملازمة بين التعبّد قلّةً وكثرة وبين عبادية الفعل الذى صدر منه.

والصحيح

أن الفعل على حالتين:

الأولى:

أن لا تُحرز جهته ولا ملابساته، بل يظلّ غامضاً لا نفهمه ولا ندرك وجهه، فهنا لا يُستفاد منه شيء، على بحثٍ سيأتى.

الثانية:

أن نفهمه ونحرزه، فهنا يجب التأسّى، وهذا التأسّى مشروطٌ بأمرين كما ذكر الطوسى والمرتضى وغيرهما (۱):

أحدهما:

صورة الفعل، فإذا صلّى على كيفية معينة فلا معنى للتأسّى إلا بالإتيان بالصورة عينها بما تحويه من أجزاء وشرائط، نعم، إذا أحرزنا من دليلٍ خارجى أن بعض الأجزاء أتى به النبى على وجه الاستحباب لم يكن فى مخالفة الصورة مخالفةً جزئيةً ضررٌ؛ لما سيأتى فى الأمر الثانى، فيكون التعديل حاصل الجمع بين حجيّة الفعل وحجية الدليل الآخر الدالّ على التعديل.

ثانيهما:

وجه الفعل، بمعنى أن نقوم بالفعل على الوجه والمنطلق الذى قام النبى صلى الله عليه و آله بالفعل على أساسه، فلو صدر الفعل من النبى صلى الله عليه و آله على وجه الوجوب وبنيّته كان معنى ذلك وجوب الفعل، ومؤداه أنه لو أتى بالفعل لكان الاقتداء غير حاصل إلا على نية الوجوب، وهكذا لو أتى النبى صلى الله عليه و آله بالفعل على وجه الاستحباب لم يحصل التأسّى إلا بالإتيان على الوجه عينه، وهكذا.

۱- راجع: المرتضى، الذريعة ۲: ۵۷۲- ۵۷۳؛ والطوسى، العدّة ۲: ۵۶۹- ۵۷۰؛ والمحقق الحلى، معارج الأصول: ۱۶۹؛ والجصاص، الفصول فى الأصول ۳: ۲۱۵ - ۲۱۷؛ والعلامة الحلى، تهذيب الوصول: ۱۷۵ - ۱۷۶؛ والإسنوى، زوائد الأصول: ۳۲۱؛ والشيرازى، التبصرة: ۲۴۴.

ص: ۷۶

نعم، محض قیام النبی صلی الله علیه و آله بفعلٍ ما لا یدلّ علی أزید من إباحة الفعل؛ لأن القیام بالفعل متساوی النسبة إلی احتمال الوجوب والاستحباب والإباحة بالمعنی الأخص، بل الکراهة إذا لم یناف صدورُها العصمةَ، ومعه فیقع الفعل مجملًا لا حکایة فیه عن شیء، فلا یستفاد منه سوی الجامع، وهو جواز الفعل بالمعنی الأعم المقابل للحرمة، ومن الواضح أنّ الأفعال تخالف الأقوال من حیث الصمت فی الدلالة فیها، فلیس فیها إطلاق وعموم وفق ما یراه العرف والعقلاء، ولهذا لا یؤخذ منها سوی الدلالة المتیقنة، فتندرج فی الأدلّة اللبیة لا اللفظیة، من هنا نبقی فیها مع الجامع إلا مع قیام دلیل.

وهذا الدلیل هو ما نسمّیه قرینة الفعل، التی تخرجنا من حدّ الإباحة إلی حدّ الوجوب أو الاستحباب.. ولا ضابط لهذه القرینة، بل هی تابعة لمناسبات المسألة وظروفها، فالأمر العبادی یدلّ عادةً علی الاستحباب فی الحدّ الأدنی (۱)؛ وذلک لأخذ قصد القربة فیه، وهی- أیالقربة- إما متفرّعة علی وجود أمر مسبق أو لا أقلّ علی المحبوبیة والمرغوبیة والحُسن، مما یوجب ظهوراً عند الفقیه فی الاستحباب، وإلا کانت العبادة بدعةً.

وتکرار فعلٍ ضمن ظروف قد یعطی الاستحباب أیضاً، وربما أعطی الوجوب، بحسب الشواهد الحافة، وربما لا یعطی أیّ شیء، ومعه فالفعل فی أزید من دلالة الإباحة بالمعنی الأعم یحتاج إلی قرینة خاصّة لا ضابط أصولی لها بشکل قاطع، بل تبقی خاضعةً للموارد الفقهیة المختلفة من جهة، ولسعة نظریة العصمة عند الفقیه المتکلّم من جهةٍ أخری.

وعلیه، فتحقیق صورة الفعل ووجهه هو ما یحقّق مصداق الاتّباع والتأسّی، ولا یری العرف والعقلاء غیر ذلک تأسّیاً، فلا یقول العرف أننی- لو أتیت بفعل أتاه النبی صلی الله علیه و آله علی نحو الوجوب أتیته علی نحو الاستحباب- تأسیت بالنبی کما هو

۱- إنما قلنا: بالحدّ الأدنی، لذهاب بعضهم کما یظهر إلی الوجوب، کما نصّ علی أنه ظاهر المذهب المالکی أبوالولید الباجی فی کتاب المنهاج فی ترتیب الحجاج ۲۰: ۱۲۸؛ وذکر القرافی فی شرح تنقیح الفصول: ۲۲۶، نسبة هذا القول إلی مالک والأبهری وابن القصار والباجی وبعض الشافعیة، نعم، نسب للشافعی نفسه استفادة الاستحباب، وإلی القاضی أبیبکر وعن الإمام مالک وأکثر المعتزلة الوقف.

ص: ۷۷

واضح؛ وعليه فإذا دلّ الفعل على الإباحة جاز الفعل والترك، وكذا إذا دلّ على الاستحباب جاز الترك، أما الفعل فلا بّد أن يطابق الكيفية، من هنا فعندما نقول:

صورة الفعل نقصد الكيفية التى أتى بها النبى على تقدير إرادتنا الإتيان بالفعل، لا الإتيان بالترك على تقدير جوازه.

ومعنى ما قلناه هو عدم التمييز بين العبادات وغيرها، فما قيل (۱) من جريان قانون التأسى هذا فى العبادات فقط لا غير، لا وجه له؛ لعدم وجود ميزة خاصّة تميّزها عن غيرها فى هذا القانون.

وعلى خط الفعل عينه، يأتى الترك، فترك النبى صلى الله عليه و آله لأمرٍ ما لا يدلّ- بدايةً- سوى على جواز الترك بمعنى عدم الوجوب، إلا إذا قامت قرينة على الحرمة أو الكراهة.. فيؤخذ بها، وتمام ما قلناه فى الفعل يجرى فى الترك، لكن بحسبه، ومن هنا يُعلم أنّه لو دلّ دليل على فعل النبى لأمرٍ وتركه له معاً فى زمانين، ولم تُحرز خصوصية لزمان أو حال فرضت الفعل تارةً والترك أخرى، دلّ ذلك على الجواز بالمعنى الأخص، بناءً على عدم تركه المستحب أو فعله المكروه، أو دلّت على سقوط الحرمة والوجوب معاً، وهذا معطى إضافى يقدّمه لنا الفعل أيضاً.

ومن هذا كلّه، ظهر أن حجيّة الفعل تعبّر عن درجة من الكشف عن الحكم الشرعى أنقص مما فى الأدلّة اللفظية بكثير، فلا معنى للقول بوجوب فعل كلّ ما فعله أو استحبابه ليتحقق مفهوم التأسّى كما ذهب إليه- وفق ما تقدّم- بعض أصوليى أهل السنّة؛ فإن وجوب الإتيان بفعلٍ صدر عن النبى على وجه الاستحباب سيغدو وجوباً ثانوياً، أىوجوب التأسّى لمحض التأسّى، مع أن المراد من التأسّى استطراق الفعل النبوى لمعرفة أحكام اللّه فى حقنا لا لمحض التأسّى، فإنّ هذا هو الظاهر من الأدلّة؛ إذ يُفهم من القرآن ونصوصه أن النبى صلى الله عليه و آله سبيل لمعرفة

۱- راجع: الإسنوى، زوائد الأصول: ۳۲۱؛ وانظر ما تقدّم.

ص: ۷۸

أحكام اللّه تعالى الثابتة بقطع النظر عنه، فيكون فعله وقوله سبيلًا لتحديدها علينا أو لاكتشافها في حقنا بعد أن ثبتت سلفاً، لا ظهور تكليفٍ في حقنا بعد معرفة فعل النبي اسمه التأسّي، حتى لو لم يكن في الواقع حكم للأمر في حدّ نفسه، ومعه فالفعل النبوي طريق وكاشف كالقول لا غير.

أنواع الفعل النبوي وحالاته

ونستعرض هنا بعض أنواع الفعل النبوي، وحكمها، مدخلًا لفهم الموضوع وإشكاليّاته:

۱- الأفعال الجبليّة

النوع الأوّل:

ما كان من أفعال الجبلّة الطبيعية، كحركات البدن والقيام والقعود والأكل والشرب والنوم واليقظة و..

وربما نقف هنا أمام ثلاثة اتجاهات أو مسارات في التعاطي مع الأفعال الجبليّة، وهي:

الاتجاه الأول:

إنّ هذا النوع من الأفعال لا يدلّ على أزيد من الإباحة، وقد ادّعى الاتفاق على ذلك (۱)، حتى مع تكرره كثيراً طيلة حياته، وهذا هو التعاطي الصحيح مع هذا اللون من الأفعال؛ إذ جبليّته وطبيعيّته تمنعان عن افتراض أو الجزم بمدركٍ آخر لصدور هذه الأفعال، فوجود الجبلّة يمكنه أن يفسّر لنا ظهور هذه الأفعال بل وتكرارها البالغ هذا، نعم يحتمل وجود أمرٍ آخر، لكن محض الفعل وتكراره هنا لا يعطينا دلالة، فنبقى مع القدر المتيقن وهو الإباحة بالمعنى الأعم، ومحض الاحتمال لا يقدّم شيئاً.

الاتجاه الثاني:

ما نقله القاضي أبو بكر الباقلاني- فيما نُقل عنه- من ذهاب

۱- نصّ على استفادة الإباحة أبو يحيى الأنصاري الشافعي في غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ۱۶۳؛ والخضري‌بك، أصول الفقه: ۲۳۷.

ص: ۷۹

جماعةٍ هنا إلى استحباب الاقتداء، ونقل ذلک الغزالی أیضاً وغیره (۱)، کما نسب ذلک إلى عبد اللَّه بن عمر وتتبعه هذه الظواهر من النبی صلى الله علیه و آله، کما تفیده کتب الحدیث والسنن (۲)، وتبنّاه الزرکشی فی تشنیف المسامع (۳)، وغیره (۴). ولعلّه الظاهر من الشهید الأوّل؛ حیث حمل الفعل على الشرعی (۵).

ولم یظهر وجهٌ لهذا الاتجاه سوى دلیل التأسّی الذی بیّنا أمره آنفاً، وهو لا یفید هنا سوى الإباحة؛ لعدم إحراز صدور الفعل عن النبی على غیر وجه الطبیعة أو على أیّ وجهٍ شرعی، وقد شرطنا فی التأسّی تحقیق وجه الفعل إلى جانب صورة الفعل، ولعلّه لذلک أو غیره تردّد فی مسألة دوران الفعل بین الجبلّی والشرعی مثل ابن اللحام فی المختصر (۶)، وإن حکم غیره بالاستحباب.

الاتجاه الثالث:

وهو الاتجاه الذی یرى عدم إمکان الاستفادة التشریعیة من الأفعال الجبلیّة، کما أشرنا لدى البحث عن تعریف مصطلح السنّة فی دراسة أخرى، وقد طرح هذه الفکرة فی الأفعال العادیة الأعم ظاهراً من الجبلیّة، الشیخُ البهائی (۱۰۳۰ ه) فی زبدة الأصول (۷)، ثمّ تبنّاها الشیخ عبداللَّه المامقانی (۸) فی القرن الرابع عشر الهجری، ولا مبرّر لذلک ما دام یمکن توظیف هذا الفعل الجبلّی فی إثبات عدم التحریم فی الحدّ الأدنى، أی‌استفادة الإباحة کما بیّنا، فلا یصحّ قول بعضهم بأنّه لا یُتّبع النبی فی شیء فی هذه الأفعال (۹).

۱- انظر: أبو یحیى الأنصاری الشافعی، غایة الوصول شرح لبّ الأصول: ۱۶۳.

۲- راجع فی ذلک کلّه: إرشاد الفحول ۱: ۱۹۸؛ ومحمد مصطفى شلبی، أصول الفقه الإسلامی: ۱۱۲؛ وابن حجر، فتح الباری ۱۰: ۳؛ والمبارکفوری، تحفة الأحوذی ۵: ۷۹.

۳- نقلًا عن التحبیر للحنبلی المرداوی ۳: ۱۴۵۶.

۴- انظر: أبویحیى الأنصاری الشافعی، غایة الوصول شرح لبّ الأصول: ۱۶۳.

۵- الشهید الأول، القواعد والفوائد ۱: ۲۱۱- ۲۱۲؛ القاعدة رقم: ۶۱؛ والسیوری، نضد القواعد الفقهیة: ۱۵۶.

۶- ابن اللحام، المختصر فی أصول الفقه: ۷۴.

۷- البهائی، زبدة الأصول: ۸۷.

۸- المامقانی، مقباس الهدایة ۱: ۶۸- ۶۹.

۹- انظر: عبد الکریم النملة، الجامع لمسائل أصول الفقه: ۱۳۶.

ص: ۸۰

۲- الأفعال الجبليّة ذات الهيئات الخاصّة

النوع الثانى:

ما كان من أفعال الجبلّة على هيئة مخصوصة، كما لو كانت له هيئة خاصّة فى قعوده يداوم عليها، أو طريقة خاصّة فى أكله وشربه يداوم عليها كذلك، فالاقتداء هنا ليس فى أصل القعود بل فى الهيئة الخاصّة، وهذا ما يميّز هذا النوع عن النوع الأوّل.

وقد ذهب الشوكانى هنا وجماعة إلى إفادة الندب، وحكى عن أكثر المحدّثين (۱)، إلا أنّ الأصح عدم إفادة الاستحباب هنا إلا نادراً، إذ كما يمكن أن يكون الطبع مقتضياً لأصل القعود، كذا يقتضى المزاج قعوداً خاصاً، فنحن نرى الناس تعتاد- بحكم الطبع أيضاً والمزاج- على طريقة خاصّة فى الأكل دون أن يكون ذلك ناشئاً عن وجهة نظر عقائدية أو ثقافية، والخصوصية وإن كانت محتملة إلا أنّه لا دليل على المنطلق الدينى فى فعل النبى صلى الله عليه و آله هنا، ما لم تقم قرينة أو شاهد خاصّ على ذلك.

نعم، يتصوّر بعضهم أن تمام ما يفعله النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام عليه السلام نابع عن الكمال

۱- الشوكانى، إرشاد الفحول ۱: ۱۹۹.

ص: ۸۱

المطلق الإنسانى، فإذا وجدت روايـة تـدلّ على أنّه شوهد أحد الأئمة عليهم السـلام يطعم أولاده موزاً حكموا باسـتحباب إطعام الموز للأطفال، وكأنه لا مباح فى حياة المعصوم، أو كأن تمام الأفعال صادرة فى انتقائها على وجه دينى، مع أنّ الأمور الطبيعيـة هنا لا تنافى العصمة ولا غيرها حتى لو تكرّرت، وما هو غير ذلك فهو المحتاج إلى دليل، إذ هو مجرد احتمال يستأنس به الذهن المتشرّعى عادةً. من هنا، كانت أهمية دراسة مسألة الأفعال؛ لكثرة الخطأ والاشتباه الذى يقع فيها لدى استنباط الأحكام الشرعية.

۳- الأفعال الحكومية الولائية

النوع الثالث:

ما صدر على نحو القرار الحكومى الولائى، أو على نحو القضاء، وهنا حالات:

الحالة الأولى:

أن يُحرز السبب وتـبين العلّة، كـأن نعرف أن عقـاب النـبى صـلى الله عليـه و آلـه لزيـدٍ مـن النـاس كـان لسـرقته مالًـا، وأنه لاـ تـوجد خصوصـيات أخرى، أو نحرز أنّ أمر النبى صـلى الله عليه و آله بالحرب والجهاد كان لكـذا وكذا، ولا توجد خصوصـيات خافية، وهنا من الواضـح أنه يمكن التمسّك بالفعل لإفادة الجواز والإباحة، إلا مع قرينة على أكثر من ذلك، لعدم وجود احتمالٍ آخر ما دام الفعل لا يُلحق بطبائع التصرّفات.

الحالة الثانية:

أن نُحرز أنّ هناك عناصـر أخرى فى الموضوع لكنها لم تصلنا بالتأكيد، وهنا لا يمكن الحكم وفق الفعل النبوى فى شىء إلا على نحو الجامع، كأن نقول: يجوز كـذا وكذا فى بعض الحالات غير المحدّدة المعالم، لا أكثر، وإفادة ما هو أزيد يحتاج إلى قرينة خاصّة، كما هو واضح.

الحالة الثالثة:

أن تحرز العناصـر الدخيلـة، لكن يستظهر أنّ الحكم النبوى لم يصـدر على نحو الحكم الإلـهى، بـل بـالعنوان الولاـئى الثـانوى، الكثير ظهوره عادةً فى قضايا الحكم والسياسة والسلم والحرب، فهنا يؤخذ الحكم بهذا العنوان وتُحصر قيوده.

الحالة الرابعة:

أن تحصـل حالـة شـك، فلا نعرف هل هـذه هى تمام الخصوصـيات أو توجـد خصوصـيات أخرى؟ أو يشك فى أنّه هل الخصوصـية الفلانية دخيلة أو ليست بدخيلة؟ وهذا من أهمّ مباحث تاريخية السنّة، التى

ص: ۸۲

درسناها مفصلًا فى موضع آخر.

والفرق بين الحالـة الثانيـة والحالـة الرابعة أنه فى الثانية يوجد يقين بوجود عناصـر أخرى مجهولة لدينا، على خلاف الحالة الرابعة فهى حالة شك، لانحرز فيها ما كنا أحرزناه فى الحالات الثلاث الأولى من سمات وخصوصيات.

۴- الأفعال العادية والعرفية

النوع الرابع:

الفعل العادى، ونقصـد به ما صـدر على أساس العادات والأعراف آنذاك، كأنواع اللباس ونحوها، أو أنواع التزين وقصّ الشـعر و.. أو أنواع الطبابة وطرائقها و..

وهـذا النوع من الأفعـال إن قام شاهـد على خصوصـية دينيـة فيه أخـذ بهـذا الشاهـد وبمقـدار دلالته، وإلا أفاد الإباحـة فى ظرف تلك العـادات، إذ لا ـ نُحرز أنه كـان سـيفعلها لو تغيّرت عـادات المجتمع أم لاـ إلا ـ مع شاهـد إضافى، من هنا يكون دليل الفعل صامتاً يفيد الإباحة المقيّدة، إذ هى القدر المتيقّن من الدليل اللّبى هنا.

۵- الأفعال النبوية العبادية

النوع الخامس:

الفعل العبادى، وهو الـذى يظهر للعرف أنّه طقسٌ من الطقوس أو عبادةٌ من العبادات، وقـد قلنا سابقاً: إنه فى مثل هذا اللون من الأفعال يستفاد الاستحباب، وقد بيّنا ذلك، بل قد يستفاد الوجوب فى بعض الحالات، إذا قام شاهد إضافى.

الفعل النبوى ومسألة الخصوصيّة

لا شك عند المسلمين فى أنّ هناك تشريعات دينية اشترك فيها النبى صلى الله عليه و آله مع غيره من المسلمين مثل الصلاة والصيام، وأنّ هناك أفعالًا كانت من مختصّاته، كوجوب صلاة الليل عليه كما قيل (۱)، وهذا التنويع للفعل النبوى على أساس

۱- انظر: المحقق النجفى، جواهر الكلام ۲۹: ۱۲۶؛ والحلى، شرائع الإسلام ۲: ۴۹۷.

ص: ۸۳

الخصوصية وعدمها يفتح أمام البحث الأصولى نافذةً كبيرة على توظيف الفعل النبوى فى الاجتهاد الفقهى، وقد أدّى هذا الموضوع إلى سجالات بين علماء أصول الفقه الإسلامى، ونحاول هنا رصد البحث والخروج بموقفٍ ما منه فى ضوء المعايير الأصوليّة.

يقع الفعل النبوى- من حيث مسألة الخصوصية وعدمها- على أنحاء بالنسبة إلينا، هى:

النحو الأوّل:

الفعل الخاصّ المحرز الخصوصية، حيث ذهب جمهور المسلمين إلى أنّ هناك أفعالًا للنبى صلى الله عليه و آله ثبتت له بخصوصه، كالزواج من أكثر من أربع نساء، ووجوب السواك، وتحريم نكاح الإماء بالعقد، أو وجوب صلاة الليل عليه و..

وقد صنّفت كتب عديدة مختصّة برصد خصائص النبى صلى الله عليه و آله أبرزها: الخصائص الكبرى للسيوطى، كما استعرضتها كتب أخرى مثل «الشفا» للقاضى عياض اليحصُبى، والوفا لابن الجوزى، وكذلك كتاب خصائص النبى صلى الله عليه و آله لأحمد بن محمد القمى (۳۵۰ ه) و.. (۱) وعادةً ما كانت تبحث فى باب النكاح من علم الفقه الإسلامى عند الشيعة والسنّة، على أساس أن أكثرها- من الثابت فيها- إنّما هو فى هذا الباب على ما أشار إليه الشيخ النجفى (۲).

وقد اتخذت مواقف إزاء هذا النوع من الأفعال، أبرزها:

۱- انظر: النجاشى: ۸۹- ۹۰؛ وإسماعيل باشا البغدادى، إيضاح المكنون ۱: ۴۳۰، وهدية العارفين ۱: ۶۳؛ والطهرانى، الذريعة ۷: ۱۷۵.

۲- النجفى، جواهر الكلام ۲۹: ۱۱۹؛ والشهيد الثانى، مسالك الأفهام ۷: ۶۹؛ وانظر ما ذكروه فى الفقه الإسلامى حول خصائصه: الكركى، جامع المقاصد ۱۲: ۵۲- ۶۶؛ والعلامة الحلى، تحرير الأحكام الشرعية ۳: ۴۱۷- ۴۱۹؛ والشهيد الأول، ذكرى الشيعة ۲: ۲۸۷- ۲۸۸؛ والشهيد الثانى، مسالك الأفهام ۷: ۶۹- ۸۴؛ والشيخ محمد على الأنصارى، الموسوعة الفقهية الميسّرة ۱: ۳۵۴- ۳۶۲؛ ومحمد بن يوسف المواق، مختصر خليل ۵: ۹۸؛ والحطاب الرعينى، مواهب الجليل ۵: ۴- ۱۸؛ والبهوتى، كشاف القناع ۵: ۲۳- ۳۸؛ والصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد ۱۰: ۲۷۴- ۴۹۲، وهو أكثر من ذكر الخصائص، فقد استعرض ۲۱۳ خاصية له، ثم ذكر مئات الخصائص الأخرى له فى أمته و..

ص: ۸۴

الموقف الأوّل:

إنّ هذا النوع من الأفعال لا ینفع فی باب الحجیّة؛ حیث لا یُستفاد منه حکمٌ شرعی لعامّة المسلمین، بعد إحراز خصوصیّتها وعدم قابلیّتها للتعمیم، وإلا لو کان یتسنّی تسریة الحکم لغیر النبی لکان ذلک خُلف کونه خاصّاً به صلی الله علیه و آله، وهذا هو الموقف الصحیح؛ لما قلناه وسیأتی.

الموقف الثانی:

ما ذکره الشیخ أبو شامة المقدسی (۶۶۵ ه) من التمییز بین ما أبیح للنبی صلی الله علیه و آله وما کان واجباً علیه أو حراماً، ففی الأول کالزیادة علی الأربع، لیس لأحد الاقتداء به، وفی الثانی یستحبّ الاقتداء فی الواجب کصلاة الوتر، وترک المحرّم کما قیل فی أکل ذی الرائحة الکریهة (۱).

وهذا الکلام غیر واضح؛ لأنّه إذا کان واجباً علیه أو مستحباً فلا معنی للاقتداء به، إذ إن دلّ دلیل خاص علی حکم المسألة فی حقّنا کان المتبع هو هذا الدلیل، فقد یکون حراماً علینا ما کان واجباً علیه، وإذا لم یقُم دلیل، فإن أرید وجوب الاقتداء أو استحبابه فلا مدرک له سوی دلیل التأسّی، وهو إما لا ـ نقول به من رأس کدلیل لفظی، أو کما بیّنا مشروطٌ تحقّقه بصورة الفعل ووجهه، ومن الواضح هنا أنّه بعد إحراز الخصوصیّة لا یمکن أن نقوم بالفعل علی وجهه؛ لأنّه إذا کان الفعل مستحباً علیه صلی الله علیه و آله لم یکن معنی لإتیاننا به علی نحو الوجوب، فهو خُلف شرطیة الوجه، وهکذا لو کان واجباً علیه لا ـ معنی لاستحباب الاقتداء؛ لانخرام شرطیة الوجه، وأما مع اتحاد الوجه بأنْ یکون واجباً علیه وحکمنا بوجوب الاقتداء أو مستحباً علیه وحکمنا بالاستحباب، فهو:

أ. مضافاً إلی صیرورة دلیل التأسّی دالًا علی الوجوب والاستحباب وهو خلاف الظاهر منه عرفاً، إن لم نقل بالاستحالة علی تقدیر القول بتباین مفهومی الوجوب والاستحباب، مع القول باستحالة استخدام اللفظ الواحد فی أکثر من معنی، وکلامنا هنا فی وجوب أو استحباب التأسی، لا فی وجوب التأسی الذی قد ینتج وجوب هذا الفعل أو استحباب ذاک، فهما أمران متغایران.

۱- انظر: الشوکانی، إرشاد الفحول ۱: ۱۹۹- ۲۰۰.

ص: ٨٥

ب. إنه خُلف الخصوصية؛ إذ بعد افتراض اختصاص النبى صلى الله عليه و آله بحكم كيف يمكن القول بثبوت عين الحكم على غيره على نفس الصورة والوجه؟ فما معنى الخصوصية حينئذٍ، إلا خصوصية الخطاب لا خصوصية الحكم؟ ولا يُدرى يُلتزم به هنا أم لا؟!

الموقف الثالث:

ما ذهب إليه إمام الحرمين الجوينى فى البرهان، من أنّه لا يوجد ما يمنع عن الاقتداء، كما ليس هناك نقلٌ لفظى أو معنوى يفيد اقتداء الصحابة بالنبى صلى الله عليه و آله فى هذه الأمور، لهذا كان الأرجح التوقف.

وهذا الكلام ظهر الجواب عليه مما قدّمناه فى مناقشة ما نُسب إلى أبى شامة المقدسى؛ وذلك:

أ. كيف يُطلق القول بعدم وجود ما يمنع عن الاقتداء إذا أراد الشمول لما أبيح له، فإنّ المباح له لا معنى لصيرورته من خصوصياته إلا أن يكون حراماً على غيره، وإلا كان خلف كونه خاصّاً به، ومع حرمته على غيره، كيف يقال فى هذا القسم: إنه لا يوجد ما يمنع عن الاقتداء به فيه؟!

ب. أما فى غير المباح، كما فى الحرام عليه أو الواجب أو المستحب، فلا معنى للقول بعدم وجود ما يفيد اقتداء الصحابة؛ لأنّه حتى لو لم يصلنا ما يفيد الاقتداء منهم، ينبغى أن لا يظلّ حكمنا مقصوراً على ما جاء فى سيرتهم، بل المطلوب مراجعة دليل التأسّى وما هو مقدار دلالته؟ فإذا كنّا نعتقد- كما اعتقد بعضهم- أنّ دليل التأسى شامل لمثل ذلك، كان لوحده كافياً فى المقام، سواء بلغنا أنّ الصحابة اقتدوا به فيها أم لم يصلنا شىء.

وعليه، فالصحيح هنا هو الموقف الأوّل، وهو إخراج هذه الأفعال عن دائرة حجية الفعل النبوى، من هنا لا تدخل فى تعريف السنّة النبوية (١).

النحو الثانى:

الأفعال النبوية العامّة التى يُحرز مشاركة النبى للمسلمين فى

١- انظر حول الخلاف فى دخولها فى تعريف السنّة النبوية: طه جابر العلوانى، أصول الفقه الإسلامى: ١٥.

ص: ۸۶

أمرها وحكمها، كوجوب الصلاة اليومية والصوم والحج و.. فإنّ هذه الأفعال، لا ريب فى حجيتها- بناءً على حجيّة الفعل- ما دمنا أحرزنا فيها عدم الخصوصية لأنّ فعل النبىّ لها إنّما هو فعلٌ لها بما هو فردٌ من آحاد المسلمين؛ فيكون لفعله دلالة على الموقف منها بالنسبة لغيره من آحادهم.

ومن هذا النوع ما جاء من الأفعال على سبيل التعليم والبيان، مثل ما لو صلّى النبى صلى الله عليه و آله أمام المسلمين بغرض تعليمهم الصلاة، مما يسمّى بالأفعال البيانية، أو لو صدر أمرٌ لفظى بالتأسّى بالنبى فى فعلٍ ما، نحو ما جاء فى الصلاة.

النحو الثالث:

الأفعال النبوية التى لا يُحرز فيها لا الخصوصية ولا العمومية، فهل تشملها أدلّة حجيّة الفعل النبوى؟ فلو تزوّج النبى من أكثر من أربع نساء، وشككنا شكاً حقيقياً فى الخصوصية، فهل يمكن التمسّك بدليل حجيّة الفعل للشمول لهذا المورد أم لا؟

ويسمّى هذا النوع من الأفعال فى عُرف الأصوليين بالأفعال المجرّدة، أى تلك التى تتجرّد عن قرينة الخصوصية والعمومية معاً، إلى جانب التجرّد عن سائر ألوان الفعل، بحيث أحرزنا خروجها عن الأفعال الجبلّية ونحوها.

وهذا البحث مع جريانه فى حقّ النبى صلى الله عليه و آله قد لا يجرى فى حقّ أهل البيت عليهم السلام؛ لعدم وجود خصائص معتدبها لهم، كما يصرّح بذلك بعض علماء الإمامية (۱)، إلا ما

۱- يفهم من السيد الشيرازى، الفقه ۴۷: ۱۱۳؛ ويفهم من بحثهم فى خصائص النبى أن هذه الخصائص لا تجرى فى حقّ الأئمة عليهم السلام، حيث ناقشوا فى بعضها بانتقاضها بالإمام عليه السلام؛ فانظر على سبيل المثال: الشهيد الثانى، مسالك الأفهام ۷: ۷۲؛ وقد لاحظنا فى دائرة معارف الفقه الإسلامى طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام أنهم ذكروا الكثير من خصائص الأئمة عليهم السلام ولم يذكروا شيئاً يرجع إلى ما يرتبط ببحثنا، رغم استقصائهم فى البحث عادةً، فقد ذكروا مثل وجوب الاعتقاد بإمامتهم، ووجوب محبتهم، ووجوب طاعتهم، والصلاة عليهم، واحترام أسمائهم، والتوسّل والتبرّك بهم، والتسمّى بأسمائهم، وما يتصل ببعض مسائل صلاة الجمعة والعيدين والجهاد الابتدائى.. وكلّها خصائص لا علاقة لها بما نبحثه هنا، كما لا يخفى، فانظر: موسوعة الفقه الإسلامى طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام ۱: ۱۸۳- ۲۰۲.

ص: ۸۷

قيل من بعض الأمور، مثل جواز الجنابة لعلى عليه السلام و.. فى المسجد وما شاكل ذلك (۱)، إلا أنّ مراجعة خصائص النبى صلى الله عليه و آله فى باب النكاح من مصنّفات الفقه الإمامى تؤكّد لنا أنّ السائد بين الإمامية عدم وجود خصائص شرعية لهم، اللهم إلا خصائص فى مقام الإمامة والولاية، وهذا بحثٌ آخر، وأما بعض الكتب المسمّاة بخصائص الأئمة عليهم السلام فهى تحتوى- ككتاب خصائص الأئمة للشريف الرضى- على درر كلماتهم وروائع مقالاتهم (۲) لا أنها تذكر الخصائص بالمعنى الفقهى والأصولى الذى نبحث عنه هنا، نعم، الخصائص التكوينية كالعصمة والعلم والكرمات و... خارج عن إطار بحثنا، وهذا من القضايا الخارجة عن الإطارات التشريعية.

وعلى أية حال، فقد حصل انقسام بين العلماء المسلمين فى هذه المسألة، وحصيلة مهمّ اتجاهاتهم ترجع إلى موقفين:

الموقف الأوّل:

إن ما دلّ على لزوم أو استحباب التأسّى بالنبى صلى الله عليه و آله يشمل الفعل المجرّد، سيما إذا علمنا أنّ النبى صلى الله عليه و آله فعل الفعل على نحو الوجوب أو الاستحباب أو.. فيحكم بوجوب التأسّى فى هذا الفعل على مبنى من يوجب التأسّى مطلقاً إلا ما خرج بدليل، كما تقدّم، أو يحكم بالاستحباب تبعاً لمن قال به، وهناك من تحدّث عن الحمل على الوجوب عملًا لا اعتقاداً، ونسب ذلك إلى مشايخ سمرقند (۳).

الموقف الثانى:

عدم شمول دليل التأسّى لمثل هذا النوع من الأفعال، على

۱- نصّ الإمام الخمينى على قلّة مختصات الأئمة عليهم السلام فى كتاب الاجتهاد والتقليد: ۵۴؛ ولعلّه أراد مثل صلاةالجمعة والعيدين والجهاد الابتدائى و... ممّا لا يدخل فى المختصات التى نبحث فعلًا عنها؛ وحول مسألة الجنابة لمحمد وعلى و... راجع: وسائل الشيعة ۲: ۲۰۷- ۲۰۸؛ كتاب الطهارة، أبواب الجنابة، باب ۱۵، ح ۱۱، ۱۲، ۱۳، ۱۴، ۲۱؛ وراجع: مستدرك الوسائل ۱: ۴۵۹- ۴۶۲.

۲- انظر كلام الشريف الرضى نفسه فى مقدّمة الكتاب: ۳.

۳- نسب ذلك إليهم أبو الثناء الماتريدى، كتاب فى أصول الفقه: ۱۵۴؛ وانظر القول بالوجوب عند الأنصارى الشافعى، غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ۱۶۳، ذاكراً فى المصدر عينه وجود القول بالندب.

ص: ۸۸

أساس احتمال كونه من خصائص النبى صلى الله عليه و آله، فتحمل على الإباحة، لأنّها المتيقنة، كما ذهب إلى ذلك مشايخ العراق فيما ينسبه إليهم الماتريدى (۱).

الموقف الثالث:

التوقف فى المسألة نظراً لتعارض الأدلة (۲).

الموقف الرابع:

إخراج هذا النوع من الفعل النبوى عن دائرة المجال التشريعى، بمعنى أنّه شرعاً لا يكون لنا إلا بدليل خاص، وهذا ما نسب إلى الكرخى، بل إلى عموم الأشعرية، وتبنّاه أبو إسحاق الشيرازى فى اللمع، دون التبصرة (۳)، وقد علّله الأنصارى الشافعى بأنّه الأحوط (۴).

وفى الحقيقة، فما يذهب إليه الدكتور محمد سليمان الأشقر (۵) من اضطراب كتب أصول الفقه فى نسبة الأقوال هنا إلى رجال المذاهب السنّية، حقيقة واقعة، فقد نُسب إلى الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل (۶) القول بالوجوب والاستحباب والإباحة، ولعلّ من أسباب هذا الاضطراب- كما يقول الأشقر أيضاً- أن بحثاً أصولياً سنّياً هنا انقسم إلى قسمين:

الأوّل: تحديد صفة الفعل المجرّد فى حقّ النبى صلى الله عليه و آله، بمعنى أنّ هذا الفعل هل صدر عن النبى صلى الله عليه و آله على نحو الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة؟ أىما هو حكم هذا الفعل فى حقّه صلى الله عليه و آله؟

الثانى: تحديد الحكم أمام المكلّفين، بمعنى هل يشملهم دليل التأسّى على نحو الوجوب أو الندب أم لا؟

۱- أبو الثناء الماتريدى، كتاب فى أصول الفقه: ۱۵۳- ۱۵۴؛ والأنصارى الشافعى، غاية الوصول: ۱۶۳.

۲- راجع: أبو يحيى الأنصارى الشافعى، غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ۱۶۳؛ ولعله مراد السيد الصدر فى الحلقة الثانية: ۱۵۵- ۱۵۶.

۳- انظر: الشيرازى، اللمع: ۱۴۴؛ والتبصرة: ۲۴۰؛ والجصّاص، الفصول فى الأصول ۳: ۲۱۵؛ والإسنوى، زوائد الأصول: ۳۲۱.

۴- الأنصارى الشافعى، غاية الوصول: ۱۶۳.

۵- محمد سليمان الأشقر، أفعال الرسول ۱: ۳۲۷.

۶- لمزيد من الاطلاع، انظر: ابن اللحام، المختصر فى أصول الفقه: ۷۴؛ حيث أشار إلى وجود روايتين عن أحمدفى ذلك هما: الوجوب والندب.

ص: ۸۹

وقد وقع خلط واضطراب فی معرفة أنّ جهابذة المذاهب السنّیة کانوا یبدون موقفاً علی الصعید الأوّل أم الثانی.

وعلی أیّة حال، نذکر هنا ما یمکن أن یشکّل عائقاً عن الاستدلال بهذا النوع من الأفعال النبویة، وهو احتمال الخصوصیة، فلعلّ الفعل من خصائص النبیّ صلی الله علیه و آله، ومعه لا معنی للاقتداء به فیه، من هنا، توقف فریق فی حجیّـة الفعل النبوی المجرّد؛ لاحتمال حرمة الفعل علینا وهو واجب علیه صلی الله علیه و آله، أو العکس، فحتی القول بالإباحة لا معنی له.

وهنا:

أ. تارةً نسقط حجیّـة الفعل علی أساس احتمال کون تمام أفعاله صلی الله علیه و آله خاصّـة به، وهذا الاحتمال سبق أن ضعّفناه فی البحث القرآنی، وفاقاً لابن حزم والسید الصدر، حیث قلنا: إن آیة التأسّـی بنفسها دلیلٌ علی بطلان هذا الاحتمال؛ إذ ستصبح لغواً مع افتراض کون تمام أفعاله إلا نادراً من خصائصه، حتی لو لم نجعلها دلیلًا علی حجیة السنّة بالشکل المتداول، فإنّها علی أیّ حال تجعل السائد فی حیاته صلی الله علیه و آله مورداً للتأسّـی به، وهو مفهوم لاـ ینسجم مع افتراض الخصوصیة الشمولیة المدّعاة فی هذا الافتراض.

ص: ۹۰

ولعلّه من هنا ردّ أبو إسحاق الشيرازى وغيره على من قال بعدم إمكان الأخذ بأفعال النبى إلا بدليل، بالتمسّك بآية الأسوة ورجوع الصحابة إلى أفعاله فيما أشكل عليهم (۱).

ب. وأخرى نسقط حجيّة الفعل على أساس أننا لا نعرف ظروف صدوره؛ فيعود كالمجمل، وهذا الاحتمال ألمحنا إليه آنفاً وناقشناه، وقد عالجناه عند الحديث عن تاريخية السنّة فى دراسة أخرى.

ج. وثالثة نشكك فى فعلٍ ما أنه من خصائصه أو لا؟ وهذا هو محلّ البحث، وقد أجيب هنا عن شبهة الخصوصية بأمور:

أولًا:

ما تداول بين أصوليي أهل السنّة كالآمدى، وابن الهمّام و.. من أنّ التحقيق أن خصائص النبى صلى الله عليه و آله نادرة، ومعه فأىّ موردٍ نضع إصبعنا عليه يكون احتمال العمومية فيه كبيراً جداً نسبةً لاحتمال الخصوصية، ومعه فيحمل على الأعمّ الأغلب (۲).

إلاـ أنّ الغزالى (۵۰۵ ه) الذى يرى الأصل فى عدم تعميم فعل الرسول لغيره، رفض هذا الاستدلال؛ على أساس أنه لا دليل يفرض الحمل على الأغلب، ويمثل الغزالىّ لذلك باشتباه أخت الرجل بعشرة أجنبيات، فهل يعتبرهنّ حلالًا عليه لقانون الأعمّ الأغلب؟ (۳).

وقد أجاب الدكتور محمد سليمان الأشقر عن كلام الغزالى بأنّ الطرف الآخر يدّعى ندرة الخاص لا قلّته، فالنسبة ليست العُشر، بل لو أراد التشبيه لشبّه باحتمال وجود أخته بين نساء بلدٍ أو مدينة، وهنا يحكم الفقهاء بجواز نكاحه لإحداهنّ فى هذه الحال، لا بالحرمة كما يريد الغزالى (۴).

۱- الشيرازى، اللمع: ۱۴۴.

۲- انظر: الأشقر، أفعال الرسول ۱: ۳۳۴.

۳- الغزالى، المستصفى من علم الأصول ۲: ۲۲۶.

۴- الأشقر، أفعال الرسول ۱: ۳۳۵.

ص: ۹۱

والذی ینبغی التعلیق به هنا أنه:

۱- یلزم فی الشک هنا أن لا یکون شکاً حقیقیاً له معطیاته، ففی مثل حالة الشک الافتراضی تتوفر معطیات إجراء حساب الاحتمال؛ ذلک أنه عندما نضع یدنا علی فعلٍ نبوی، ونشک أنه من خصوصیاته شکاً افتراضیاً فإننا نقیس نسبة خصائص أفعاله إلی ما هو العام المشترک منها، وستکون النسبة، بعد سبر أبواب الفقه والأخلاق والتشریع، نسبةً ضئیلةً جداً، سیما بقرینة ما سیأتی مما یجعل عدم الخصوصیة فی عداد المطمأن به عقلائیاً، وإن لم یحصل یقین عقلی بذلک، والاطمئنان حجة عقلائیة ممضاة شرعاً، بل هی العلم فی اللسان العربی تشملها- لا أقل- بعض نصوص العلم الواردة فی الکتاب والسنّة.

أما مع وجود شک حقیقی قائم علی معطیات تحقّق شکاً، فإن هذا الإجراء لحساب الاحتمال سوف یضعف، وذلک أن معطیات الشک هذه سوف تقف بوجه الکثرة الکمیة لصالح الاحتمال الآخر، وقد تعیق تکوین اطمئنان بعدم الخصوصیة.

فالمفترض فی معالجة هذا الموضوع الجمع بین العنصر الکمی ودرجة احتمال الخصوصیة المنطلقة من معطیات، فلا صحّة لإطلاق کلام الآمدی ولا أبی حامد الغزالی.

۲- لا نرید الخوض فی تحدید خصائص النبی صلی الله علیه و آله، إلا أن إطلالةً عابرة علیها تفضی إلی الشک فی ثبوت کثیرٍ منها، حتی بلغ بها بعضهم- کالمحقق الحلی- الخمسة عشرة خصوصیة (۱)، ذلک أنّ الکثیر من الخصائص إنما ورد بروایات ضعیفة السند لم تصحّ، ولم نجد مع الأسف من اهتمّ بجدیّة- إلا نادراً- بتحقیق حال هذه الخصائص، وإنما أطلقت دون نقد متنی أو سندی للمصادر التی اعتمد علیها، وهذا

۱- انظر: الحلی، شرائع الإسلام ۲: ۴۹۷؛ وراجع: الأشقر، أفعال الرسول ۱: ۳۳۴.

ص: ۹۲

ما يبسّط مسألة خصائص النبى صلى الله عليه و آله، ويضعفها أكثر فأكثر، كما أن بعض من ذكر خصائص للنبى تعرّض لخصائص تكوينية، كأن يبصر وراءه كما يبصر أمامه، وتعرّض لخصائص ترجع إلى حقوقه على المسلمين، كأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وحرمة سؤال زوجاته إلا من وراء حجاب و... ولهذا ينخفض كثيراً العدد الكبير الذى ذكره الصالحى الشامى والسيوطى والعلامة الحلى فى التذكرة لخصائص النبى صلى الله عليه و آله بعد إخراج غير الثابت، وما كان من التكوينيات، وما كان من حقوقه على أمته.

ثانياً:

ما ذكره أبو شامة المقدسى من أنّ لازم هذا الكلام- أى التوقف عند احتمال الخصوصية- هو التوقف فى أكثر الأحكام الشرعية، الأمر الذى تناقضه سيرة السلف وفقهاء الأمصار (۱)، وقد أضاف المازرىّ إلى هذا الكلام أنّ سيرة الصحابة انعقدت على اتّباع الرسول صلى الله عليه و آله فى أفعاله، فإذا شككنا فى شرعية خطوتهم هذه لشككنا فى أمور أخرى عرفنا شرعيّتها من سيرتهم، مثل القياس وخبر الواحد، وفيه ما فيه (۲).

ويجاب عن ذلك:

أ. إنّه لا يلزم من رفع اليد عند احتمال الخصوصية التوقّف فى أكثر الأحكام، فهذا الافتراض غير مطابق للواقع؛ لأن أكثر الأحكام على الإطلاق مأخوذ من الأدلّة اللفظية من كتاب وسنّة، وليس موقوفاً التعرّفُ عليه على الفعل النبوى، ففى هذا الكلام نوعٌ من التهويل.

ب. حتى لو استلزم ذلك التوقف المذكور لا يكون ذلك دليلًا على إلغاء احتمال الخصوصية منطقياً، فهذا أشبه بمنطق الغاية تبرّر الوسيلة، وقد وقع فى مثل هذا الأمر بعض أصوليى الإمامية، فقالوا بانسداد باب العلم والعلمى بالأحكام، لكن الانسداد لم يجعلهم يقولون بحجية خبر الواحد أو يتنازلون عن مبرّرات نظريتهم فى التشكيك بحجية الظهور لغير المشافهين أو المقصودين بالإفهام، كما حصل مع

۱- انظر: الأشقر، أفعال الرسول ۱: ۳۳۵.

۲- المصدر نفسه.

ص: ۹۳

الميرزا القمى (۱)، فالمفترض بالمازرى والمقدسى اتّباع نهج القمى فى نظريته فى باب الانسداد؛ حيث ظلّ وفيّاً لهذه النظرية حتى النهاية، بقطع النظر عن الموقف من نظريّته نفسها.

ويمكن القول بأنّ هذا النوع من المعالجة سائد فى أوساط بعض العلماء؛ إذ يقال لك: يلزم على هذا القول الفلانى عدم بقاء حجر على حجر، وكأنّ المطلوب إبقاء الأحجار على بعضها ولو من دون أساسٍ علمى.

ج. وأما الاحتجاج بسيرة الفقهاء، فليست بدليلٍ يحتج به، فسيرتهم إما إجماع أو شهرة أو سيرة متشرعيّة، ولا بد من تحقّق الشروط فيها بناءً على الحجيّة، لا ـ إطلاق التمسّك بسيرة الفقهاء، كأنها دليل حاسم مطلقاً، مع أننا لا نعرف هذه السيرة، فلعلّهم أخذوا بالعمومية لأنهم لم يشكّوا، فيما حصل عندنا شك، ولا نحرز انعقاد سيرةٍ لهم فى حال الشك كما هو المطلوب هنا.

د. أما الاستدلال بسيرة الصحابة كما فعله المازرى، فسيرتهم فعلٌ لا إطلاق فيه، ولو ثبت اقتداؤهم به لدلّ على المقدار المتيقّن، وهو حالة العلم بعدم الخصوصية، وليس بأيدينا مورد يكشف عن انعقاد سيرتهم- بوصفها ظاهرة- على إلغاء احتمال الخصوصية عند الشك، فهذا ما نريده هنا، لا مبدأ اقتدائهم بالنبى صلى الله عليه و آله.

ثالثاً:

ما ذكره الشيخ محمد رضا المظفر- متابعاً فى أصل الفكرة بعض العلماء المحققين كصاحب الجواهر (۲)- من أنّ مقتضى عموم أدلّة الاشتراك أن يكون النبى مكلّفاً بما كلّفنا نحن به إلا ما خرج بالدليل، فهو بشرٌ مثلنا تجرى عليه أحكامنا، فنطبّق عليه قاعدة التمسّك بالعام فى الدوران فى التخصيص بين الأقل والأكثر (۳).

۱- انظر: نظريات القمى فى القوانين المحكمة ۱: ۲۲۷- ۲۳۹، ۴۲۴.

۲- انظر: النجفى، جواهر الكلام ۲۹: ۱۲۹.

۳- المظفر، أصول الفقه ۲: ۶۷.

ص: ۹۴

وهذا الكلام يلاحظ عليه، أنّه:

أ. إذا كان يريد التمسك بعمومات الأوامر والنواهى الواردة فى الكتاب والسنّة، فهذا بنفسه طاردٌ لاحتمال الخصوصية؛ إذ ما دام النص عاماً لجميع الناس فيتمسّك بعمومه للشمول للنبى وغيره، فليس هناك حاجة لقاعدة الاشتراك ولا غيرها، مع أنّ فرضنا عدم وجود مدرك آخر غير الفعل النبوى.

ب. وإذا كان يريد أن يتمسّك بقاعدة الاشتراك فى مورد حكم لفظى ظاهره التوجّه إلى النبى، ولا نعلم أنه موجّه إلينا أم لا؟ فهو ضعيف؛ لأن الحديث ظاهر فى النبى ولا ظهور له فى غيره، فلا يكون قادراً على الشمول لغيره، وقاعدة الاشتراك: إمّا دليلها لبّى مثل الإجماع والسيرة المتشرعية فلا يحرز انعقادها فى هذا المورد، وهذا النوع من الشكوك؛ لأنّ ظاهر كلام الأصوليين والفقهاء اشتراك الأحكام بين الرجل والمرأة والعبد والحرّ والماضين واللاحقين، ولا يوجد فيها ما يدلّ على اشتراكها بين النبى وغيره عند الاحتمال، وإمّا دليل لفظى، وقد راجعنا الأدلّة اللفظية ولم نجد فيها إطلاقاً لهذه الصورة، فهى واردة فى الحاضر والغائب وفى الرجل والمرأة وفى اللاحق والسابق، وليس فيها مورد يوجّه فيه الخطاب للنبى، ولا نعرف أنّه من مختصّاته أم لا.

ج. وأمّا إذا أريد أنّنا أمام الفعل النبوى، لا أمام دليل لفظى، ولا ندرى هل يفعل ذلك لحكم خاص به أم شامل له ولنا؟ فهذا أجنبى عن نصوص قاعدة الاشتراك لمن راجعها، وقد أتينا على بحث هذه القاعدة مفصّلًا فى مباحث تاريخية السنّة النبوية، وأثبتنا هناك ضعف تمام روايات هذه القاعدة من الناحية السندية بهذا اللحاظ لها لابتمام دوائرها.

وبهذا يظهر أن حجيّة الفعل النبوى تظلّ ساريةً حتى فى حال الشك الافتراضى وفق ما قلناه، بل بعض حالات الشك الحقيقى أيضاً، لا

ص: ٩٥

مطلق الحالات.

الدور الدلالى للأفعال

كما الأقوال، تلعب الأفعال دوراً دلالياً أيضاً، فكما تدل على الإباحة قد تدلّ على ما هو أزيد منها، كما أشرنا سابقاً، وذلك نوجزه (١) ضمن نقاط:

أ. تشرح الأفعال أحياناً المراد من الألفاظ (٢)، إذ هى تجسيد للنص اللفظى وتطبيقٌ له، فتصلح مبيّناً لمجمل القول، بل رأى بعضهم كالمحقق الحلى أنه أكثر بياناً، كما لو تردّد نصّ بين إفادة الوجوب والاستحباب، ثم أحرزنا ترك النبى صلى الله عليه و آله فى موردٍ ما للفعل المطلوب دون وجود عذرٍ فى المقام، فهذا يكشف عن الاستحباب وعدم الوجوب وإلا لما تركه النبى صلى الله عليه و آله، وهكذا لو تردّد نصّ لفظى بين الحرمة والكراهة ثم فعله النبى صلى الله عليه و آله، فهذا يكشف عن الكراهة، لعدم صدور الحرام منه.

وقد نقل الآمدى فى الإحكام عما وصفها بالطائفة الشاذة، وكذا صاحب فواتح الرحموت عمّن أسماهم بالشرذمة (٣)، أنّ الفعل لا يكون بياناً، مستنداً للنقل كخبر:

صلّوا كما رأيتمونى أصلّى، والعقل أيضاً، والظاهر أن المراد بهذه الطائفة الكرخى وبعض الشافعية، كما نسب إليهم ابن اللحام فى المختصر (۴)، وغيره (۵).

ومن أبرز ألوان بيان الفعل ما يسمّى بالأفعال البيانية، كتعليمه الصلاة والحج

١- لأنّ بحثنا ليس فى باب الدلالات بهذا المعنى، وإنّما يتعرّض لها فى محلّه من مباحث التعارض وأمثالها.

٢- أشار لذلك سريعاً بعضهم، مثل الشيخ حسن، معالم الدين: ١٥٧؛ والمرتضى، الذريعة ١: ٣٣٩- ٣۴٢ وج ٢: ۵٨۶؛ مستدلًا بالإجماع على بيانية الفعل؛ والشاطبى، الموافقات ٣: ٢٧۵؛ وأبى الوليد الباجى، كتاب المنهاج فى ترتيب الحجاج: ٢٠؛ وأبى الثناء الماتريدى، كتاب فى أصول الفقه: ١۵٣؛ ومحمد مصطفى شلبى، أصول الفقه الإسلامى: ١٠٩؛ ومصطفى الزلمى، أصول الفقه الإسلامى: ٣٢؛ ومحمد أبو زهرة، أصول الفقه: ١١۴؛ وعبد الكريم النملة، الجامع لمسائل أصول الفقه: ١٣۶؛ والمحقق الحلى، معارج الأصول: ١۵٩- ١۶٠ و ١٧٣؛ والأنصارى، فواتح الرحموت ٢: ٨٢؛ وابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام ۴: ۴۵٨؛ والشيرازى، التبصرة: ٢۴٧؛ والعلامة الحلى، تهذيب الوصول: ١۶٣؛ وذكر الشيخ البهائى أن بيانية الفعل للمجمل من النص هى ما ذهب إليه الأكثر فيما بيانية القول إجماعية، فانظر له: زبدة الأصول: ١۴۵.

٣- الآمدى، الإحكام فى أصول الأحكام ٣: ٢۴؛ وعبد العلى الأنصارى، فواتح الرحموت ٢: ٨٢.

۴- ابن اللحام، المختصر فى أصول الفقه: ١۶٧.

۵- الفراء، العدة فى أصول الفقه ١: ٣۶٢.

ص: ۹۶

بالعمل والممارسة.

ب. قد تشرح الأفعال طبيعة التشريع من حيث كونه إلهياً ثابتاً أو حكومياً ولائياً، وقد مثل بعضهم (۱) لذلك بفكرة الخمس فى أرباح فاضل المؤونة؛ حيث فهم من عدم جبى النبى صلى الله عليه و آله الأخماس أن نصوص الوجوب الواردة فيما بعد عن الأئمة عليهم السلام إنما جاءت تشريعات ولائية لا إلهية ثابتة، وإلا لما تركها النبى صلى الله عليه و آله، وبقطع النظر عن صوابية المثال، فلا شك فى أن الأفعال تساعد على ذلك أحياناً.

ج. تقوم الأفعال- خلافاً لما نسب إلى الكرخى (۲)- أحياناً بدور التخصيص أو التقييد، كما لو صدر عام أو مطلق ثم وجدنا النبى صلى الله عليه و آله يخالفه فى موردٍ له اعتباراته وحيثياته، فهنا قد يستكشف الفقيه التخصيص وأمثاله إذا توفرت العناصر المطلوبة (۳). والذى يفهم من القاضى أبى يعلى الفراء أن حجّة من رفض تخصيص العموم بالفعل، هى الشك فى اختصاص الفعل بالنبى أو عمومه لغيره، مما تعرّضنا له سابقاً، بحيث بنوا على عدم إمكان التخصيص بالشك (۴)، وهذا إشكال مبنائى خاص بحالة الشك التى قلنا: إنها لا تعّطل الاستدلال بفعل النبى صلى الله عليه و آله إلا فى بعض الحالات، لا تمامها.

من هنا، إذا بدا أنّ هناك تعارضاً بين القول والفعل أمكن تطبيق قواعد الجمع

۱- على حب اللّه، دراسات فى فلسفة أصول الفقه: ۵۹۸.

۲- ابن عقيل الحنبلى، الواضح فى أصول الفقه ۳: ۳۹۴؛ والسيد المرتضى، الذريعة ۱: ۳۰۶؛ والآمدى، الإحكامفى أصول الأحكام ۲: ۵۳۰.

۳- انظر فى تخصيص الفعل وتقييده: القرافى، العقد المنظوم فى الخصوص والعموم: ۶۸۱- ۶۸۷؛ ونفائس الأصول ۳: ۱۶- ۲۰؛ وابن اللحام، المختصر فى أصول الفقه: ۱۵۱؛ ناسباً له إلى أئمة المذاهب، وابن عقيل الحنبلى، الواضح فى أصول الفقه ۳: ۳۹۴- ۳۹۶؛ وأبا يعلى الفراء، العدّة فى أصول الفقه ۱: ۳۰۷، ۳۶۱- ۳۶۲؛ والشيرازى، اللمع: ۱۴۴- ۱۴۶؛ والأنصارى، فواتح الرحموت ۱: ۶۰۵- ۶۰۶؛ والآمدى، الإحكام فى أصول الأحكام ۲: ۵۳۰- ۵۳۲.

۴- القاضى الفراء، العدة فى أصول الفقه ۱: ۳۶۲.

ص: ۹۷

العرفی بینهما طالما لم یکن ذلک غریباً عن الـذوق العرفی، فما ذکره بعضٌ (۱) من أنّ تعارض القول والفعل یقع دائماً لصالح القول، بحیث ینبغی تفسیر الفعـل علی أسـاس القول، انطلاقـاً من أنّ الفعـل مجملٌ فی دلالته فیقتصـر فیه علی القـدر المتیقن، فیما الأصل فی القول البیان.. کلام صـحیح، طالما لم یمکن الجمع بینهما، لا مطلقاً، إضافـةً إلی أنّ القدر المتیقن نفسه قد یکون هو المعارض للقول، فلا معنی للاستناد إلی الإجمال الموجود فی الأفعال کی نقدّم الأقوال علیها دائماً.

هـذا، وهنـاک من تحـدّث عن أنّ تـأخر الفعل عن القول یعنی نسـخه له (۲)، إلا ـ أنّ الفعـل لیس نسـخاً للأحکـام ولا من أسالیبه عرفاً وعقلائیاً، اللهم إلا فی ظروف نادرة، لجریان الاحتمالات فیه.

۱- لاحـظ: المحقق الحلی، معـارج الأـصول: ۱۷۴؛ واختـار فیه التوقف فی المسألـة؛ والشـیرازی، اللمع: ۱۴۶؛ والتبصرة: ۲۴۹؛ ومحمد حسین فضل اللّه، کتاب الجهاد: ۲۴۶، الهامش رقم: ۱.

۲- انظر علی سبیل المثال: ابن حزم، الإحکام فی أصول الأحکام ۴: ۴۶۸- ۴۶۹.

ص: ۹۸

د. قد تساعد الأفعال على تحديد الحكم الوضعی (۱)، وليس التكليفی فقط، كأن يمسّ النبی زوجته فيتوضأ أو ينام فيتوضأ، إذ ذلك فی بعض الأحيان يكشف عن الناقضيّة والبطلان، أو نجده يوجّه الذبيحة إلی القبلة حال الذبح، ولا يأكل من ذبيحةٍ غير مستقبلة، فنستفيد الشرطية، أو يجعل يساره للبيت حين الطواف فنستفيد الشرطية أيضاً، إذا التقت القرائن.

وبهذا تكون الأفعال دالةً حيناً بالمطابقة وأخری بالتضمّن وثالثة بالالتزام.

لكن الإنصاف مع ذلك كلّه أن دائرة الاستفادة المذكورة من الأفعال قليلة جداً؛ لكون الدلالة صامتة؛ فتحتاج إلی حشد شواهد غير عادية، ولهذا نُصّ علی عدم العموم فی دلالة الأفعال (۲)، فأن يمسّ النبی زوجته ثم يتوضأ ليس دليلًا علی الناقضية، لاحتمال الاستحباب فی ذلك، أو صدور ناقض آخر منه هو الذی أوجب عليه الوضوء، لهذا صرّح الأصوليون كالشاطبی بقصور دلالة الفعل، لتعدّد الاحتمالات والأسئلة حوله، وصعوبة تبيّن أجوبتها منه لوحده. نعم، انضمام الفعل إلی القول يمنحه قوّةً ودلالة (۳).

۱- انظر: الشاطبی، الموافقات ۳: ۲۹۹- ۳۰۰.

۲- الجصاص، الفصول فی الأصول ۱: ۳۶.

۳- الشاطبی، الموافقات ۳: ۲۷۸- ۲۷۹ و ۲۸۳؛ وانظر تفصيل دلالات الأفعال عنده فی المصدر نفسه: ۲۸۰-/ ۲۸۵.

ص: ۹۹

إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله

السيّد محمود المدنى

تمهيد

يتفق جميع المسلمين، والشيعة منهم على الأخصّ، على أنّ النبىّ محمّداً صلى الله عليه و آله بن عبد اللّه هو أفضل مخلوقات اللّه سبحانه وأشرفهم على الإطلاق (۱).

وقد حرص علماء الدين على مرّ العصور الإسلامية على تدوين وكتابة كلّ النواحى المتعلقة بسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله، وذلك للغور فى بحور عظمته، بحيث لم تتسنّ كتابة سيرة أىّ نبىّ آخر أو أىّ شخصيّة تأريخية بهذا الشكل المفصّل الدقيق.

واليوم، وبعد مضىّ أربعة عشر قرناً، يُمكننا الاطلاع حتى على أسماء وسائل النبىّ صلى الله عليه و آله وأدواته بشكل دقيق، إضافة إلى تاريخ ولادته وهجرته وجهاده ووفاته وعدد زوجاته، ذلك كلّه نجده ماثلًا أمامنا فى النصوص التأريخية.

إلا أنّ ذلك لا يعنى- بالضرورة- عدم جدوائيّة إجراء أىّ تحقيق أو بحث فى المجالات المذكورة، فلا زال هناك مجال واسع للتحقيق الأمر الذى يتطلب من المفكرين والعلماء الغوص والبحث عن كنوز تلك السيرة العطرة. وما موضوع إيمان

۱- راجع الكافى ۱: ۴۴۰، عن على عليه السلام: ما برء اللّه نسمة خيراً من محمّد صلى الله عليه و آله.

ص: ۱۰۰

وتوحيد آباء وأجداد النبىّ صلى الله عليه و آله إلاـ واحداً من تلك الكنوز التى يُمكن الحصول عليها من قِبل الفرق الإسلاميّة المختلفة، وقد كان، وما يزال، موضوع جدال بين تلك الفرق، وما فتئ البعض من المُغرضين يعتمد تلك البحوث والدراسات منشأ لإثارة الاختلافات والطعون.

وسنتطرق فى بحثنا هذا، بصورة موجزة لكن دقيقة، إلى الموضوع المذكور، وسنقوم أولًا بالإشارة إلى النظريات المتعددة ذات العلاقة بموضوعنا، ثم نقوم ببيان النظرية التى استقرّ عليها رأى الموالين لآل البيت عليهم السلام وأنصارهم، مع بيان الأدلّة على تلك النظرية.

النظريات

أ نظرية الشيعة:

يعتقد الموالون لآل البيت عليهم السلام بأنّ أجداد الرسول صلى الله عليه و آله جميعهم كانوا مؤمنين، مُستندين فى ذلك إلى ما استقوه من الأئمة الأطهار عليهم السلام. وقد تمكّن بعضهم من إظهار إيمانه علناً، فعُرفوا لدى المحيطين بهم بهذه الخصيصة، إلا أنّ بعضهم الآخر ظلّ يخفى إيمانه بالرّغم من رسوخ إيمانه هذا فى السرّ، إذ يرجع السبب فى ذلك إلى الفترة الحرجة التى كان يمرّ بها وتفضيلهم اتباع التقيّة فى حينها.

فقد كتب المحدّث الكبير أبو جعفر على بن الحسين بن بابويه المشهور بالصدوق رحمه الله والمتوفى فى (۳۸۱ ه)، كتب بهذا الصدد يقول:

«فى آباء النبى صلى الله عليه و آله، اعتقادنا فيهم أنهم مسلمون من آدم إلى أبيه عبداللّه» (۱).

وأمّا الشيخ المفيد رحمه الله فيوضح ما قاله الصدوق، بقوله:

«آباء النبى صلى الله عليه و آله إلى آدم عليه السلام كانوا موحّدين على الإيمان باللّه حسب ما ذكره

۱- تصحيح الإعتقادات: ۱۱۷.

ص: ۱۰۱

أبوجعفر (الصدوق)، وعليه إجماع عصابة الحق» (۱).

ويقول الشيخ المفيد فی كتاب آخر له:

«واتفقت الإمامية على أن آباء رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله من لدن آدم إلى عبداللَّه بن عبدالمطلب مؤمنون باللَّه عزوجل، موحدون له» (۲).

أما شيخ الطائفة، الطوسی رحمه الله- المتوفی سنة ۴۶۰ ه-، فكتب يقول:

«ثبت عند أصحابنا أن آباء النبی صلى الله عليه و آله إلى آدم كلهم كانوا موحدين، لم‌يكن فيهم كافر، وحجتهم فی ذلك إجماع الفرقة المحقة، وقد ثبت أن إجماعها حجة، لدخول المعصوم فيها، ولاخلاف بينهم فی هذه المسألة».

وكتب المفسّر الشيعیّ الجليل أبو علی الطبرسیّ رحمه الله- المتوفی سنة ۵۴۸ ه- كذلك- فی مَعرض تفسيره للآية الشريفة «يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ...» (۳)

وبيانه لهذا الأمر، وأنّ هذا الخطاب موجّهٌ إلى جدّ النبیّ إبراهيم عليه السلام لأمّه، وإنّما اسم والد إبراهيم عليه السلام الحقيقیّ هو (تارُخ)- كتب يقول:

«لإجماع الطائفة على أن آباء نبينا صلى الله عليه و آله إلى آدم كلّهم مسلمون موحدون، ولما روی عنه صلى الله عليه و آله ...» (۴).

أمّا العلامة محمّد باقر المجلسیّ رحمه الله- المتوفی سنة ۱۱۱۱ ه- فكتب يقول:

«اتفقت الإماميّة رضوان اللَّه عليهم على أن والدَی الرسول صلى الله عليه و آله وكل أجداده إلى آدم عليه السلام كانوا مسلمين ... ولعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية أو مصلحة دينية» (۵).

وقال فی مكان آخر: «تظافرت الروايات وإجماع الشيعة على إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله» (۶).

۱- المصدر نفسه.

۲- أوائل المقالات: ۵۱.

۳- مريم: ۴۵.

۴- مجمع البيان: ۳: ۵۱۶.

۵- بحارالأنوار ۱۵: ۱۱۷.

۶- المصدر نفسه: ۱۱۹.

ص: ۱۰۲

وقد اشتهر الشيعة بهذه العقيدة، وعُرفوا بها، حتى علّق الفخر الرازى فى تفسيره على هامش الآية الشريفة «وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ...» (۱)

بقوله:

«المسألة الرابعة: قالت الشيعة: إن أحداً من آباء الرسول وأجداده ما كان كافراً، وأنكروا أن يقال: إن ولد إبراهيم كان كافراً» (۲).

ب- نظريّة أهل السنة:

ويعتقد بعض علماء أهل السنة كذلك بإيمان أجداد النبيّ صلى الله عليه و آله وتوحيدهم، حيث ذكر العلامة الآلوسيّ البغداديّ (المتوفى سنة ۱۲۷۰ ه) على هامش تفسير الآية الشريفة «وتَقَلُّبَك فِى السَّاجِدِينَ» (۳)

ما يلى:

«أبونعيم عن ابن عباس أنّه رضى الله عنه فسّر التقلّب فيهم بالتنقل فى أصلابهم حتى ولدته أمّه على الصلاة، وجوّز على حمل التقلب على التنقل فى الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون، واستدل بالآية على إيمان أبويه عليه السلام كما ذهب إليه كثير من أجلّة أهل السنة، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما (رضى اللّه تعالى عنهما) على رغم أنف القارئ وأضربه بضد ذلك ...» (۴).

وذكر فى مكان آخر ما يلى:

«والذى عوّل عليه الجمّ الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم، وادّعوا أنه ليس فى آباء النبيّ كافر أصلًا، والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الإمام الرازى ناشئ من قلّة التتبع» (۵).

۱- الأنعام: ۸۴.

۲- تفسير الكبير ۱۳: ۳۸.

۳- الشعراء: ۲۱۹.

۴- روح المعانى ۱۹: ۱۳۷.

۵- تفسير روح البيان ۷: ۱۹۴.

ص: ۱۰۳

أمّا الكتانی، فقد ذكر فی كتاب (النظم المتناثر) ما نصّه:

«أحاديث أنّ جميع آبائه عليه السلام وأمهاته كانوا على التوحيد لم يدخلهم كفر ولا عيب ولا رجس ولا شی مما كان عليه أهل الجاهلية ... ذكر الباجور ... أنّها بالغة مبلغ التواتر» (۱).

وينبغی أخيراً، وليس آخراً، أن نشير إلى العالم الكبير والموثوق لدى أهل السنة، عنيت به جلال الدين عبد الرحمن بن أبی بكر السيوطی (المتوفی سنة ۹۱۰ ه)، الذی يعتقد بإيمان أجداد النبیّ صلى الله عليه و آله بكلّ ماللكلمة من معنى، لابل أكد ذلك فی الكثير من مؤلفاته؛ ففی كتاب (مسالك الحنفاء)، قام السيوطی بالاستدلال بالقرآن الكريم والروايات المتوافرة، ناقلًا كذلك عن الفخر الرازی الذی أكّد على هذه المسألة فی كتابه (أسرار التنزيل) (۲).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الفخر الرازی لم يؤمن بهذه المسألة فی تفسيره ولم يُشر إلى صحّتها، بل ادّعى الإجماع على أنّ بعض أجداد النبیّ صلى الله عليه و آله لم يكونوا مؤمنين موحّدين (۳).

أمّا الكتب التی ألّفها السيوطی بهذا الشأن، أیالتأكيد على إيمان آباء النبی صلى الله عليه و آله فهی:

۱- مسالك الحنفا فی نجاة آباء المصطفی.

۲. الدرج المنيفة فی الآباء الشريفة.

۳. المقالة السندسية فی النسبة المصطفوية.

۴. التعظيم والمنة فی أن أبوی رسول اللّه فی الجنة.

۵. السبيل الجليّة فی الآباء العلية.

۶. نشر العلمين فی إثبات عدم وضع حديث إحياء أبويه صلى الله عليه و آله وإسلامهما

۱- النظم المتناثر: ۲۰۲.

۲- مسالك الحنفاء: ۱۷.

۳- التفسير الكبير ۱۳: ۴۰.

ص: ۱۰۴

على يديه (۱).

وكتب المحقق المعاصر جعفر مرتضى العاملى يقول: «صرّح الماوردىّ والرازى فى كتاب أسرار التنزيل، والسنوسىّ والتلمسانى كذلك، صرّحوا بإيمان آباء النبىّ صلى الله عليه و آله الكرام» (۲).

وقد وقف بعض علماء السنة بشدّة وجزم بوجه من كفّر أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله، حيث نقل جلال الدين السيوطى عن أستاذه قائلًا: «سُئل القاضى أبو بكر بن العربى: ما تقول فيمن يدّعى أنّ أبا النبىّ صلى الله عليه و آله فى النار؟! قال: ملعون من يقول هذا، لقول اللّه سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّه ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّه فِي الدُّنْيا والْآخِرَةِ ...» (۳)، ولا أذىً أعظم من أن يُقال عن أبيه صلى الله عليه و آله: إنّه فى النار» (۴).

وقد نقل السيوطىّ عن أبى نعيم الإصفهانىّ قوله:

«أتى إلى عمر بن عبد العزيز كاتب كان أبوه كافراً، فقال عمر فى شأنه: لو كان من أبناء المهاجرين لكان أفضل. فأجاب الكاتب: لقد كان أبو النبىّ صلى الله عليه و آله كافراً أيضاً! فغضب عمر بن عبد العزيز لذلك وقال: لا ينبغى لمثل هذا أن يعمل فى ديوان الخلافة أبداً!» (۵).

ونُقِل عن شيخ الإسلام الهروىّ قوله: «قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن سعد: إنّ عاملنا فى المكان الفلانى كان أباً لك كافراً. فأجاب سليمان: وكان أبو النبىّ صلى الله عليه و آله كافراً أيضاً! فغضب عمر بن عبد العزيز لذلك بشدّة وأمر بعزله عن الديوان فى الحال!» (۶).

ورغم أنّ العجلونىّ - المفسّر والمحدّث المعروف - كان يعتقد بذلك، فقد

۱- نقلًا عن بحار الأنوار ۱۵: ۱۲۴؛ الصحيح من سيرة النبىّ صلى الله عليه و آله ۲: ۱۸۶.

۲- الصحيح من سيرة النبىّ صلى الله عليه و آله ۲: ۱۸۶.

۳- الأحزاب: ۵۷.

۴- الدرج المنيفة: ۱۷.

۵- المصدر نفسه: ۱۸.

۶- المصدر نفسه: ۱۹.

ص: ۱۰۵

كتب يقول:

«و قد ألّف كثير من العلماء فى إسلامهما شكراللّه سعيهم منهم الحافظ السخاوى، فإنه قال فى المقاصد: قد كتبت فيه جزاءً» (۱).

ثم نسبَ هذا الاعتقاد إلى عدّة أخرى، إذ قال:

«و هذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة من حفّاظ المحدثين وغيرهم، منهم ابن شاهين، والحافظ أبوبكر البغدادى، والسهيلى، والقرطبى، والمحب الطبرى، وغيرهم» (۲).

وكتب السيوطى:

«قد أخرج ابن حبيب فى تاريخه من ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة و مضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم، فلا تذكروهم إلا بخير ... وفى روض الأنف حديث: لاتسبّوا إلياس فإنه كان مؤمناً».

و فى دلائل النبوة لأبى نعيم:

«إن كعب بن لؤى أوصى ولده بالإيمان بالنبى صلى الله عليه و آله وكان ينشد إعلاناً:

ياليتنى شاهد نجواه دعوته إذا القريش تبقى الحق خذلاناً» (۳).

وفى مقابل هذه الجماعة، يعتقد الكثير من أبناء أهل السنة أنّ جميع أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله كانوا كافرين! (۴).

أدلّة النظريّة الشيعيّة:

استند علماء الشيعة- فى إثبات إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله- إلى القرآن الكريم وإلى السنة والعقل والإجماع والشواهد التأريخيّة الأخرى.

۱- كشف الخفاء: ۶۲.

۲- كشف الخفاء: ۶۵.

۳- المقامة السند سية: ۹.

۴- راجع التفسير الكبير ۱۳: ۴۰؛ تفسير المنار ۷: ۵۴۵.

ص: ۱۰۶

الأدلة القرآنيّة:

۱- قوله تعالى: «وتَقَلُّبَك فِى السَّاجِدِينَ».

وردت روايات كثيرة- من طريق علماء الشيعة وأهل السنة- أنّ المراد من هذه الآية هو انتقاله صلى الله عليه و آله فى الأصلاب والأرحام المؤمنة الموحّدة.

وفيما يلى نورد نصّين دالّين لإثنين من مفسّرى الشيعة الكبار وآخريْن لأهل السنة حول ذلك:

يقول الشيخ الطوسىّ: «فى رواية أخرى عن ابن عباس: أن معناه أنه أخرجك من نبى إلى نبى حين أخرجك نبياً ... وقال قوم من أصحابنا: إنه أراد تقلّبه من آدم إلى أبيه فى ظهور الموحدين، لم يكن فيهم من يسجد لغيراللّه» (۱).

وكتب الطبرسىّ يقول: «قيل: معناه تقلّبك فى أصلاب الموحدين من نبىّ إلى نبى حتى أخرجك نبيّاً، عن ابن عباس فى رواية عطا وعكرمة، وهو المروى عن أبى‌جعفر وأبى‌عبداللّه عليهما السلام» (۲).

ويُحتمل أن تكون الرواية التى أشار إليها الطبرسىّ هى نفس الرواية التى أوردها علىّ بن إبراهيم القمّى فى تفسيره بسند متصل إلى الإمام الباقر عليه السلام، وهذا نصّها:

«عن أبى‌جعفر عليه السلام: قال: « «الذى يريك حين تقوم و تقلّبك فى الساجدين» قال: فى أصلاب النبيّين» (۳).

أو قد يكون مُشيراً إلى رواية أبى الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام التى قال فيها:

سألنا الإمام الباقر عليه السلام حول تفسير الآية الشريفة: «وتَقَلُّبَك فِى السَّاجِدِينَ»؟

فأجاب:

«يرى تقلّبه فى أصلاب النبيين من نبى إلى نبى حتى أخرجه من صلب أبيه من

۱- التبيان ۸: ۶۸.

۲- مجمع البيان ۴: ۲۰۷.

۳- تفسير القمى؛ وتفسير البرهان ۳: ۱۹۲.

ص: ۱۰۷

نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام (۱)».

وقد نقلت روايات مشابهة لما ذكرنا عن طريق أهل السنة بأسناد مختلفة، وسوف نوردها فى الأدلة الروائية فيما بعد إن شاء اللّه.

وقال السيوطى فى (الدرّ المنثور):

«وأخرج ابن أبى العدنى فى مسنده والبزار وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد فى قوله: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال:

من نبى إلى نبى أخرجت نبياً» (۲).

«و أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وأبونعيم فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال: ما زال النبى يتقلب فى أصلاب الأنبياء حتى ولدته امّه» (۳).

وقد أورد بهذا الخصوص روايات أخرى، سنذكرها فى الأدلة الروائية فيما بعد.

أمّا أبو عبد اللّه محمّد بن أحمد الأنصارىّ القرطبىّ، فقد كتب يقول: « «وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال ابن عباس: فى أصلاب الآباء: آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً» (۴).

وقد نسب الفخر الرازى التفسير المذكور إلى الشيعة حيث قال:

«واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبى كانوا مؤمنين، وتمسّكوا فى ذلك بهذه الآية فقالوا: أو قوله تعالى: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»، يحتمل الوجوه التى ذكرتم، ويحتمل أن يكون المراد أن اللّه تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن وإذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل؛ ضرورة أنّه لامنافاة ولا رجحان ...» (۵).

۱- تفسير القمى؛ مصدر سابق، تفسير البرهان ۳: ۱۹۳، ح ۵.

۲- الدرالمنثور ۵: ۹۸.

۳- المصدر نفسه.

۴- جامع الأحكام فى القرآن ۱۳: ۱۴۴.

۵- التفسير الكبير ۲۴: ۱۷۳.

ص: ۱۰۸

وأورد الحلبیّ بالتفصیل فی (السیرة) جمیع الروایات التی دلّت علی هذا المضمون (۱).

وتجدر الإشارة هنا إلی أنّ العلماء قد ذکروا احتمالات أخری ووجوه ثانیة فی تفسیر الآیة الشریفة المذکورة، کتقلّبه صلی الله علیه و آله فی اللیل للتعرّف علی أحوال أصحابه، أو تقلبه صلی الله علیه و آله فی صلاة الجماعة بین الساجدین والمُصلّین، أو تقلّب بصره صلی الله علیه و آله وملاحظته المصلین أثناء الصلاة، وغیر ذلک. لکن مع قبول تلک الاحتمالات، لا ینفی بها المعنی الأوّل- وهو إیمان أجداد النبیّ صلی الله علیه و آله-، لأننا نعلم أنّ الآیة الشریفة فی القرآن الکریم تحتمل المعانی المتعدّدة بحیث تکون کلها صحیحة، وقد ترد روایتیْن بخصوص آیة واحدة، تذکران لها معانٍ ومقاصد مختلفة ومتنوعة، ولهذا ورد فی الأحادیث: أنّ القرآن ذو بطون (۲).

ولهذا، فلا یخرج عن السیاق کون المعنی المقصود من الآیة الکریمة إیمان أجداد النبیّ صلی الله علیه و آله، أو المعنی الوحید للآیة الذی دلّ علیه شخص الرسول الکریم صلی الله علیه و آله وأهل بیته المعصومین، أو علی الأقلّ أحد المعانی أو البطون المتعدّدة لها، والتی بیّنها النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته، وهم المفسرون الحقیقیّون للقرآن والثقل الأصغر.

۲- قوله تعالی: «رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَیْنِ لَکَ ومِنْ ذُرِّیَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ ... رَبَّنَا وابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ...» (۳).

وقوله تعالی: «رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلَوةِ ومِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ» (۴).

۱- السیرة الحلبیة ۱: ۲۹.

۲- راجع: المیزان ۳: ۷۴؛ رُوی هذا المضمون مستفیضاً من العامّة والخاصّة.

۳- البقرة: ۱۲۸.

۴- إبراهیم: ۴۰.

ص: ۱۰۹

وقوله تعالى: «وجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ ...» (۱).

فى الآيتيْن الأولتيْن، هناك دلالة صريحة وواضحة على طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه أن يجعل فى ذريّته جماعة مُسلمة، وبالنظر إلى حرف الجرّ (مِنْ) فى الآيتيْن المذكورتيْن، نلاحظ أنّ الطلب المُشار إليه لا يشمل إلا فئة مُعيّنة من ذريّة إبراهيم عليه السلام، وهو ما تمّت الإستجابة إليه فى الآية الثالثة.

وبعبارة أكثر وضوحاً إنّ الدّعاء المذكور لم يكن حصرياً على وُلد إبراهيم المباشرين، بل كان ممتدّاً إلى زمان خاتم الأنبياء، ويكفى أن نذكر تكملة الآية الأولى و هى: «رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ...» لتأكيد ذلك، وقد وردت روايات عديدةبطرق الشيعة وأهل السنّة تفيداعتبار النبىّ صلى الله عليه و آله نفسه مصداقاً لتلك الدعوة (۲).

وعلى هذا، لا غرو فى إفادة تلك الآيات هذا المعنى بشكل واضح، وهو وجود جماعة مُسلمة على الدوام فى ذريّة إبراهيم عليه السلام.

والآن لنضع هذه المقدّمة القرآنية إلى جانب الروايات العديدة، والتى جاء فيها عن النبىّ صلى الله عليه و آله:

«أنا من خير سلالة وأشرف عصبة».

فإذا قلنا: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله قد انحدر من أسرة كافرة- ولو لجيل واحد-، فإمّا أن نقرّ بعدم وجود فئة مؤمنة فى ذلك الزمان، وهو ما يتناقض مع المقدّمة القرآنية المستنتجة من الآية؛ وإمّا أن نقرّ بوجود الفئة المؤمنة لكن النبىّ صلى الله عليه و آله لم يكن فى أحسنها أو أشرفها، مُنكرين بذلك المقدمة الثانية والروايات النبويّه، أو الإقرار بأفضليّة الكافر على المؤمن وهو ما لا يتناسب والآية الشريفة «ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِك ...» (۳)

وعلى هذا، وبعد دحضنا للاحتمالات الثلاثة السالفة لا نجد مفراً من الاعتراف بكون جميع أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله مؤمنين.

۱- الزخرف: ۲۸.

۲- راجع الميزان ۱: ۲۸۶؛ روح المعانى ۲: ۳۸۶.

۳- البقرة: ۲۲۱.

ص: ۱۱۰

ولتأكيد ماقلناه نقوم بعرض بعض تلك الروايات فی بحث الأدلّة الروائيّة إن شاء اللّه، لكننا نشير هنا إلی نماذج:

الترمذی فی صحيحه بإسناده قال: «جاء العباس إلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله فكأنّه سمع شيئاً، فقام النبی صلی الله عليه و آله علی المنبر فقال: من أنا؟ فقالوا: أنت رسول اللّه عليك السلام.

قال: أنا محمد بن عبداللّه بن عبدالمطلب، إن اللّه خلق الخلق فجعلنی فی خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلنی فی خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلنی فی خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلنی فی خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً» (۱).

القندوزی عن الترمذی والطبرانی والبيهقی وأبونعيم الحافظ بإسنادهم عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله: إن اللّه خلق الخلق قسمين فجعلنی فی خيرهما قسماً ... وجعل القبائل بيوتاً فجعلنی فی خيرها بيتاً (۲).

الإمام أحمد بن حنبل، بإسناده عن أبی‌هريرة: إن النبی قال: بعث من خير قرون بنی‌آدم قرناً فقرناً حتی بعثت من‌القرن الذی كنت فيه. (۳) الأدلّة الروائيّة

روايات الشيعة:

۱- الكلينی: «بأسانيده عن أبی عبداللّه عليه السلام قال: نزل جبرئيل علی النبی فقال:

يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: إنّی قد حرمت النار علی صلب أنزلك، وبطن حملك وحجر كفلك ...» (۴).

۲- الطوسی: «بسنده إلی جابر بن‌عبداللّه الأنصاری، عن النبی صلی الله عليه و آله- حديث-:

إنّ اللّه تعالی لما أحب أن يخلقنی خلقنی نطفة بيضاء طيبة فأودعها صلب ابن آدم، فلم يزل ينقلها من صلب طاهر إلی رحم إلی نوح وإبراهيم عليهما السلام، ثم كذلك إلی

۱- صحيح الترمذی ۵: ۲۴۴، ح ۳۶۰۸؛ ينابيع المودة ۱: ۱۱.

۲- ينابيع المودة ۱: ۱۴؛ وعن الثعلبی أيضاً بتفاوت يسير عن حذيفة بن اليمان وسلمان، المصدر نفسه ۱: ۱۵.

۳- مسندالإمام أحمد بن حنبل ۲: ۳۷۳؛ السيرة الحلبية ۱: ۲۷؛ ينابيع المودة ۱: ۱۵.

۴- الكافی ۱: ۴۴۶، ح ۲۱.

ص: ۱۱۱

عبدالمطلب فلم يصيبنی من دنس الجاهلية ...» (۱).

۳- الطبرسی: «بإسناده عن علی بن أبی طالب عن النبی صلی الله علیه و آله: يا علی، إن عبدالمطلب كان لايستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولايأكل ما ذبح على النصب، ويقول: أنا علی دين أبیإبراهيم عليه السلام» (۲).

۴- قال أميرالمؤمنين علی عليه السلام فی صفات المرسلين:

«فاستودعهم فی أفضل مستودع، وأقرّهم فی خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلّما مضى سلف قام منهم بدين اللّه خلف، حتی أفضت كرامة اللَّه سبحانه وتعالى إلی محمد صلی الله علیه و آله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعزّ الأرومات مغرساً من الشجرة التی صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه، عترته خير العِتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت فی حرم وبسقت فی كرم، لها فروع طوال وتمر لا ينال» (۳).

۱- أمالی الطوسی ۴۹۹: ۱۰۹۵.

۲- مكارم الأخلاق: ۴۶۸.

۳- نهج البلاغة، الخطبة ۹۴.

ص: ۱۱۲

۵- الصدوق، بإسناده عن على عليه السلام: «واللّه ما عبد أبى ولاجدّى عبدالمطلب ولا هاشم ولاعبد مناف صنماً قط. قيل له: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم متمسّكين به» (۱).

۶- الصدوق بإسناده المتصل عن جابر بن يزيد الجعفى، عن جابر بن عبداللّه الأنصارى، قال سئل رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أين كنت وآدم فى الجنة؟ قال: كنت فى صلبه هبط إلى الأرض وأنا فى صلبه، وركبت السفينة فى صلب نوح، وقذف بى فى النار فى صلب أبى إبراهيم. لم يلتق أبوان على سفاح قط. لم يزل ينقلنى فى الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، هادياً مهدياً» (۲).

۷- الصدوق، بإسناده عن أبى‌ذر قدس سره قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: «خلقت أنا وعلى بن أبى طالب من نور واحد ... فلم يزل ينقلنا اللّه عزوجل من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة ...» (۳).

روايات السنّة:

۸- الطبرانى بإسناده عن ابن عباس: «وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ» قال: «من نبىّ إلى نبىّ حتى أخرجت نبياً» (۴).

۹- الهيثمى بإسناده عن ابن عباس: «من صُلب نبى إلى صلب نبىّ حتى صرت نبياً (۵)».

۱۰- النويرى عن الرسول: «لما خلق اللّه آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض

۱- كمال الدين: ۱۷۴ ح ۳۲.

۲- تفسير البرهان ۱۳: ۱۹۲، ح ۲.

۳- تفسير البرهان ۳: ۱۹۲، ح ۳.

۴- المعجم الكبير ۱۱: ۲۸۷؛ السيرة الحلبية ۱: ۴۷.

۵- مجمع الزوائد ۷: ۸۶.

ص: ۱۱۳

حملنى فى صلب نوح بالسفينة، وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلنى من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من أبوين لم يلتقيا على سفاح قطّ (۱)».

۱۱- السيوطى: أخرج البيهقى وابن عساكر من طرق مالك عن الزهرى عن أنس: أن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى اللّه فى خيرهما، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت إلى أبى وأمى فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً (۲)».

۱۲- أخرج ابن سعد: عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «واللّه ما افترق فرقتان منذ خلق اللّه إلّا كنت فى خيرهما».

۱۳- الرازى: ومما يدلّ أيضاً على أن أحداً من آباء محمد ما كان من المشركين قوله صلى الله عليه و آله: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وقال تعالى:

«إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» وذلك يوجب أن يقال: إن أحداً من أجداده ما كان من المشركين (۳).

۱۴- الحلبى: عن ابن عباس، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إن اللّه خلقنى حين خلقنى جعلنى من خير، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم، ثم خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً (۴)».

۱۵- الهندى: قال: «كنت وآدم فى الجنة فى صلبه وركب بى السفينة فى صلب أبى نوح، وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم، لم يلتق أبواى قط على سفاح، ولم يزل اللّه ينقلنى من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة، صفى، مهدى، لايتشعب

۱- نهاية الإرب ۱: ۳۶۲؛ الخصائص الكبرى ۱: ۳۲ بتفاوت يسير.

۲- الخصائص الكبرى ۱: ۳۸.

۳- التفسير الكبير ۱۳: ۳۹.

۴- السيرة الحلبية ۱: ۴۶.

ص: ۱۱۴

شعبتان إلّا كنت فى خيرهما» أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس (۱).

۱۶- الترمذىّ: روى بإسناده أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«إن اللّه خلق الخلق فجعلنى من خيرهم فى خير فرقهم، وخير الفريقين ثم تخيّر القبائل فجعلنى فى خير قبيلةٍ، ثم تخّير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» (۲).

۱۷- نقل القندوزى عن الطبرانى بإسناده، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«لم أزل خياراً من خيار» (۳).

۱۸- نقل ابن أبى الحديد عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكيّة» (۴).

وقال صلى الله عليه و آله كذلك: «أنا ابن الأكرمين» (۵).

أدلّة الروايات

تنقسم الروايات التى أوردناها إلى خمس مجاميع، هى:

أ الروايات التى تدلّ صراحةً على إيمان أجداد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ولا مجال للخوض فيها؛ مثل الروايتين رقم (۳) و (۵).

ب الروايات التى تدلّ على أنّه صلى الله عليه و آله قد انتقل عَبر الأصلاب والأرحام الطاهرة؛ مثل الروايات رقم (۲؛ ۶؛ ۷؛ ۱۰؛ ۱۳؛ ۱۵؛ و ۱۸). ويحمل البعض معنى (الطهارة) على أنّها طهارة من الزنا والسفاح، إلا أنّ هذا الرأى خاطئ بدليل كون الشرك هو أنجس النجاسات، وهو ما صرّح به القرآن الكريم بقوله تعالى: «إِنَّمَا

۱- كنز العمال ۶: ۱۰۶؛ الدرّ المنثور ۵: ۹۸ بتصرّف.

۲- سنن الترمذى ۵: ۵۴۴، ح ۳۶۰۷؛ ينابيع المودة، القندوزى ۱: ۱۱.

۳- ينابيع المودة ۱: ۱۵.

۴- شرح نهج البلاغة ۷: ۶۳.

۵- المصدر نفسه: ۶۴.

ص: ۱۱۵

الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ» (۱).

لـذا، فیجب حَمـل الطهارة فی تلک الروایات إمّا علی کونها تضمّ جمیع المَصادیق، أو علی المرتبـة العُلیا والمصـداق الأظهر کـذلک، وهی الطهارة من الشـرک؛ وخصوصاً تطرّق بعض الروایات بصورةٍ منفصلـة إلی عفاف آباء الرسول صـلی الله علیه و آله وأمّهاته، بعد بیان طهارتهم، وهو ما یـدلّ علی کون هاتین المسألتین منفصـلتین عن بعضـهما البعض. وقـد تمّ نقل وتوارد هذه الروایات، باسـتثناء ما ذکرنا، فی مصادر أخری لن نتطرّق إلیها لمراعاة الإیجاز.

کتب الشیخ الطوسی یقول:

«روی عن النبی صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «نقلنی اللَّه من أصلاب الطاهرین إلی أرحام الطاهرات لم یدنسنی بدنس الجاهلیة»، وهذا الخبر لا ـ خلاف فی صـحته، فبیّن النبی أنّ اللَّه نقله من أصـلاب الطاهرین فلو کان فیهم کافر لما جاز وصـفهم بأنّهم طاهرون، لأن اللَّه وصف المشرکین بأنّهم أنجاس فقال: «إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ» (۲)» (۳).

وقال الآلوسیّ فی تفسیره الکبیر، بعد نقله لتلک الروایة:

«وتخصیص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دلیل له یعوّل علیه، والعبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب» (۴).

ت الروایـات التی تـدلّ علی أنّ اللَّه سـبحانه قـد أقرّ النبیّ صـلی الله علیه و آله فی أفضـل الزّمر وأشـرف الأسـر، إضافـة إلی عـدم خلوّ الأرض من الجماعات المؤمنة، ولو کان النبیّ صـلی الله علیه و آله قد انحدر من أسرة کافرة وصُلب مُشرک، فمعنی ذلک أنّه لم یکن صلی الله علیه و آله من أفضل الأسر ولا أشرفها.

۱- التوبة: ۲۸.

۲- التوبة: ۲۸.

۳- التبیان ۴: ۱۷۵.

۴- تفسیر روح المعانی ۷: ۱۹۵.

ص: ۱۱۶

نُقِلَ عن جلال الدين السيوطىّ أنّه استدلّ بالروايات المذكورة على الشكل التالى:

«بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه».

من ناحية أخرى، هناك بعض الروايات تدلّ على وجود سبعة أنفار أو أكثر من المسلمين المؤمنين فى الأرض فى كلّ زمان، كما روى عبد الرزاق ابن منذر، بسند صحيح على شرط الشيخين، عن أمير المؤمنين عليه السلام، ما يلى:

«لم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعداً، ولولا ذلك لهلكت الأرض ومن عليها».

ونقل الإمام أحمد بن حنبل بسند صحيح على شرط الشيخين (كذلك) عن ابن عباس، قال:

«ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة، يدفع اللّه بهم عن أهل الأرض».

والآن، لو وضعنا هاتين المقدّمتين معاً وجنباً إلى جنب، سنستنتج إمّا أنّ أجداد الرسول صلى الله عليه و آله جميعاً كانوا ضمن الزمرة المسلمة، وهى النتيجة المطلوبة التى نتوخّاها، أو أن ندّعى بأنّ أجداده صلى الله عليه و آله كانوا مُشركين، وفى هذه الحالة لا بدّ لنا من أن نقول بأنّ الآخرين لم يكونوا مُشركين، وكان هؤلاء أفضل وأشرف من أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله، وهو ما لا يتفق والحديث النبوىّ الشريف، أو أن ندّعى أنّ أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله بالرغم من كونهم مُشركين، إلا أنّهم كانوا أفضل من المسلمين، وهو ما يتنافى وما صرّح به القرآن الكريم:

«ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِك ...» (۱)

إذن، نستنتج من كلّ ذلك، بأنّ أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله كانوا مؤمنين ومُفضلين على أهل زمانهم (۲).

۱- البقرة: ۲۲۱.

۲- راجع: حياة النبىّ وسيرته ۱: ۵۳.

ص: ۱۱۷

ث- وهناك روايات أخرى تقول بأنّ النبيّ صلى الله عليه و آله قد انتقل بين أصلاب الأنبياء، مثل الروايتين (۵) و (۶).

والآن، هل يُمكن القول بأنّ جميع آباء وأجداد الرسول صلى الله عليه و آله كانوا أنبياء؟

فى البدء، يجب الانتباه إلى أنّ هناك بَوناً شاسعاً بين كلمتى: (نبى) و (رسول)، فقد تُطلق كلمة (نبى) أحياناً على الراعى والحارس لشريعة الرسول؛ إذن، يُمكن القول بأنّ مراد هذه الآيةِ هو أنّ آباء وأجداد الرسول صلى الله عليه و آله كانوا يُراعون واجباتهم الدينيّة وأنّهم كانوا مُحافظين ورُعاة شريعة ودين الأنبياء والمرسلين الذين سبقوهم، وإن لم يُؤمروا فى الظاهر بتبليغ تلك الحقائق.

كتب العلامة المجلسيّ يقول:

«اتفقت الإمامية على أن والدى الرسول وكل أجداده إلى آدم كانوا مسلمين، بل كانوا من الصديقين، إما أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين، ولعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية أو لمصلحة دينية» (۱).

ويُمكن أن تُحمَل تلك الروايات على الغلبة، أى يغلب انتقال النبيّ صلى الله عليه و آله فى أصلاب الأنبياء.

ج الروايات التى تصرّح بأنّ الصلب الذى جاء منه النبيّ صلى الله عليه و آله يُحرَم على جهنم، الرواية رقم (۱) التى تدلّ بوضوح على إيمان جدّ النبيّ صلى الله عليه و آله، بل وأجداده صلى الله عليه و آله جميعاً- بعد الأخذ بنظر الاعتبار الآيات الشريفة فى القرآن التى صرّحت بدخول المشركين جهنم وتعرّضهم للعذاب، مثل الآية (۷۳) من سورة الأحزاب، والآية (۶) من سورة الفتح، والآية (۶) من سورة البيّنة.

الإجماع

۱- بحار الأنوار ۱۵: ۱۱۷.

ص: ۱۱۸

يُعتبر إيمان أجداد النبيّ صلى الله عليه و آله أمراً مُجمَعاً عليه لدى الشيعة، حيث صرّح بعض علماء الشيعة بهذا الإجماع. وقد ذكرنا فى السطور السابقة وأثناء بياننا لنظرية الشيعة، كلام المحدّث الكبير الشيخ الصدوق، والمتكلّم والفقيه الأجلّ الشيخ المفيد، وشيخ الطائفة الطوسىّ، والمفسّر الكبير الطبرسىّ، والمحدّث المعروف العلامة المجلسىّ رحمهم الله، حول مسألة الإجماع على إيمان آباء الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، ونكتفى بهذا القدر من النقل عنهم.

العقل

اتجه البعض إلى الاستدلال العقلىّ لإثبات إيمان أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله، ويعتقدون، وكما برهن عليه فى علم الكلام، بوجوب زوال الأمور التى تنفّر الناس من النبىّ ودعوته، وأنّها لا ينبغى أن تتواجد فى النبىّ، وكفر الآباء أحد تلك الأمور.

ولهذا، ومن أجل إبقاء شرف مقام النبوّة وجلب اهتمام الناس إليها وعدم تنفّرهم من النبى ومما يدعو إليه، يتوجّب على النبىّ أن يولد من أبوين لا يُعرَف عنهما الكفر. ويُمكن بالتالى وَضع هذا الكلام فى إطار سائر الاستدلالات المؤيدة لما نقول.

وهذا ما أيّده أبو الفتوح الرازى (۱).

وفى حاشية السيرة الحلبيّة عن الفخر الرازى، نقرأ ما يلى:

«إنّ أبوى النبىّ صلى الله عليه و آله كانا على الحنيفيّة، دين إبراهيم، كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه، بل إنّ آباء الأنبياء ما كانوا كفّاراً، تشريفاً لمقام النبوّة، وكذا أمّهاتهم ...» (۲).

وكتب الماوردىّ فى (أعلام النبوّة) ما يلى:

«لمّا كان الأنبياء صفوة عباده وخيرة خلقه لما كلّفهم من القيام بحقه والإرشاد لخلقه، استخلصهم من أكرم العناصر واجتباهم بمحكم الأوامر، فلم يكن لنسبهم من قدح ولمنصبهم من جرح؛ لتكون القلوب أصفى والنفوس لهم أوطأ ... إن اللّه

۱- تفسير روح الجنان ۴: ۴۶۱.

۲- السيرة الحلبية ۱: ۶۲.

ص: ۱۱۹

استخلص رسوله من أطيب المناكح، وحماه من دنس الفواحش، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزّهة» (۱).

الشواهد التأريخيّة

يتفق جميع المؤرّخين على وجود جماعات موحّدة بين العرب قبل الإسلام، حيث كانوا يُعرَفون أحياناً ب (الحنفاء)، وأحياناً أخرى ب (الموحّدين). ومن بين أولئك الذين وردت أسماؤهم فی صفحات التأريخ هم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نُفيل، والنابغة الجعدیّ، وقسّ بن ساعدة الإيادی، وآخرين غيرهم (۲).

وقد تمّ ذكر أسماء بعض أجداد النبیّ صلی الله علیه و آله ضمن هذه الجماعة من الحنفاء والموحّدين، وسيّدنا عبد المطلب هو أحد أولئك المذكورين.

ولعلّ أبلغ شاهد على إيمان هذا الرجل العظيم هو دوره وكلامه ودعاؤه فی حادثة أصحاب الفيل، وكذلك استسقاؤه برسول اللَّه صلی الله علیه و آله والاستشهاد بكلماته وأبياته الشعريّة.

روی المحدّث الكبير الكلينی عن الإمام الصادق عليه السلام، والمؤرّخ المشهور اليعقوبیّ عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ما يلی:

«إن اللَّه يبعث جدی عبدالمطلب أمةً واحدة فی هيئة الأنبياء وزیّ الملوك» (۳).

ويقول اليعقوبیّ بخصوص سيّدنا عبد المطلب:

«عبد المطلب يومئذ سيّد قريش غير مدافع ... رفض عبادة الأصنام ووحّد اللَّه عزوجل ووفی بالنذر ...» (۴).

ونقل محمّد بن يوسف الشامیّ عن أستاذه، حول إيمان أمّ النبیّ صلی الله علیه و آله ما يلی:

۱- المصدر نفسه.

۲- راجع: آيتی، تاريخ النبیّ: ۱۳- ۱۹.

۳- الكافی ۱: ۴۴۶، ح ۲۲، ۲۳ و ۲۴؛ وتاريخ اليعقوبی ۲: ۱۴.

۴- تاريخ اليعقوبی ۲: ۱۰.

ص: ۱۲۰

«ظفرت بأثر يدلّ على أنها (أمّ النبى صلى الله عليه و آله) ماتت موحّدة ... إذ ذكرت دين إبراهيم وبعث ابنها بالإسلام ونهيه عن عبادة الأصنام ... وهذا القدر كاف فى التبرى من الكفر ... فقد كانوا جماعة تحنّفوا وهو التوحيد، فلا بدع أن تكون أمّ النبى منهم ... وشاهدت فى حمله وولادته من آياته الباهرة، ورأت النور الذى يخرج منه، قالت لحليمة حين جاءت وقد شق صدره: أخشيتما عليه من الشيطان؟ كلّا واللّه ما للشيطان عليه سبيل، وإنّه لكائن لابنى هذا شأن. وقدمت به المدينة وسمعت كلام اليهود فيه وشهادتهم له بالنبوة، فهذا كلّه يؤيد أنّها تحنف فى حياتها ...».

ثم يواصل محمّد بن يوسف الشامىّ حديثه، حيث يسرد الروايات المخالفة لذلك، ويعمد إلى إضعافها (۱).

وكتب ابن أبى الحديد حول إيمان سيّدنا عبد اللّه وسيّدنا عبد المطلب وآخرين، يقول:

فأمّا الذين ليسوا بمطلة فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح، كعبد اللّه وعبدالمطلب وابنه أبى طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل؛ وقسّ بن ساعدة (۲).

وفى هذا الصدد، قال الفخر الرازى فى ذيل الآية الشريفة: «ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَک ...»: وقد أشكلوا على أنّه لم يكن فى زمان أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله مِن العرب مَن هو بمُسلم، وكذلك من غير العرب فى ذرّيّة إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام.

ثمّ يُجيب الفخر الرازى على ذلك بقوله:

«قال القفال: إنّه لم يزل الرسل من ذرية إبراهيم وقد كان فى الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة، ويقال: عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله، عامر بن الظرب، كانوا على دين الإسلام يقرّون بالإبداء والإعادة والثواب

۱- السيرة النبوية ۲: ۱۲۶.

۲- شرح ابن أبى الحديد ۲: ۱۲۶.

ص: ۱۲۱

والعقاب، يوحدون اللّه تعالى، ولا يأكلون الميتة ولايعبدون الأوثان» (۱).

أمّا فيما يتعلق بعظمة سيّدنا (هاشم)، أحد أجداد النبيّ صلى الله عليه و آله، فقد بيّن العديد من المؤرّخين شواهد تشير إلى مجده وعظمته وجوده وكرمه، وكذلك إيمانه الراسخ، وتوحيده البيّن.

ومن جملة تلك الشواهد، الخطبة التى كان يُلقيها فى بداية شهر ذى الحجة من كلّ عام.

كتب الحلبىّ فى (السيرة) ما يلى:

«كان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف، وإذا أهلّ هلال ذى الحجة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها، ويخطب ويقول فى خطبته: يا معشر قريش! إنّكم جيران بيت اللّه تعالى، أكرمكم اللّه تعالى بولايته، وخصّكم بجواره دون بنى إسماعيل، وإنّه يأتيكم زوّار اللّه يعظمون بيته فهم أضيافه ...».

ثمّ كان يكرّر من قوله: «لقد هيّأتُ من المال أحلّه وأطيبه؛ فلم يأت عن ظلم ولا قطع رَحم ولا غصب، ولو كان بمقدورى لأخذت جميع النفقات على عاتقى، ولكن قوموا أنتم الآن بعزل أحلّ أموالكم وأطيبها لهذا الأمر المهمّ ...» (۲).

وقد ورد ذكر هذه الخطبة فى مصادر أخرى مع اختلاف بسيط (۳).

ولإثبات إيمان أجداد النبىّ صلى الله عليه و آله الآخرين، طبقاً للشواهد التأريخيّة، يُمكن الاستناد إلى جملة منها، والتى تبيّن شيوع دين التوحيد فى أرض مكة قبل (عمرو بن لحىّ)، وهكذا يتّضح إيمانهم طبقاً لتلك الشواهد التأريخيّة.

يقول الحلبىّ:

«تظافرت نصوص العلماء على أنّ رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحى، فهو أوّل من غيّر دين إبراهيم وشرّع للعرب الضلالات» (۴).

۱- التفسير الكبير ۴: ۶۸.

۲- السيرة الحلبية ۱: ۷.

۳- راجع: السيرة النبويّة، السيد أحمد زينى دحلان: ۱۹؛ السيرة النبويّة، لابن هشام ۱: ۱۴۳.

۴- المصدر نفسه: ۱۰.

ص: ۱۲۲

وقد ورد هذا المضمون عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كذلك (۱).

وقد عرفت العرب قبل زمان الرسول صلى الله عليه و آله شعار (لبّيْك) على النحو التالى:

«لبيّك، اللهمّ لبيّك، لبّيك لا شريك لك لبّيك ...».

وواضح تماماً أنّ شعار كلّ الناس كان شعار التوحيد والدين الواحد وعبادة الإله الواحد ونبذ الأصنام، وأنّ رؤساء القوم وكبراءهم كانوا من التابعين لهذه الطريقة وذلك المَسلك، وأنّ أجداد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله غالباً ما كانوا من كبار القوم ورؤساء العشيرة.

وقد نُقل عن (كعب بن لؤى)، الجدّ الآخر للنبىّ صلى الله عليه و آله، والذى عاش قبل النبىّ صلى الله عليه و آله بخمسة قرون، نُقل عنه ما يلى:

۱- المصدر نفسه.

ص: ۱۲۳

فكانت القريش إلى كعب، ثم يعظم ويذكّرهم بمبعث النبى، ويعلمهم بأنّه من ولده، ويأمرهم باتباعه ويقول: سيأتى لحرمكم نبأ عظيم، وسيخرج منه نبى كريمينشد أبياتاً آخرها:

على غفلة يأتى النبى محمد فيخبر أخباراً صدوق خبيرها (۱)

وكتب السيوطى يقول:

«قد أخرج ابن حبيب فى تاريخه من ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة ومُضَر وخُزيمة وأسد على ملّة إبراهيم، فلا تذكروهم إلّابخير ... وفى الروض الأنف حديث: لا تسبّوا إلياس فإنه كان مؤمناً» (۲).

الأدلّة المخالفة

ولإثبات كفر آباء النبىّ صلى الله عليه و آله، استند البعض إلى جملة من الآيات والروايات، وسنقوم أدناه ببحث ودراسة بعض تلك الأدلة:

۱- الآيات الدالة على كفر أبى النبىّ إبراهيم عليه السلام:

«ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُولِلَّه تَبَرَّأَ مِنْهُ ...» (۳).

«وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» (۴).

«واذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ولَا يُبْصِرُ ولَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا» (۵).

وتواصل الآيات الأخيرة (من سورة مريم) حيث تشير إلى وَعد إبراهيم لأبيه (آزر) بالاستغفار له، وتشير الآية (۸۶) من سورة الشعراء إلى إنجاز إبراهيم

۱- السيرة الحلبيّة: ۱۵؛ السيرة النبويّة، زينى دحلان ۱: ۹؛ وورد مضمون ذلك فى نهاية الإرب ۱: ۳۳.

۲- المقامة السندسيّة: ۹.

۳- التوبة: ۱۱۴.

۴- الأنعام: ۷۴.

۵- مريم: ۴۱- ۴۲.

ص: ۱۲۴

لوعده تجاه أبيه، حيث تقول الآية الشريفة: «واغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ».

وقد فسّر بعض المفسرين هذا العمل دعاءاً ظاهرياً، حيث تشير تكملة الدعاء المذكور إلى كونه (أى الأب) كان ضالًا، وأنّه لن يُفلح يوم القيامة: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

وتخبرنا الآية الشريفة (۱۱۴) فى سورة التوبة أنّ إبراهيم وبعد تأكّده من إصرار أبيه على الكفر والضلال، تبرّأ منه قائلًا: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوكَانُوا أُولِى قُرْبى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ* ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُولِلَّه تَبَرَّأَ مِنْهُ».

وتتضمّن تلك الآيات شواهد وقرائن تدلّ على حدوث كلّ تلك الأمور فى بداية حياة النبىّ إبراهيم عليه السلام، حيث تشير التكملة فى الآية الشريفة قائلةً: «رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وأَلْحِقْنى بِالصَّالِحِينَ» (۱).

و يُخبرنا القرآن الكريم أنّ إبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه و تبرّأمنهم، و هبهاللّه سبحانه الذريّة «فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّه وَهَبْنَالَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ ...» (۲).

إلا أنّ النبىّ إبراهيم عليه السلام وفى أواخر سنىّ عمره الشريف، وبعد بنائه للكعبة الشريفة، دعا لأبيه إذ قال: «الْحَمْدُ للّهالذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ»؛ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِى ولِوَالِدَىَّ ...» (۳).

وبالاستناد إلى ما قيل، يتضح لنا بجلاء أنّ الشخص الأوّل الذى أطلق عليه لقب (الأب) يختلف عن الشخص الثانى الذى سُمى ب (الوالد)، وذلك لأنّ القرآن يُخبرنا بصريح العبارة بأنّه ليس من صفات الأنبياء أن يدعو للكفار، وأنّ الاستغفار الذى قام به إبراهيم عليه السلام عندما كان فى مُقتبل العُمر لم يكن إلا عن موعدة وعدها

۱- الشعراء: ۸۳.

۲- مريم: ۴۹.

۳- ابراهيم: ۴۱.

ص: ۱۲۵

إبراهيم عليه السلام لأبيه، وهو دعاء صوريّ كما قلنا (۱).

ويبيّن هذا الاستدلال القرآنيّ بوضوح على أنّ المقصود بكلمتى: (أبى) و (أبتِ) ليس أبا إبراهيم. إضافة إلى هذا، هناك العديد من الشواهد والقرائن التأريخيّة التى أشار إليها المفسّرون، نذكر منها على سبيل المثال:

يقول شيخ الطائفة الطوسيّ:

«قال الزجاج: لاخلاف بين أهل النسب أن اسم أبى إبراهيم تارخ، والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر ... والذى قاله الزجاج يقوى ما قاله أصحابنا أنّ آزر كان جدّه لأمه أو كان عمّه؛ لأن أباه كان مؤمناً ...».

ثم يعرض بعد ذلك بعض الأدلة على إيمان والد إبراهيم، مشيراً إلى وجود أدلَّة عند الشيعة لا يذكرها من لا يخرج عن تفسير الآيات (۲).

أمّا المفسر الكبير الطبرسيّ فيذكر شبيه كلام الطوسى (۳).

وذكر العلامة الآلوسيّ فى تفسيره:

«والذى عوّل عليه الجمّ الغفير من أهل السنّة أنّ آزر اسمٌ لعمّ إبراهيم، وجاء إطلاق الأب على العم فى قوله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِکَ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ ...» و عن محمد بن كعب القراظى أنّه قال: الخال والد، وتلا هذه الآية، وفى الخبر: ردّوا علىّ أبى العباس».

ثم قام ببيان الاستدلال القرآنى السابق بالتفصيل، وفى مَعرض توضيحه للآية الشريفة: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوَالِدَيَّ ...» قال:

«فإنه يستنبط من ذلك أن المذكور فى القرآن بالكفر هو عمّه، حيث صرّح فى الأثر الأول أن الذى هلك قبل الهجرة هو عمّه، ودلّ الأثر الثانى على أن الاستغفار

۱- مجمع البيان ۲: ۳۲۲.

۲- التبيان ۴: ۱۷۵.

۳- مجمع البيان ۲: ۳۲۲.

ص: ۱۲۶

لوالـدیه کان بعد هلاک أبیه بمدة مدیدة، فلوکان الهالک هو أبوه الحقیقی لم یصح منه هذا الاستغفار أصلًا فالذی یظهر أن الهالک هو العم الکافر المعبّر عنه بالأب مجازاً، و ذلک لم یستغفر له بعدالموت، وأن المستغفر له إنما هو الأب الحقیقی ولیس بآزر، وکان فی التعبیر بالوالد فی آیة الاستغفار وبالأب فی غیرها إشارة إلی المغایر؛

و من الناس من احتج علی أن آزر ما کان والد إبراهیم بأن هذه دالة علی أنّه شافهه بالغلظة والجفاء ومشافهة الأب بالجفا لایجوز» (۱).

وقد بیّن الفخر الرازی کذلک هذا الاستدلال فی (التفسیر الکبیر)، الجزء (۲۴)، صفحة (۱۷۴)، والجزء (۱۳)، صفحة (۳۸).

أمّا السیوطیّ، فقد أورد فی تفسیره ما یلی:

«أخرج ابن أبی شیبة وعبد بن حمید وأبی جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم عن السّدی قال: اسم أبیه تارخ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جریج فی قوله: «وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ»، قال: لیس آزر أباه ... وأخرج ابن أبی حاتم وأبو الشیخ عن ابن عباس ... یقول: إنّ أبا إبراهیم لم یکن اسمه آزر، وإنّما اسمه تارخ» (۲).

واستدلّ الحلبیّ أیضاً فی سیرته بالآیة الشریفة: «وتَقَلُّبَک فِی السَّاجِدِینَ» علی إیمان آباء النبیّ صلی الله علیه و آله، حیث قال:

«لا یقال: یعارض جعل الساجدین عبارة عن المؤمنین أنّ من جملة آبائه آزر والد إبراهیم وکان کافراً لأنا نقول: أجمع أهل الکتابین علی أن آزر کان عمّه، والعرب تسمّی العم أباً، کما تسمی الخالة أمّاً، فقد حکی اللَّه عن یعقوب أنّه قال:

آبائی إبراهیم وإسماعیل، ومعلوم أنّ إسماعیل إنما هو عمّه».

ثمّ بیّن الحلبیّ أنّ إبراهیم کان قد استغفر لأبیه فی أواخر عمره، ممّا یدلّ علی أنّ (آزر) لم یکن أباً لإبراهیم (۳).

۱- تفسیر روح البیان ۷: ۱۹۵.

۲- الدر المنثور ۳: ۲۳.

۳- السیرة الحلبیة ۱: ۲۹.

ص: ۱۲۷

الروايات المخالفة

نقل مُسلم فی صحیحه حادثةً، حیث قال: «سأل أحد أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله عن وَضع أبیه الکافر، فأجاب النبیّ صلی الله علیه و آله: «إنّ أبی وأباک فی النار» (۱).

وذُکر حمّاد بن سلمة ضمن سلسلة سند تلک الروایات، وهو شخص قال عنه علماء الرّجال الکثیر فیما یتعلّق بحفظه ودقته فی نقل الروایة، وقالت عنه جماعة:

«وقع فی أحادیثه مناکیر دسّها ربیعة فی کتبه» (۲).

أمّا المشکلة الأخری التی توجد فی هذه الروایة، فهی أنّه، وبموجب هذا الحدیث، یُعتبر کلّ الذین عاشوا فی ما یُسمی ب (الفترة) من أصحاب النار، فی حین یقول القرآن الکریم بصراحة: «... وَمَا کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا» (۳).

وما أجمل ما أشار إلیه السیوطی فی أبیاته الشعریة التی سنوردها فی نهایة المطاف، حیث بیّن زیف ما ادّعی بکفر آباء النبیّ صلی الله علیه و آله وأنّ الجمیع، سواء منهم الشافعیّة أو الأشاعرة، یؤمنون بأنّ کلّ من عاصر الفترة لم یکن اللَّه لیعذبه، بل هم مغفور لهم، لأنهم لم یتمکنوا من معرفة الوحی أو الدین الحقّ ولم تصلهم أخبار الأنبیاء، ولیس ذلک لإصرارهم علی الکفر علی الإطلاق (۴).

وقد بیّن العجلونیّ کذلک هذا الاستدلال فی (کشف الخفاء)، قائلًا:

لقد ذهب المتکلّمون والأشاعرة وعلماء الأصول کافّة إلی المغفرة لمن عاش قبل البعثة ومات، إضافةً إلی الأدلة الکثیرة الدالّة علی إیمان أجداد النبی صلی الله علیه و آله،

۱- صحیح مسلم؛ صفة الصفوة ۱: ۱۷۲؛ مجمع الزوائد ۱: ۳۱۵.

۲- المصادر نفسها.

۳- الإسراء: ۱۵.

۴- کشف الخفاء ۱: ۶۱.

ص: ١٢٨

وكذلك الروايات الدالّة على أنّ اللّه يعيد أب النبى صلى الله عليه و آله وأمّه إلى الدنيا كى يؤمنوا. (١) وهناك رواية أخرى تشبه تلك، حيث ذكر بعضهم أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله قال: «أمّى وأمّك فى النار» (٢)، ولا حاجة بنا للجواب على هذه الرواية نظراً إلى أننا استوفينا الجواب على الرواية الأولى، فيكون الجواب على هذه الرواية واضحاً وجليّاً.

وذكر الثعالبىّ فى مَعرض بيانه وتفسيره للآية الشريفة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه ...» (٣)

ما شرحه: أنّ (عدىّ بن حاتم) سأل رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن وَضع أبيه (حاتم الطائى) خصوصاً أنّه كان من أهل الكرم والجود، وأنّه كان يُعيل الفقراء والمساكين والمحرومين. فأجابه النبىّ صلى الله عليه و آله: إنّ أباك وأبى وأبى إبراهيم الخليل فى النار! فنزلت الآية الشريفة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه ...».

وفى هذه الرواية كذلك إشكالات كثيرة فى مُختلف الوجوه، وآثار الوَضع والدسّ والتحريف بائنة فيها بشكل لا يقبل الجدل.

أمّا وجوه الإشكال فيها فأولًا، وكما أورد محقق الكتاب فى حاشيته، أنّ هذه الآية لا تنطبق بأىّ شكل من الأشكال على والد النبىّ صلى الله عليه و آله أو (حاتم الطائى)، لأنهما لم يكونا فى عصر الإسلام حتى يُقال عنهما: كفرا وصدّا عن سبيل اللّه، ولم يورد أىّ واحد إليهما هذا الإتهام. وواضح تماماً أنّ الآيات إنما تشير إلى مَن كان يُعاصر الإسلام وزمن البعثة النبويّة الشريفة وكانوا فى صفّ الُمحاربين للّهولرسوله.

أمّا الأمر الثانى، فقد أثبتنا فيما سبق، وبالأدلة الدامغة، أنّ والد إبراهيم الخليل عليه السلام لا يدخل النار، وأنّ (آزر) كان جدّ إبراهيم لأمّه أو عمّه، ولهذا، فلو ثبت أصل الروايه، لجاز إطلاق لفظة (الأب) على العمّ، وهو أبو لهب.

وتوجد هناك روايات أخرى بهذا الصدد تمّ ذكرها فى الكتب بالتفصيل، وجرى عليها البحث والنقاش، ولم نوردها هنا خوفاً من الإطناب.

لكن مما يُثير العجب، أنّ الفرق والأديان جميعاً تسعى إلى بيان فضائل ومناقب الأنبياء وكذلك الأشخاص الذين تعتبرهم أولياء للّهسبحانه، وتبالغ فى تحسين صورهم، وحتى المحدثين المسلمين يسعون فى كتب الفضائل وخاصة ما

١- المصدر نفسه.

٢- مجمع الزوائد ١: ٣١٣.

٣- الجواهر الحسان ٣: ١٩٤.

ص: ۱۲۹

يتعلق منها بالصحابة، بالذود عن مناقبهم واستنكار واستهجان الطعن بهم، لكننا مع ذلك نجد طائفةً أخرى تنسب العيب الأكبر- وهو الشرك والكفر- إلى أجداد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، رغم وجود الأدلة والشواهد التى تفنّد ذلك، وتجاهد فى سبيل إثبات ذلك على أولئك الأطهار. بل وإنّ البعض يكتفى بالنقل عن بعض المؤرّخين لإثبات إيمان الحنفاء، من أمثال ورقة بن نوفل ونظرائه.
والحق أنّه ليس هناك ما يُمكن قوله بشأن مخالفة كلّ تلك الأدلة والشواهد، والإصرار على مُعاندة الحقيقة فيما يتعلّق بإيمان آباء الرسول صلى الله عليه و آله. وأىّ دليل أو برهان يمتلكه من لا يُقرّ لأولئك بالإيمان؟

وأخيراً، نورد الأبيات الشعريّة الرائعة التى أنشدها العالم السنىّ الكبير (جلال الدين السيوطى)، والتى يؤكّد من خلالها على إيمان أجداد الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، مُشيراً كذلك إلى الأدلة المتعلّقة بتلك المسألة، ومُجيباً على بعض التّهم والافتراءات حول ذلك.

وأمّا الأبيات الشعريّة فهى:

إن الذى بعث النبى محمداً أنجى به الثقلين مما يجحف

و لا وأبيه حكم شائع أبداه أهل العلم فيما صنّفوا

فجماعة أجروهما مجرى الذى لم يأته خير الدعاء المسعب

و الحكم فيمن لم تجئه دعوة أن لا عذاب عليه حكم مؤلف

فبذاك قال الشافعية كلهم و الشعرية ما بهم متوقف

و بسورة الإسراء فيها حجة و بنحو ذا فى الذكر آى تعرف

و لبعض أهل الفقه فى تعليله معنى أرقّ من النسيم وألطف

إذ هم على الفقر الذى ولدوا ولم يظهر عنادٌ منهم وتخلّف

و نحا الإمام الفخر رازى الورى معنى به للسامعين تشنف

قال الأولى ولدوا النبى المصطفى كل على التوحيد إذ يتحفف

هو من آدم إلى أبيه عبداللَّه ما فيهم أخو شرك ولا مستنكف

فالمشركون كما بسورة توبة نجس وكلّهم بطهرٍ يوصف

ص: ۱۳۰

و بسورهٔ الشعراء فيه تقلّب فى الساجدين فكلّهم متحنف

هذا كلام الشيخ فخرالدين فى أسراره هطلت عليه الأزرف

فجزاه رب العرش خير جزائه و حباه جنات النعيم تزخرف

فلقد تديّن فى زمان الجاهلية فرقهٔ دين الهدى وتفوا (۱)

و جماعهٔ ذهبوا إلى إحيائه أبويه حتى آمنا لا خوفوا

هذا مسالك لو تفرد بعضها لكفى فكيف لها إذا تتآلف

و بحب من لا يرتضيها صمهٔ أدباً ولكن أين من هو منصف

۱- نقلًا عن كتاب كشف الخفاء، العجلونى.

ص: ۱۳۱

سیرة المصطفی صلی الله علیه و آله

حسن الحاج

«اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» (۱).

لقد بعث اللَّه سبحانه وتعالی محمداً صلی الله علیه و آله رحمةً للناس جمیعًا «وَما أَرْسَلْناكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ». (۲) «وَما أَرْسَلْناكَ إِلّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً...» «۳»(۳).

وختم اللَّه به الأنبیاء والرسل

«ما كانَ مُحَمَّدٌ أَباأَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَاللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ ...» (۴).

وقضی ببقاء واستمرار رسالته إلی نهایة الدنیا وحلول یوم القیامة. كما أن الرسول محمداً صلی الله علیه و آله هو اللبنة الأخیرة فی مشروع البناء العظیم الذی یمثل الأنبیاء علیهم الصلاة والسلام لبناته. وقد أخبر صلی الله علیه و آله بأنه اللبنة الأخیرة وأنه الذی ختمت

۱- الأنعام: ۱۲۴.

۲- الأنبیاء: ۱۰۷.

۳- سبأ: ۲۸.

۴- الأحزاب: ۴۰.

ص: ١٣٢

به الأنبياء والرسل، حيث قال: «مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأجمله إلا موقع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (١).

إن اختيار الرسول محمد صلى الله عليه و آله للرسالة كان بمشيئة اللّه تعالى الذى خلق الناس جميعًا، وهو العليم بذواتهم وخصائص كل منهم فوقع اختياره على عبده ذى الخصائص والملاكات المناسبة لرسالته تعالى دون غيره من العالمين، يقول تعالى فى كتابه المجيد:

«وَرَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَیَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَهُ» (٢).

يقول الآلوسى فى تفسير هذه الآية: إنّ منصب الرسالة ليس مما ينال مما يزعمون من كثرة المال والولد وتعاضد الأسباب، وإنما ينال بفضائل نفسانية ونفس قدسية أفاضها اللّه تعالى بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده.

ونص بعضهم على أنه تابع للاستعداد الذاتى وهو لا يستلزم الإيجاب الذى يقول به الفلاسفة؛ لأنه سبحانه إن شاء أعطى وإن شاء أمسك، وإن استعدّ المحل (٣).

لهذا فقد اختار اللّه لدينه الذى ختم به كل رسالاته مكاناً ملائماً، واختار لحمله خير أمة أخرجت للناس، كما اختار أعظم رجالها رسولًا ونبياً صلى الله عليه و آله بملاكات وخصائص جعلته خير من يتلقى الوحى ويبلغه للناس ويتحمل فى سبيل ذلك كل اضطهاد وعنت، كما هى سنّة اللّه مع كل رسالاته ورسله..

ولولا أن النبوة اصطفاء وإحسان لقلنا إن الرسل بصفاتهم يستحقونها كسباً، لكنّ جمهور المسلمين أجمعوا على أن الرسالة لا تكتسب فلا بد أن يخلق اللّه لها استعدادًا خاصًا عند صاحبها بحيث يجعله أهلًا لحملها وإبلاغها، وبعد ذلك يصطفيه للرسالة.. (٤)

١- صحيح البخارى، المناقب، باب خاتم النبيين ٢: ٢٧٠.

٢- القصص: ۶٨.

٣- الآلوسى، روح المعانى ٨: ١٢٢.

۴- الدكتور أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها: ١١۴.

ص: ۱۳۳

لقد خلقه اللَّه وهیأه وکفل اللَّه له التربیة السلیمة حتی یکون أهلًا لتحمّل أمانة الرسالة وتبلیغها، وحتی یصطفیه اللَّه تعالی مرّ بمرحلتین: مرحلة نشأة وتهیئة، ومرحلة تکلیف وإبلاغ.

وأنا، وقبل أن أتحدث هنا فی هذه المقالة عن عوامل استعداد الرسول صلی الله علیه و آله لحمل الرسالة الخاتمة وإبلاغها إلی الناس کافة، أقول: وإن کان لهذه العوامل أثر فی بناء الرسول صلی الله علیه و آله روحیاً ونفسیاً وجسمیاً وبناء ملاکاته- کما یذکرون- إلا أن الإعداد الربانی المختصّ به دون العالمین والصناعة السماویة الخاصة له أیضاً دون العالمین والعنایة الفائقة به من قبل اللَّه تعالی دون العالمین، یبقی کلّ هذا هو الأساس فی بنائه وهو العامل الرئیس فی إعداده؛ لأنه النبی المعد والرسول المهیؤ لحمل الأمانة العظمی والرسالة الکبری التی تحتاج إلی إناء خاص وبوتقة تصهرها فیه ویصهرها هو الآخر، فیکون النموذج التطبیقی الأول لها والمبلغ الأول لها والمسؤول عنها مسؤولیة کاملة أمام اللَّه وأمام الناس جمیعاً، ولا یحصل هذا إلا مع توفر الصفات والمقومات التی تضفیها السماء علیه...

ص: ۱۳۴

ومع هذا، فإن هذه المقالة تتعرض لتلک العوامل المؤثرة فی بنائه صلی الله علیه و آله حتی نکون علی علم بما یتوفر علیه صلی الله علیه و آله من أصل ونسب کریم ونشأة حسنة وخصائص طیبة، صاغت مرحلة نشأته وبنائه النفسی والجسمی أیضاً:

نسبه وأصله

کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من بنی هاشم، وهم سادات قریش وأشرافها، وقد عرفوا أنهم سلالة طیبة وعائلة کریمة.. امتازوا علی غیرهم من قبائل العرب بخصائص فریدة وشمائل نادرة ترکت بصماتها علیه صلی الله علیه و آله.

ولعلماء الوراثة کلام یدور حول تأثر کل شخص بما یحمله نسبه من خصائص جسمیة وعقلیة وفکریة وعقیدیة...

«ولا تکون الوراثة عاملًا هامًا فی نقل الصفات الحسیة فحسب، وإنما کذلک عن طریقها تنتقل الصفات الأدبیة کالأمزجة والمیول والغرائز، والصفات العقلیة کالذکاء والبلادة وحسن تقدیر الأمور أو سوء أو شدة الانتباه أو ضعفه إلی غیر ذلک من صفات یکون لها الأثر الأقوی فی تکوین أخلاق المرء وتکییفها وطبعها بطابع معیّن خیراً کان ذلک الطابع أو شراً حسناً أو قبیحاً».

روت أم المؤمنین عائشة أن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله دخل علیها مسروراً تبرق أساریر وجهه فقال: «ألم تسمعی ما قال المدلجی لزید وأسامة ورأی أقدامهما فقال: إنّ بعض هذه الأقدام من بعض» (۱).

وهو الذی تدل علیه الآیة: «وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیّاراً* إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَلا یَلِدُوا إِلَّا فاجِراً کَفَّاراً» (۲).

۱- الدکتور محمد البیطار، فی العقیدة والأخلاق وأثرهما فی حیاة الفرد والمجتمع: ۲۴۰؛ وصحیح البخاری، کتاب المناقب، باب صفة النبی ۲: ۲۷۲.

۲- نوح: ۲۶- ۲۷.

ص: ۱۳۵

وابن کثیر فی تفسیر هـذه الآیـة یقول: أیفاجراً فی الأعمال کافر القلب، وذلک لخبرته بهم ومکثه بین أظهرهم ألف سـنة إلّاخمسین عاماً..

«فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ» (۱).

و قوله صلی الله علیه و آله: «ما من مولود إلا یولـد علی الفطرة فأبواه یهودانه أو ینصـرانه أو یمجسانه، کما تنتج البهیمة بهیمة جمعاء، هل تحسون فیها من جدعاء».

علی الفطرة: علی معرفة اللّه فلیس هناک واحد إلا ویقرّ بأن له صانعاً وإن سماه بغیر اسمه أو عبد غیره.

جدعاء: مقطوعة الأطراف (۲).

وبهـذا یثبت أنّ الولـد یتـأثر بأبویه من ناحیـة الجسم والبنیـة، والعقل والـذکاء، والفکر والعقیـدة، قلیلًا أو کثیراً، سـلباً أو إیجاباً، وذلک بإرادة اللّه وقدرته.

إذا عرف هذا ننظر إلی نسب رسول اللّه صلی الله علیه و آله ومدی تأثره به.

لقد هیأت العنایة الربانیة سلسلة ممتازة من الآباء والأجداد للنبی صلی الله علیه و آله لیرث منها أدباً عظیماً وشمائل جمیلة...

وقد وردت فی هذا المضمار نصوص کثیرة تدل علی أنّ نسب النبی صلی الله علیه و آله هو أفضل النسب.

ففی تفسیر الآیة: «وَتَقَلُّبَکَ فِی السّاجِدِینَ» (۳).

عن مجمع البیـان:... وقیـل: معنـاه وتقلبـک فی أصـلاب الموحـدین من نبی إلی نبی حتی أخرجـک نبیاً عن ابن عباس فی روایـة عطا وعکرمة، وهو المروی عن أبی جعفر وأبی عبد اللّه صلوات اللّه علیهما، قالا: فی أصلاب النبیین نبی بعد نبی حتی

۱- الروم: ۳۰.

۲- صـحیح مسـلم، کتاب القدر، باب: کل مولود علی الفطرة ۴: ۲۰۴۷؛ و غریب الحـدیث لابن الجوزی ۲: ۱۹۹؛ و النهایة فی غریب الحدیث لابن الأثیر ۱: ۲۴۷.

۳- الشعراء: ۲۱۹.

ص: ۱۳۶

أخرجه من صلب أبیه من نکاح غیر سفاح من لدن آدم..

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله:

«إن اللّه اصطفی کنانة من ولد إسماعیل، واصطفی قریشاً من کنانة، واصطفی من قریش بنی هاشم، واصطفانی من بنی هاشم».

وقد أشار النووی إلی أنّ بنی هاشم أفضل العرب لا یدانیهم فی الأفضلیة إلّا بنو المطلب، مستدلًا بهذا الحدیث (۱).

ویقول المبارک فوری عند شرحه لهذا الحدیث: قوله: «إن اللّه اصطفی» أی اختار. یقال: استصفاه واصطفاه، إذا اختاره وأخذ صفوته، والصفوة من کل شیء خالصه وخیاره (۲).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله:

«إنّ اللّه خلق الخلق فجعلنی من خیر فرقهم وخیر الفریقین، ثم خیر القبائل فجعلنی من خیر القبیلة، ثم خص البیوت فجعلنی من خیر بیوتهم، فأنا خیرهم نفساً وخیرهم بیتاً» (۳).

أی: أصلًا، إذ جئت من طیّب إلی طیب إلی صلب عبد اللّه بنکاح لا سفاح (۴).

وشهادة أعدائه دلیل علی مکانته صلی الله علیه و آله عند قومه، فقد ورد فی قصة أبی سفیان وهو مشرک ومن ألد أعدائه آنذاک مع هرقل ملک الروم عندما وجّه هذا الأخیر لأبی سفیان عدداً من الأسئلة حول الرسول صلی الله علیه و آله ونسبه وکان من بینها:

کیف نسبه فیکم؟

قال أبو سفیان: هو فینا ذو نسب.

ثم قال هرقل فی آخر القصة: سألتک عن نسبه فذکرت أنّه فیکم ذو نسب

۱- صحیح مسلم، کتاب الفضائل، باب فضل نسب النبی صلی الله علیه و آله ۴: ۱۷۸۲؛ والترمذی فی سننه، أبواب المناقب عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، باب ما جاء فی فضل النبی صلی الله علیه و آله ۵: ۲۴۵؛ وشرح النووی علی صحیح مسلم ۱۵: ۳۶.

۲- تحفة الأحوذی شرح جامع الترمذی ۱۰: ۷۴.

۳- أخرجه الترمذی فی سننه فی أبواب المناقب، باب ما جاء فی فضل النبی صلی الله علیه و آله، انظر ۵: ۲۴۴.

۴- انظر: تحفة الأحوذی ۱۰: ۷۶.

ص: ۱۳۷

فكذلك تبعث الرسل فى أنساب قومها.. (۱) يقول النووى: أى‌فى أفضل أنسابهم (۲)

ومما يـدلّ على ذلك أيضاً ما جاء على لسان مفوّض مشـركى قريش عتبـة بن أبى ربيعة مع رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، حيث قال عند افتتاح كلامه مع الرسول: يا ابن أخى إنّك منّا حيث قد علمت من السـطة- أى‌عن أوساطهم حسباً ونسباً، أو الشرف- فى العشيرة، والمكان فى النسب...

وتشـهد هاتان القصـتان بما للرسول صـلى الله عليه و آله من منزلـة عظيمـة فى النسب عنـد قومه لإقرار أعـدائه وأعداء رسالته حيث لم يستطيعوا أن يخفوا هذه الحقيقة مع أنهم كانوا يتهمونه بتهم باطلة، مرة بالسحر، ومرة بالجنون، ومرة بالشعر والكهانة. ومع هذا لم ينقل إلينا عن أحـدهم تهمـة واحدة يقدحون بها الرسول صـلى الله عليه و آله من جهة النسب، كما أن النصوص الأخرى التى أوردناها تدل على أن العرب أفضـل النـاس من ناحيـة النسب، وأنّ الرسول صـلى الله عليه و آله من أفضـلها نسـباً. فقـد كان صـلى الله عليه و آله من سلالـة ذريـة طيبـة وعائلـة كريمـة وأسـرة نبيلة فى الصـفات والخصائص صالحة فى أخلاقها وسيرتها، محمودة فى خصالها، رفيعة فى شمائلهـا، متميّزة فى رجالهـا وسيادتها، فبنو هـاشم سادة قريش، بل سادة الـدنيا، فهم كما يقول الجاحظ: «ملح الأرض، وزينـة الـدنيا، وحلى العـالم، والسـنام الأضـخم، والكاهـل الأعـظم، ولبـاب كـل جوهر كريم، وسرّ كـل عنصـر شـريف، والطينـة البيضـاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، والمعدن الفهم، وينبوع العلم...» (۳)

حقاً هذه سنّة اللّه فى اختيار رسله جميعاً كما جاء فى قول هرقل السابق.

يقول الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: الظاهر أن إخبار هرقل

۱- صـحيح البخارى، باب كيف كان بـدء الوحى إلى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ۱: ۸؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب كتاب النبى صلى الله عليه و آله إلى هرقل ليدعوه إلى الإسلام ۳: ۱۳۹۴؛ واللفظ للبخارى.

۲- شرح النووى على صحيح مسلم ۱۲: ۱۰۵.

۳- انظر: زهرة الآداب: ۵۹.

ص: ۱۳۸

بذلک بالجزم کان علی العلم المقرّر فی الکتب السالفة.

والحکمة فی ذلک- کما قال النووی- أنه أبعد من انتحاله الباطل وأقرب إلی انقیاد الناس له؛ لأن الناس یأنفون من الانقیاد إلی رجل وضیع من جهة، وکذلک الوضیع لا تسوّل نفسه له قیادة الناس من جهة أخری (۱).

ولهذا کان لنسب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ذی الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة تأثیر کبیر ورائع علی شخصیته تارة وعلی قومه أخری..

وقول عمّه أبی طالب لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله حینما أراد إظهار دعوته وکان هذا فی السنة الرابعة من البعثة النبویة المبارکة یلقی الضوء الساطع علی منزلة نسبه:

یا ابن أخی! إنک الرفیع کعباً، والمنیع حزباً، والأعلی أباً، واللَّه لا یسلقک لسان، إلا سلقته ألسنٌ حداد، واحتدمته سیوف حداد، واللَّه لتذلنّ لک العرب، ولقد کان أبی یقرأ الکتب جمیعاً، ولقد قال: إن من صلبی لنبیاً، لوددت أنّی أدرکت ذلک فآمنت به، فمن أدرکه من ولدی فلیؤمن به.

کما أن لرضاعته فی بنی سعد آثاره علیه صلی الله علیه و آله، فبنو سعد قبیلة معروفة عند العرب فی طیبتها وسموّ خلقها، وقد أسلم أبوه من الرضاعة علی یدی رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله، وهو الحارث بن عبد العزی.. حینما قدم إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بمکة حین أنزل علیه القرآن، فقالت له قریش: ألا تسمع یا حارث ما یقول ابنک هذا؟

فقال: وما یقول؟

قالوا: یزعم أن اللَّه یبعث الناس بعد الموت، وأن للَّه‌دارین یعذب فیهما من عصاه ویکرم من أطاعه، فقد شتت أمرنا وفرّق جمعنا.

فأتاه فقال: أی‌بنی، مالک ولقومک یشکونک، ویزعمون أنّک تقول: إن الناس

۱- انظر فی هذا کله: تفسیر القرآن العظیم لابن کثیر ۴: ۹۱؛ وحسّن الألبانی هذه القصة فی تعلیقه علی فقه السیرة للغزالی. انظر هامش الصفحة: ۱۱۳؛ وفتح الباری شرح صحیح البخاری ۱: ۳۶؛ وشرح النووی علی صحیح مسلم ۱۲: ۳۵.

ص: ۱۳۹

يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنة ونار؟

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أنا أزعم ذلك، ولو قد كان ذلك اليوم ياأبت لقد أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم.

فأسلم الحارث بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابنى بيدى فعرفنى ما قال لم يرسلنى إن شاء اللَّه حتى يدخلنى الجنة.

«هذا النسب له أثره فى رسول اللَّه وكان له أثر فيمن يبلّغهم رسول اللَّه شريعةاللَّه، أمّا أثره فى رسول اللَّه فقد شبّ عليه الصلاة والسلام مرفوع الرأس رغم يتمه لا يعرف الذل ولا الخنوع، جريئاً فى إعلان رأيه، تملأ الثقة نفسه، أما أثره فيمن دعاهم رسول اللَّه إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام فإن أكبر شخصية فى العرب لا تجد غضاضة من الانضواء تحت راية الإسلام، وقبول محمد صلى الله عليه و آله رسولًا وحاكماً؛ لأنهم يعترفون بأن محمداً صلى الله عليه و آله من أعرق بيوت قريش نسباً» (۱).

إن هذا لأمر واضح وإن من يعارضه من قومه لم يكن ذلك لأصله و لنسبه، ولا طعناً أو رفضاً لشخصيته، وإنما المعارضة مبنية لردع ما يدعوهم إليه.

«فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» (۲).

ومما يؤيد ذلك ما جاء على لسان أبى جهل عدو اللَّه وعدو رسوله، إذ قال للنبى صلى الله عليه و آله: قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا نكذبك، ولكن نكذب الذى جئت به فأنزل اللَّه عز وجل:

«قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» (۳).

إذن، فالممانعة القرشية ورفضها وعنادها، لم يكن موجهاً لشخص الرسول صلى الله عليه و آله ولا لخلقه وأدبه وسيرته فيهم، بل كان موجهاً إلى ما حمله من رسالة

۱- انظر: محمد قلعت، التفسير السياسى للسيرة.

۲- الأنعام: ۳۳.

۳- المصدر نفسه، وانظر: الحاكم، المستدرك ۲: ۳۱۵؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ۴: ۹۱.

ص: ۱۴۰

وما جاء به من دعوة وما طالبهم به من الدين، وهو ما يدل عليه ما ذكرناه من آيات وأقوال وما يفيده منطوق قول أبي جهل السابق.

لقد عرضوا عليه كل شيء: المال والجاه والسلطان والسيادة والملك والمغريات الأخرى إن ترك دعوته هذه ودينه هذا كلياً أو جزءاً منه كحل وسط..

وهذا قوله صلى الله عليه و آله لعمه أبي طالب رداً على ما قدمته قريش له من دنيا:

«يا عم، واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه، أو أهلك فيه، ما تركته..».

وأما ماعرضه عتبة بن ربيعة موفد قريش على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:... وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.

فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا...

حتى إذا فرغ عتبة ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: أفعل.

فراح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقرأ له سورة فصّلت: «حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ* وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ...»

ثم مضى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيها يقرأها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى

ص: ۱۴۱

السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك (۱).

فعاد من حيث أتى بعد أن خاب مسعاه كما خابت جهودهم من قبل وباءت بالفشل الذريع..

إن عرض هذه الأمور عليه يدل على اعترافهم بسموّ مكانته النَّسَبية عندهم ورفعة أخلاقه وهو يتيم بنى هاشم، وهو الصادق الأمين كما يعرفونه، لهذا قدموا له كل ذلك ومنها السيادة عليهم، وإلاـ فهم يأنفون- كما عرف عنهم ذلك- أن يخضعوا للوضيع مهما كان الأمرالذى يتمسك به، وخاصة إذا جاء بأمر يخالف عاداتهم وتقاليدهم، مثل ما جاء به رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الدين الحنيف والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والأوثان، وما كان سائداً فى مجتمع مكة من عادات قذرة وتقاليد جاهلية ومظالم..

نشأته وتربيته

هناك مراحل كثيرة مرّت بها حياة الرسول صلى الله عليه و آله قبل بعثته نبياً ورسولًا، أشارت إليها آيات من سورة الضحى، وهى نعم عظيمة حظى بها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«أ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى» «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى» «وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى»

فبعد أن ولد النبى صلى الله عليه و آله عام الفيل، ولد يتيماً حيث مات أبوه وهو فى بطن أمّه وقيل: إنه مات بعد ولادته بمدة قليلة، وقد سخّر اللَّه له جده عبد المطلب فآواه ورباه، ثم ماتت أمّه وهو ابن ست سنوات، ولهذا لم يتنعم بحنين الأبوين، و مات جده عبد المطلب وهو ابن ثمانِ سنوات.. (۲) وبعد وفاة جده عبد المطلب، قيّض اللَّه له عمه أبا طالب وهو أخو والده

۱- السيرة النبوية ۱: ۲۹۳- ۲۹۴.

۲- انظر: سيرة ابن هشام ۱: ۱۵۶، وما بعدها.

ص: ۱۴۲

عبد اللَّه لأمه وأبیه، فأحسن تربیته وراح یبذل کل ما فی وسعه فی رعایته فی زمن طفولته وشبابه، وکذلک بعد البعثة حیث دافع عنه دفاعاً عظیماً أمام ضغوط قریش ومؤامراتهم. وهناک معنی آخر فی الآیة «أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآوی»: ألم یجدک واحداً مثیل لک فی شرفک وفضلک فآواک إلی نفسه واختصّک برسالته، من قولهم درة یتیمة إذا لم یکن لها مثیل قال:

لا ولا درة یتیمة بحر تتلالأ فی جؤنة البیاع

الجؤنة: سلة مستدیرة مغشاة أدماً یجعل فیها الطیب والثیاب.

وقیل: فآواک أی جعلک للأیتام بعد أن کنت یتیماً وکفیلًا للأنام بعد أن کنت مکفولًا، عن الماوردی..

«وَوَجَدَکَ ضَالًّا فَهَدی» فیها أقوال سبعة یذکرها صاحب مجمع البیان، نکتفی بأربعة منها:

وجدک ضالًا عما أنت علیه الآن من النبوة والشریعة، أی کنت غافلًا عنهما فهداک إلیهما.. ونظیره «ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَلَا الْإِیمانُ» (۱).

وقوله «وَإِنْ کُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِینَ» فمعنی الضلال علی هذا هو الذهاب عن العلم، مثل قوله: «أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَکِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْری».

ثانیاً: وجدک متحیراً لا تعرف وجوه معاشک فهداک إلی وجوه معاشک...

ثالثاً: وجدک لا تعرف الحق فهداک إلیه بإتمام العقل ونصب الأدلة والألطاف حتی عرفت اللَّه بصفاته بین قوم ضلال مشرکین...

رابعاً: وجدک ضالًا فی شعاب مکة فهداک إلی جدک عبد المطلب، فروی أنه صلی الله علیه و آله ضلّ فی شعاب مکة وهو صغیر فرآه أبو جهل وردّه إلی جده عبد المطلب، فمنّ اللَّه سبحانه بذلک علیه، إذ ردّه إلی جده علی ید عدوه، عن ابن عباس.

رابعاً: وجدک مضلولًا عنک فی قوم لا یعرفون حقک فهداهم إلی معرفتک

۱- الشوری: ۵۲.

ص: ۱۴۳

وأرشدهم إلى فضلك والاعتراف بصدقك، والمراد إنك كنت خاملًا لا تذكر ولا تعرف فعرفك اللّه حتى عرفوك وعظموك.

«وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى»

أىفقيراً لا ـ مال لك، فأغناك بمال خديجة والغنائم، وقيل: فأغناك بالقناعة ورضاك بما أعطاك، عن مقاتل. واختاره الفراء قال: لم يكن غنياً عن كثرة المال لكن اللّه سبحانه أرضاه بما آتاه من الرزق وذلك حقيقة الغنى... (۱) فبعد أن واجه صلى الله عليه و آله حياة كدح صعبة وشاقة حيث عاش طفولته يتيماً وشبابه فقيراً، هداه اللّه تعالى فاتجه إلى غار حراء للعبادة و ترك قومه وما يعبدون من دون اللّه...

فلقد كان صلى الله عليه و آله فى صباه يشتغل برعاية الغنم كما هو سنّة الأنبياء، وقد ثبت أنه صلى الله عليه و آله كان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، وهو صلى الله عليه و آله القائل: «ما بعث اللّه نبياً إلّا ورعى الغنم».

فقال له أصحابه: وأنت؟

۱- الطبرسى، مجمع البيان، الآية.

ص: ۱۴۴

فقال: «نعم کنت أرعاها علی قراریط لأهل مکة».

قراریط: مفردها قیراط وهو جزء من أجزاء الدینار، وهو نصف عشر فی أکثر البلاد، وأهل الشام یجعلونه جزءاً من أربعة وعشرین. والیاء فیه بدل الراء فإن أصله من قراط (۱).

فکان صلی الله علیه و آله یعتمد علی نفسه فی فترة مبکرة من عمره الشریف. وإضافة إلی عمله هذا کان مع عمّه أبی طالب إلی الشام للتجارة.

أخرج الترمذی عن أبی موسی الأشعری قال: «خرج أبو طالب إلی الشام وخرج معه النبی صلی الله علیه و آله فی أشیاخ من قریش، فلمّا أشرفوا علی الراهب هبط فحلوا رحالهم فخرج إلیهم الراهب...» (۲).

هذا ما ورد فی فترة صباه.

وأمّا بعد بلوغه، فقد ورد أیضاً أنّه کان صلی الله علیه و آله یذهب إلی الشام للتجارة بأموال خدیجة (رضی اللَّه عنها) قبل اقترانه بها.

یقول ابن إسحاق: وکانت خدیجة بنت خویلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فی مالها، وتضاربهم إیاه بشیء وتجعله لهم، وکانت قریش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ما بلغها من صدق حدیثه وعظیم أمانته وکرم أخلاقه بعثت إلیه، فعرضت علیه أن یخرج فی مال لها إلی الشام تاجراً، وتعطیه أفضل ما کانت تعطی غیره من التجار مع غلام لها یقال له: میسرة، فقبله رسول اللَّه صلی الله علیه و آله منها وخرج فی مالها ذلک، وخرج معه غلامها میسرة حتی قدم الشام (۳).

فقام صلی الله علیه و آله بوظیفته فی تجارة السیدة خدیجة خیر قیام حتی کانت سبباً فی زواجه

۱- انظر النهایة فی غریب الحدیث ۴: ۴۲؛ و صحیح البخاری فی کتاب الإجارة، باب رعی الغنم علی قراریط ۲: ۳۲۳۳.

۲- سنن الترمذی ۵: ۵۲۰.

۳- سیرة ابن هشام ۱: ۱۷۸- ۱۸۸.

ص: ۱۴۵

إياها إثر رجوعه من ذلك السفر بعدما عرضت نفسها عليه بناءاً على ما رأته فيه من صدق وأمانة، وما سمعته من ميسرة في شأن الرسول صلى الله عليه و آله من خيرٍ طوال مرافقته له في تلك الرحلة الميمونة.

يقول ابن كثير في السيرة: «فلمّا أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم إنّي قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك [أي شرفك] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه، فلمّا قالت ذلك لرسول اللّه صلى الله عليه و آله، ذكره لأعمامه فخرج معه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام. وبعد اقترانه صلى الله عليه و آله بخديجة أم المؤمنين رضى اللّه عنها استغنى بمالها عن الكسب والضرب في الأرض؛ لأنّه لم يرد في كتب السيرة أنّه زاول نشاطاً اقتصادياً بعد ذلك، بل ورد أنّه كان يذهب إلى غار حراء ليتعبد فيه فترة يرجع بعدها إلى خديجة ليتزوّد بمثلها، حتى جاءه الملك بأول آيات من القرآن، وهي صدر العلق من قوله تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» (۱)

إلى قوله تعالى: «عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (۲).

عن عائشة أنّها قالت: «أول ما بدئ رسول اللّه من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: إقرأ.. إلى قوله: «عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (۳).

قال قتادة في هذه الآيات: «كانت هذه هي منازل رسول اللّه صلى الله عليه و آله قبل أن

۱- العلق: ۱.

۲- العلق: ۵.

۳- السيرة النبوية ۱: ۲۶۳؛ وأخرجه البخاري في صحيحه: باب بدء الوحي على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ۱: ۶.

ص: ۱۴۶

یبعثه اللّه عز وجل» (۱).

وقد ذکر أکثر المفسرین هذه المراحل التی مرّ بها الرسول صلی الله علیه و آله عند تفسیرهم هذه الآیات من سورة الضحی، إلّا أنهم یذکرون فی کل مرحلة عدة أقوال محتملة ومعان متقاربة لا یتسع لذکرها هذا المقام؛ لأن القصد هنا لیس ذکر أقوال المفسرین قاطبة وإنّما ذکر ما یشیر إلی هذه المراحل.

سید قطب فی معنی هذه الآیات یقول: «لقد ولدت یتیماً فآواک إلیه وعطف علیک القلوب.. ولقد کنت فقیراً فأغنی اللّه نفسک بالقناعة کما أغناک بکسبک ومال أهل بیتک خدیجة (رضی اللّه عنها) عن أن تحسّ الفقر أو تتطلع إلی ما حولک من ثراء. ثم لقد نشأت فی جاهلیة مضطربة التصورات والعقائد منحرفة السلوک والأوضاع فلم تطمئن روحک إلیها ولکنّک لم تکن تجد لک طریقاً واضحاً مطمئناً، لا فیما عند الجاهلیة ولا فیما عند أتباع موسی وعیسی الذین حرّفوا وبدّلوا وانحرفوا وتاهوا، ثم هداک اللّه بالأمر الذی أوحی به إلیک وبالمنهج الذی یصلک به.

والهدایة من حیرة العقیدة وضلال الشعاب فیها هی المنّة الکبری التی لا تعدلها منّة، وهی الراحة والطمأنینة من القلق الذی لا یعدله قلق، ومن التعب الذی لا یعدله تعب، ولعلها کانت بسبب مما کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یعانیه فی هذه الفترة من انقطاع الوحی وشماتة المشرکین ووحشة الحبیب من الحبیب، فجاءت هذه تذکره وتطمئنه علی أن ربه لن یترکه بلا وحی فی التیه، وهو لم یترکه من قبل فی الحیرة والتیه...» (۲).

ویفهم من تفسیر سید قطب للآیات الثلاث من سورة الضحی کغیره من

۱- تفسیر ابن کثیر ۴: ۵۲۳.

۲- سید قطب، فی ظلال القرآن، الآیات.

ص: ۱۴۷

المفسّرين أن المراحل الثلاث ليست على ترتيب الآيات من المصحف، حيث إنّ مرحلة الإغناء مقدمة على مرحلة الهداية.

يقول الدكتور محمد عزت دروزة ملخصاً ما ذكره المفسرون فى هذا الصدد:

«إن الآية تحتوى إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبى صلى الله عليه و آله فى طفولته أو فى إحدى رحلاته، ورووا فى ذلك روايات كما قالوا: إنّها تعنى أنّه كان غافلًا عن الشريعة التى لا تتقرر إلا بالوحى الربانى، أو أنّه كان حائراً فى أسلوب العبادة للّه، ونفوا عنه أى حال أن يكون ضالًا، أىمندمجاً فى العقائد والتقاليد الشركية والنفس لا تطمئن إلى رواية تيهان النبى صلى الله عليه و آله مضموناً وسنداً، بل إنّها ليست متسقة مع ما تضمّنته الآية من منّ اللّه على النبى صلى الله عليه و آله بأعظم أفضاله عليه، وتفسير ضال بحائر يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة فى الطريق التى يجب أن يسار فيها إلى اللّه وعبادته على أفضل وجه. وهو المعنى الذى نراه» (۱).

ويبدو أن هناك حكمة فيما مرّ به رسول اللّه صلى الله عليه و آله من مراحل، وهى أنّ اللّه سبحانه وتعالى كان يربّيه ويدربه حتى يستطيع أن يتحمل عبء الرسالة الخاتمة وشؤونها وإبلاغها إلى الناس الذين دبّ الفساد فى كل مفصل من مفاصل حياتهم وصدق قوله تعالى:

«ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ» (۲).

يقول صاحب كتاب «دراسة فى السيرة» مشيراً إلى الحكمة من تلك المراحل:

«ومن مرارة اليتم ووحشية العزلة وانقطاع معين العطف والحنان قبس الرسول صلى الله عليه و آله الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل... وبالفقر والحرمان تربى ونما بعيداً عن ترف الغنى وميوعة الدلال.. وعبر رحلته إلى الشام فى رعاية عمّه فتح الرسول صلى الله عليه و آله عينيه ووعيه تجاه العالم الذى يتجاوز حدود الصحراء وسكونها إلى حيث المجتمعات المدنية التى تضطرب نشاطاً وقلقاً... وفى رحلته الثانية إلى الشام مسؤولًا عن تجارة للسيدة خديجة تعلّم الرسول الكثير الكثير، عمّق فى حسّه معطيات المرحلة الأولى وزاد عليها إدراكاً أكثر لما يحدث فى أطراف عالمه العربى من علاقات بين الغالب والمغلوب... كما علّمه الانشقاق الأخلاقى عن

۱- محمد عزت دروزة، سيرة الرسول صلى الله عليه و آله: ۳۲.

۲- الروم: ۴۱.

ص: ۱۴۸

الوضع المكی القدرة علی مجابهة الأحداث» (۱).

والآن لا بد لنا من التحدث عما يتوفر عليه صلی الله عليه و آله من شمائل وصفات انبهر بها مناوئوه قبل أحبائه وأعداؤه قبل أصدقائه، وقد جعلت منه نموذجاً ربانياً رائعاً:

صفاته وأخلاقه

نشأ الرسول صلی الله عليه و آله فی محيط جاهلی وبيئة وثنية تعبد فيها الأصنام والأوثان، ويستعبد القوی منهم الضعيف حتی أصبح الظلم أمراً مألوفاً وشيئاً معروفاً، وهو ما تحمله قصائدهم كقول زهير بن أبی سلمی فی الصفحة ۸۸ من ديوانه:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

هذا إضافة إلی عاداتهم الفاسدة وسلوكهم السیء كوأدهم البنات خوفاً من العار والفقر، وأكلهم أموال اليتامی بحجة أنهم ضعفاء لا قدرة لديهم علی حمل السلاح والدفاع عن الأهل والعشيرة، وأكلهم الربا واستحلاله حتی اختلط عندهم البيع والربا ولا يفرقون بينهما «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» (۲).

وهذا الصحابی الجليل جعفر بن أبی طالب رضی الله عنه يصف بدقة للنجاشی ملك الحبشة أثناء الهجرة الثانية إلی الحبشة المجتمعَ المكی آنذاك فيقول:

«أيها الملك! كنّا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتی الفواحش ونقطع الأرحام ونسیء الجوار، ويأكل القوی منّا الضعيف، حتی بعث اللّه إلينا رسولًا منّا نعرف نسبه وأمانته وعفافه، فدعا إلی توحيد اللّه وأن لا نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل أموال اليتيم...» (۳).

۱- الدكتور عماد الدين خليل، دراسة فی السيرة: ۴۷۴۹، بتصرّف قليل.

۲- البقرة: ۲۷۵.

۳- انظر: سيرة ابن هشام.

ص: ۱۴۹

هذا وضع الساحة المكية يوم ذاك، وقد حفظ اللَّه تعالى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من أن يتأثر بأحوال مجتمعه مع أنه شارك مع قومه فى بعض الأعمال.

أنشطته صلى الله عليه و آله

هناك أعمال اشترك فيها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مع قومه قبل بعثته، أنشطة لا تخدش نبله و لا تسىء إلى سمعته وأخلاقه الطيبة:

۱- حلف الفضول

اشترك صلى الله عليه و آله قبل البعثة فى حلف الفضول الذى وقع بين بطون من قريش لدفع الظلم وردّ المظالم إلى أهلها. يروى ابن هشام بسنده عن ابن إسحاق قال:

«تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له فى دار عبد اللَّه بن جُدعان لشرفه وسنّه... فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا فى مكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممّن دخلها من سائر الناس إلّا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تردّ عليه مظلمته، فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول» (۱).

سمى هذا الحلف بالفضول إما نسبةً إلى الأشخاص المتحالفين الثلاثة الذين سمى كل واحد منهم بالفضل أو للسبب الذى من أجله تحالفوا، وهو أن ترد الفضول على أهلها (۲).

ويقول ابن كثير بعد إيراده ذلك الحلف: «وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب وكان أوّل من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب» (۳).

۱- انظر حوله ما جاء فى سيرة ابن هشام.

۲- انظر السيرة النبوية لابن كثير.

۳- السيرة النبوية ۱: ۲۵۹.

ص: ۱۵۰

وعلى هـذا فكان اشتراكه صـلى الله عليه و آله فى ذلك الحلف شـيئاً مهماً جداً، لأنّ ردّ المظالم إلى أهلها من الأمور المحببة وقد جاء بها الإسلام فيما بعد؛ ولهذا أثنى الرسول صلى الله عليه و آله كما نسب إليه، على ذلك الحلف بعد البعثة:

«لقد شهدت فى دار عبد اللّه بن جُدعان حلفاً ما أحب لى به حمر النعم ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت» (۱).

۲- حرب الفجار:

اشترك رسول اللّه صـلى الله عليه و آله مع قومه فى حرب الفِجـار التى وقعت بين قريش ومن معها من كنانـة وبين قيس عيلان، وكان عمره صلى الله عليه و آله عشرين سنة كما ذكر ابن إسحاق صاحب السيرة..

وسـببها كما ذكر ابن هشام فى سيرته: أنّ عروة الرحال بن عتبة من هوازن أجار لطيمة (۲) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بن قيس أحـد بنى ضـمرة: أتجيرهـا فى كنانـة؟ قال: نعم وعلى الخلق، فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض لطلب غفلته، حتى إذا كان بتيمن ذى طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض، فقتله فى الشهر الحرام؛ فلذلك سمى حرب الفجار.

وكـان دوره صـلى الله عليه و آله فى تلك الحرب أن يردّ على أعمامه نبل عـدوهم إذا رموهم بها؛ وقـد نسب إليه أنه قال: «كنت أنبل على أعمامى» (۳).

وكـان هنـاك مبرر لاـشتراكه، وهو أنّ القتال لم يكن جائزاً فى الأشـهر الحرم يومـذاك، حتى أنّهم إذا أرادوا القتال فى الأشـهر الحرم أخّروها إلى شهرٍ آخر لكى يستحلوا فيها القتال، كما بينها اللّه سبحانه وتعالى فى القرآن معيباً عليهم:

«إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّه» (۴).

۱- انظر سيرة ابن هشام.

۲- اللطيم تحمل العطر والبزّ غير الميرة، انظر: النهاية فى غريب الحديث ۴: ۲۵۱.

۳- انظر سيرة ابن هشام ۱: ۱۶۸- ۱۶۹، بتصرف. وانظر السيرة النبوية لابن كثير ۱: ۲۵۶.

۴- التوبة: ۳۷.

ص: ۱۵۱

وعلى هذا فما دامت تلك الحرب دفاعاً عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم فلا بأس فی اشتراكه صلى الله علیه و آله فیها.

وقد أقرّ اللّه ذلك فی قوله تعالى:

«إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِی كِتَابِ اللَّه یَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّینُ الْقَیِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» (۱).

۳- وضع الحجر الأسود:

قام صلى الله علیه و آله بوضع الحجر الأسود فی مكانه من الكعبة حین بناء قریش لها بعد ما اختلفت بطونها فی ذلك، حیث كانت كل قبیلة ترید أن تنفرد بمزیة وضع الحجر الأسود فی مكانه، وكادوا أن یقتتلوا لولا مجیء رسول اللّه صلى الله علیه و آله وحكمه فیهم حكماً یرضی كل الأطراف المتنازعة على ذلك.

عن عبد اللّه بن السائب قال: كنت فیمن بنى البیت وأخذت حجراً فسوّیته ووضعته إلى جنب البیت.. وأن قریشاً اختلفوا فی الحجر حیث أرادوا أن یضعوه حتى كاد أن یكون بینهم قتال بالسیوف فقال: اجعلوا بینكم أوّل رجل یدخل من الباب، فدخل رسول اللّه صلى الله علیه و آله فقالوا: هذا الأمین وكانوا یسمّونه فی الجاهلیة الأمین، فقالوا: یا محمد! قد رضینا بك، فدعا بثوب فبسطه ووضع الحجر فیه ثم قال لهذا البطن، ولهذا البطن، غیر أنّه سمى بطوناً: «لیأخذ كل بطن منكم بناحیة من الثوب»، ففعلوا ثم رفعوه وأخذه رسول اللّه صلى الله علیه و آله فوضعه بیده (۲).

وما قام به صلى الله علیه و آله یدل على مدى فطانته ورجاحة عقله؛ حیث حلّ المشكلة بسهولة ویُسر بعدما كادت أن تؤدی إلى إسالة الدماء والحرب، كما أنّه یدل على

۱- التوبة: ۳۶.

۲- انظر: الحاكم، المستدرك ۱: ۴۵۸.

ص: ۱۵۲

مكانته صلی الله علیه و آله عند قومه بحيث إنّهم رضوا بحكمه دون تردّد.

هـذه أهم الأعمال التى اشترك فيها قبل البعثة مع قومه، وهى ترفع مكانته وشأنه بين أهله وعشيرته، لأنها من أعالى الأمور ومن مكارم الأخلاق، خصوصاً أن بيئته انتشر فيها الفساد و الرذائل التى عصمه اللَّه سبحانه وتعالى منها وأبعده عنها لينشأ خالياً من الدنايا والشوائب.

وقد عثرت على رواية يرويها أبو نعيم فى دلائله، بسنده عن على بن أبى‌طالب علیه السلام أنه قال: سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله يقول:

«ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمّون بها إلا مرتين كلتاهما يعصمنى اللَّه عز وجل منها، قلت ليلةً لفتى من قريش بأعلى مكة فى أغنام لأهلنا نرعاها: أنظر غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان. قال: نعم، فخرجت فجئت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وضرب دفوف وزمراً، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتنى عينى، فما أيقظنى إلاـ مسّ الشمس ثم رجعت إلى صاحبى فقال: ما فعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ففعل، فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لى مثل ما قيل لى، فلهوت بما سمعت حتى غلبتنى عينى فما أيقظنى إلا مسّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبى فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: فواللَّه ما هممت بعدهما بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمنى اللَّه بنبوّته» (۱).

ولكن مع ما فى نفسى من هذه الرواية، إلا أنها تدل بشكل واضح على نزاهته صلی الله علیه و آله عن قضايا الجاهلية وأمورها التى كانت سائدةً فى المجتمع المكى بعناية من اللَّه سبحانه، وبجانب ذلك كان صلی الله علیه و آله متصفاً بصفات فاضلة وأخلاق حميدة أقرّ له بها المؤيدون والمعاندون على السواء.

وقد أوجزت لنا خديجة أم المؤمنين (رضى اللَّه عنها) صفاته وأخلاقه بقولها بعد فزعه إليها من شدة بدء الوحى:

۱- أبو نعيم، دلائل النبوّة: ۵۴؛ والهيثمى، مجمع الزوائد ۸: ۲۲۶.

ص: ۱۵۳

«کلاـ أبشر فواللّه لاـ یخزیک اللّه أبـداً، فواللّه إنک تصل الرحم وتصـدق الحـدیث وتحمل الکل (العیال والثقل) وتکسب المعـدوم، وتقری الضیف وتعین علی نوائب الحق» (۱).

وتکسب المعدوم، یقال: فلان یکسب المعدوم إذا کان مجذوذاً محظوظاً أی یکسب ما یحرمه غیره، وقیل: أرادت- أیخدیجة رضـی اللّه عنهـا- تکسب الشـیء المعـدوم الـذی لاـ یجـدونه ممـا یحتـاجون إلیه، وقیل: أرادت بالمعـدوم الفقیر الـذی صار من شـدة حاجته کالمعدوم نفسه (۲).

وفی مکارم الأخلاق- نقلًا من کتاب النبوة- عن علی علیه السلام أنه کان إذا وصف رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول:

«کان أجود الناس کفاً، وأجرأ الناس صـدراً، وأصـدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمـة، وألینهم عریکـة، وأکرمهم عشیرة، من رآه بـدیهة هابه».

وخدیجة (رضی اللّه عنها) أقرب شخصیة لرسول اللّه صلی الله علیه و آله تصفه بهذه الصفات بناء

۱- ابن الجوزی، غریب الحدیث ۲: ۲۹۳.

۲- غریب الحدیث ۳: ۱۹۱- ۱۹۲؛ وصحیح البخاری فی کتاب التفسیر، باب تفسیر سورة العلق ۳: ۲۱۸.

ص: ۱۵۴

علی تجربة دقیقة وممارسة طویلة ابتداء من ائتمانها له أن یتاجر فی مالها ثم اقترانها به ومعاشرته فترةً تبلغ خمس عشرة سنة.

وشهادة من علی علیه السلام هی الأخری من لسان أقرب شخص لازمه حیاته المبارکة، یتعلم منه ویأخذ عنه ویتربی بین یدیه منذ نعومة أظفاره..

وعن ابن عباس رضی اللَّه عنه قال: لما نزلت:

«وَأَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» (۱)،

خرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حتی صعد الصفا، فهتف «یا صباحاه»، فقالوا: من هذا؟

فاجتمعوا إلیه، فقال:

«أرأیتم إن أخبرتکم أن خیلًا تخرج من سفح هذا الجبل أکنتم مصدقی؟» قالوا:

ما جربنا علیکَ کذباً، قال: «فإنی نذیر لکم بین یدی عذاب شدید»، قال أبو لهب:

تباً لک ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام، فنزلت:

«تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ وَتَبَّ» (۲).

ففی قولهم: ما جربنا علیک کذباً دلیل واضح علی اتصافه صلی الله علیه و آله بالصدق التام قبل الرسالة بشهادة أعدائه الذین وقفوا فی وجه دعوة السماء علی یدیه المبارکتین.

إنها شهادة من المؤمنین بدعوته صلی الله علیه و آله وهی شهادة حق وصدق أقرّ بها وبحقیقتها من لم یتبعوا الرسول صلی الله علیه و آله ویؤمنوا بدعوته؛ فقد صدرت من مجموع المشرکین ومثلها صدرت من أفرادهم، وقد قالها أبو سفیان وهو مشرک عند هرقل ملک الروم الذی وجّه إلیه عدة أسئلة تتعلق بأحوال الرسول صلی الله علیه و آله من بینها قول هرقل:

«فهل کنتم تتهمونه بالکذب قبل أن یقول ما قال؟» قلت: لا، ثم قال هرقل فی آخر القصة لأبی سفیان:

«وسألتک هل کنتم تتهمونه بالکذب قبل أن یقول ما قال، فزعمت أن لا،

۱- الشعراء: ۲۱۴.

۲- انظر مکارم الأخلاق وصحیح البخاری، کتاب التفسیر باب تفسیر سورة: «تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ وَتَبَّ» ۲: ۲۲۲؛ وصحیح مسلم فی کتاب الإیمان، باب «وَأَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» ۱: ۱۹۴.

ص: ۱۵۵

فعرفت أنّه لم یکن لیدع الکذب علی الناس ثم یذهب ویکذب علی اللّه» (۱).

تلک شهادة المؤمنین والخصوم، تنطق صریحةً فی أنّ الرسول صلی الله علیه و آله لم یکذب أبداً قبل البعثة، بل کان صادقاً دائماً. والصدق أساس الفضائل الأخلاقیة وعنوان الإنسانیة الکریمة، وقد انطبعت شخصیة رسول اللّه صلی الله علیه و آله بها بفضل من اللّه تعالی ورحمة. وهکذا بقیة الصفات الأخلاقیة ومنها الأمانة.

وخیر ما یدلّ علی ذلک قصة وضع الحجر الأسود فی مکانه من الکعبة أثناء تجدید بنائها، حینما اختلفت قریش فی ذلک حیث أتفقوا علی تحکیم أول رجل یدخل من الباب فدخل رسول اللّه صلی الله علیه و آله وکانوا یسمّونه فی الجاهلیة الأمین، فقالوا:

«قد دخل الأمین، فقالوا: یا محمد! رضینا بک» (۲).

وهذه شهادة صدرت من مجموع المشرکین وإن لم یکن بینه وبینهم عداوة حین نطقوا بذلک القول؛ لأنّ ذلک کان قبل البعثة، إلا أنّها تشهد علی اتصافه صلی الله علیه و آله بالأمانة حتی أصبحت لقباً له.

وعلی هذا نجزم أن الرسول صلی الله علیه و آله کان متصفاً بصفات فاضلة وأخلاق حمیدة قبل البعثة اعترف بها أعداؤه وآمن بها أصحابه مع شیوع الظلم والعدوان وسوء الأخلاق فی المجتمع المکی یومذاک. وذلک بفضل اللّه وعنایته ورعایته.

أخلاقه بعد البعثة

وأمّا بعد البعثة فقد کان خُلُقه صلی الله علیه و آله القرآن کما ورد فی حدیث عائشة أم المؤمنین حیث قالت: «... فإن خلق نبی اللّه صلی الله علیه و آله کان القرآن».

وهذه الأخلاق الکریمة کانت سبباً فی تقریب قلوب أصحابه رضوان اللّه

۱- انظر صحیح البخاری، باب کیف کان بدء الوحی إلی رسول صلی الله علیه و آله ۱: ۸، وصحیح مسلم فی کتاب الجهاد، باب کتابه صلی الله علیه و آله إلی هرقل یدعوه إلی الإسلام ۳: ۱۳۹۴.

۲- الحاکم، المستدرک ۱: ۴۵۸.

ص: ۱۵۶

عليهم له، ولولا اتصافه بها لما تمكّن من تأثير دعوته عليهم وخاصة في أيامها الأولى في مكة.

وقد أشار اللَّه سبحانه وتعالى إلى تأثير اتصافه صلى الله عليه و آله بالأخلاق الفاضلة على أصحابه بقوله تعالى:

«فَبِما رَحْمَةٍ مِن اللَّه لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» (۱).

وكما أن الأخلاق الفاضلة لها تأثير كبير على الأصحاب، كذلك أيضاً لها تأثير كبير على الأعداء، كما يدل عليه قوله تعالى:

«وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (۲).

وقد شهد اللَّه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه و آله بالخلق العظيم بقوله:

«وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (۳).

وعن على عليه السلام قال: سمعت النبى صلى الله عليه و آله يقول: بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها.

والإمام على عليه السلام يتحدث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويصفه كما في نهج البلاغة:

كان أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه، لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقال عنه أيضاً: «فأعرضَ عن الدنيا بقَلبه، وأمات ذكرَها عن نفسه، وأحبَّ أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها ريشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيّبها عن البصر. وكذلك

۱- آل عمران: ۱۵۹.

۲- فصلت: ۳۴- ۳۵.

۳- القلم: ۴.

ص: ۱۵۷

من أبغض شيئاً أن ينظر إليه وأن يُذكرَ عنده».

وقال عنه أيضاً:

«كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يأكل على الأرض، ويجلس جِلسَة العبد، ويخصفُ بيدِهِ نَعله، ويرقّع ثوبَه، ويركبُ الحمارَ العارى، ويردفُ خلفه، ويكون الستر على بابه فيكون عليه التصاويرُ فيقول: يا فلانة!- لإحدى زوجاته- غيّبيه عنّى، فإنى إذا نَظَرْتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارفها..».

هذا وقد كان له آداب تفرّد بها مع خالقه ومع نفسه ومع زوجاته ومع أصحابه وعامة الناس ومع النساء ومع الصبيان والضعفاء وخادمه ومناوئيه... تحدثت عنها وعن صفاته الكثير من الروايات، وهذه طاقة جميلة منها، وكل آدابه جميلة جليلة رائعة:

منطقه صلى الله عليه و آله

كان صلى الله عليه و آله متواصل الأحزان، دائم الفكر ليس له راحة، طويل الصمت لا يتكلّم فى غير حاجة، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، يتكلّم بجوامع الكلم فصلًا لا فضول فيه ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافى ولا بالمهين، يعظم عنده النعمة وإن دقّت، لا يذم منها شيئاً غير أنه كان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا تغضيه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شى حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وانشاح، وإذا غضب غضّ طرفه، جلّ ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام.

قال الصدوق: إلى هنا رواية القاسم بن المنيع عن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد، والباقى رواية عبد الرحمن إلى آخره: قال الحسن عليه السلام: فكتمتها الحسين عليه السلام زماناً ثم حدثته به فوجدته قد سبقنى إليه فسألته عنه فوجدته قد سأل أباه عليه السلام عن مدخل النبى صلى الله عليه و آله ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً.

ص: ۱۵۸

قال الحسين عليه السلام: «قد سألت أبى عليه السلام عن مدخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: كان دخوله فى نفسه مأذوناً له فى ذلك، فإذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء:

جزء للَّه، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم منه شيئاً».

لسانه صلى الله عليه و آله

وسألته عن مخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخزن لسانه إلا عما كان يعنيه، ويؤلّفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم و يوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوى عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عن الناس ويحسّن الحسن ويقويه، ويقبّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا ويميلوا، ولا- يقصر عن الحق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحةً للمسلمين، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مواساة وموازرة.

مجلسه صلى الله عليه و آله

قال عليه السلام: فسألته عن مجلسه صلى الله عليه و آله فقال: كان لا- يجلس ولا- يقوم إلا- على ذكر، لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، من سأله حاجة لم يرجع إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه خلقه فصار لهم أباً، وكانوا عنده فى الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا يؤبن فيه الحرم، ولا تثنى فلتاته، متعادلين، متواصلين فيه بالتقوى متواضعين، يوقّرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

ص: ۱۵۹

فصاحته صلی الله علیه و آله

کان صلی الله علیه و آله أفصح الناس منطقاً وأحلاهم... وکان یتکلّم بجوامع الکلم، لا فضول ولا تقصیر کأنه یتبع بعضه بعضاً، بین کلامه توقف یحفظه سامعه ویعیه، کان جهیر الصوت أحسن الناس نغمة.

أدبُه صلی الله علیه و آله مع ربِّه

یقول أمیرالمؤمنین علی علیه السلام: کان لا یُؤثر علی الصلاة عشاءً ولا غیرَه، وکان إذا دخل وقتها کأنّه لا یعرف أهلًا ولا حمیماً.

وعن الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام أیضاً: کان إذا تثاءب فی الصلاة ردَّها بیده الیمنی.

وعن الحسین بن علی علیه السلام: کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یبکی حتی یبتلّ مصلّاه خشیةً من اللَّه عزَّ و جلَّ من غیر جُرمٍ..

وعن الإمام جعفر الصادق علیه السلام: کان یصلّی من التطوُّع مِثلَی الفریضة، ویصوم من التطوُّع مِثْلَی الفریضة.

وعن عائشة: کان یحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرتِ الصلاةُ فکأنّه لم یعرفنا ولم نعرِفه.

وعن الإمام جعفر الصادق علیه السلام: کان لا یُؤثرُ علی صلاة المغرب شیئاً إذا غربت الشمس، حتی یُصلِّیها.

وعن علی بن أبی طالب علیه السلام: کان إذا رأی ما یحبُّ قال: الحمد للَّهالذی بنعمته تتم الصالحات.

وکان یتضرع عند الدعاء حتی یکاد یسقطُ رداؤه.

وعن عائشة: کان یذکر اللَّه تعالی علی کل أحیانه.

وکان ینتظر وقت الصلاة ویشتدُّ شوقُه ویترقب دخوله، یقول لبلال: أرحنا یا بلال.

ص: ۱۶۰

وقال أبو أمامة: كان إذا جلس مجلساً فأراد أن يقوم استغفرَاللَّه عشرة إلى خمس عشر مرة.

وكان لا يجلس ولايقوم إلّا على ذكر اللَّه جلّ اسمه.

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه ثوبٌ ملقى.

وعن حذيفة: كان إذا حزبه أمر صلّى.

وكان إذا مرّ بآية خوفٍ تَعَوَّذَ، وإذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مرّ بآيةٍ فيها تنزيه اللَّه سبَّح.

وكان يقول: قرة عينى فى الصلاة و الصوم.

وعن عائشة: كان إذا صلّى صلاة أثبتها.

وقال أبوبكرة: كان إذا جاءهُ أمر يُسَرُّ به خرَّ ساجداً شكراً للَّه.

وعن أنس خادم النبى: كان أكثر دعوة يدعو بها: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار».

وعن عائشة: كان إذا دخل شهر رمضان تغيَّر لونه وكثرت صلاته، وابتهل فى الدعاء، وأشفق لونه.

وعن ابن أبى رواد: كان إذا شهد جنازة أكثر الصُّمات وأكثر حديث نفسه..

وعن ابن عباس: كان إذا شهد جنازة رؤيت عليه كآبة، وأقلَّ الكلام وأكثر حديث النفس.

ويقول أبو هريرة: «كان أكثر ما يصومُ يوم الإثنين والخميس، فقيل له: لماذا؟

قال: الأعمال تُعرض كلّ إثنين وخميس، فيُغفَرُ لكل مسلم إلّا المتهاجرَيْن، فيقول: أخِّروهما.

وعن عائشة: كان لا يدعُ قيام الليل، وكان إذا مرضَ أو كسلَ صلّى قاعداً.

وعنها: كان لايقرأُ القرآن فى أقلّ من ثلاث.

وعن ابن مسعود: كان لايكون فى المُصلين إلّا كان أكثرهم صلاة، ولا يكون فى الذاكرين إلّا كان أكثرهم ذكراً.

ص: ۱۶۱

وعن أنس: كان لا ينزل منزلًا إلّا وَدعَهُ بركعتين.

وعن البراء بن عازب: كان لا يصلى مكتوبةً إلّا قنتَ فيها.

كان صلى الله عليه و آله عبداً رسولًا

عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر أنه أتى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ملك فقال: إن اللَّه يخيّرك أن تكون عبداً رسولًا متواضعاً أو ملكاً رسولًا.

قال: فنظر إلى جبرئيل وأومأ بيده أن تواضع فقال: عبداً رسولًا متواضعاً، فقال الرسول: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً، قال: ومعه مفاتيح خزائن الأرض.

وعن الحسن بن على عن أبيه على عليهما السلام فى خبر طويل: «وكان صلى الله عليه و آله يبكى حتى يبتلّ مصلاه خشية من اللَّه عزوجل من غير جرم..».

وكان صلى الله عليه و آله يبكى حتى يغشى عليه فقيل له: أليس قد غفر اللَّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وكذلك كان غشيان على بن أبى طالب وصيّه فى مقاماته.

ولما نزل قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً» (۱).

اشتغل رسول اللَّه- كما عن أبى سعيد الخدرى- بذكر اللَّه حتى قال الكفار: إنه جنّ.

وعن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يتوب إلى اللَّه فى كل يوم سبعين مرة، قلت: أكان يقول: أستغفراللَّه وأتوبإليه؟ قال: لاولكن كانيقول: أتوب إلىاللَّه، قلت: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يتوب ولا يعود، ونحن نتوب ونعود، قال: اللَّه المستعان.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع نفسه

عن عائشة: كان خُلُقهُ القرآن.

وعن أبى سعيد: كان أشدَّ حياءً من العذراء فى خدرها..

۱- الأحزاب: ۴۱.

ص: ۱۶۲

وعن عائشة: كان أبغضُ الخُلقِ إليه الكذب.

وعن عائشة: كان إذا عمل عملًا أثبته.

وعن ابن عمر: كان لا يأكلُ متكئاً.

وعن أنس: كان لا يدّخر شيئاً لغدٍ.

وعن بريدة: كان لا يتطيَّر ولكن يتفاءلُ.

وعن عائشة: كان لا يرقُدُ من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوَّك..

وعن جابر بن سمرة: كان لا يضحك إلا تبسّماً.

وعن جابر بن سمرة: كان لا ينبعث فى الضحك.

وعن ابن عمر: كان لا ينام إلّا والسّواك عند رأسه، فإذا استيقظ بدأ بالسواك.

وعن أم عياش: كان يحفى شاربه.

وعن عائشة: كان يعجبه الريحُ الطيبة.

وعن إبراهيم: كان يُعرَف بريح الطيب إذا أقبلَ.

وعن أبى هريرة: كان يقلّم أظفارَه ويقصّ شاربَه يوم الجمعة قبل أن يروح إلى الصلاة.

ويقول أبو سعيد: كان إذا تغدّى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد.

ويقول أبو الدرداء: كان إذا حدّث بحديث تبسَّم فى حديثه.

و يقول الإمام جعفرالصادق عليه السلام: كان ينفق على الطِّيب أكثر مما ينفقُ على الطعام.

و عن حفصة: كان فراشه مسحاً.

وعن ابن عباس: كان فيه دعابة قليلة.

وكان لا يأكل الثوم والبصل والكراث.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع زوجاته

يقول أبو ثعلبة: كان إذا قدِم من سفَر بدأ بالمسجد فَصلّى فيه ركعتين، ثم يُثنّى بفاطمة، ثم يأتى أزواجه.

ص: ۱۶۳

وعن حابس: كان يأمر نساءه إذا أرادت إحداهُنَّ أن تنامَ أن تحمد ثلاثاً وثلاثين، وتسبّح ثلاثاً وثلاثين، وتكبّر ثلاثاً و ثلاثين.

وعن عائشة: كان إذا خلا بنسائه ألينَ الناس، وأكرم الناس، ضَحّاكاً بسّاماً..

وعن الإمام جعفر الصادق علیه السلام: كان يحلب عنزَ أهله.

وعن عائشة: كان إذا دخل بيته بدأ بالسِّواكِ.

وعن أنس: كان رحيماً بالعيال.

وعن عائشة وأم سلمة: كان يخيط ثوبَه ويخصفُ نعله، ويعمل ما يعمل الرجال فی بيوتهم.

وعن عائشة: كان يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة.

وعن عائشة: كان يَقسِمُ بين نسائه فيعدل..

وكان يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً.

أدبُه صلی الله علیه و آله مع أصحابه

يقول أبوذر: كـان يجلس بين ظهرانيّ أصحابه فيجیءُ الغريبُ فلاـ يـدری أيُّهم هو حتی يسأل، فطلبنا إلی النبی أن يجعل مجلساً يعرفُه الغريبُ إذا أتاه، فبنينا له دكاناً من طين فكان يجلس عليها، ونجلس بجانبيه.

وعن أنس: كان إذا لقيه أحدٌ من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتی يكون الرجلُ هو الذی ينصرفُ عنه، و إذا لقيه أحدٌ من أصحابه فتناول يده

ص: ۱۶۴

ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكونَ الرجلُ هو الذى ينزعُها عنه.

و إن كـان ليصـافحه الرجـلُ فما يتركُ رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله يـدَه حتى يكونَ هو التاركُ، فلما فَطِنوا لـذلك كان الرجلُ إذا صافحَهُ مالَ بيده فنزعَها من يده.

وعن على عليه السـلام قال: ما صافـح رسول اللّه صـلى الله عليه و آله أحـداً قط فنزع يـده من يـده حتى يكون هو الـذى ينزع يده، وما فاوضه أحد قط فى حاجة أو حديث فانصـرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف، وما نازعه أحد قط الحديث فيسكت حتى يكون هو الذى يسكت، وما رئى مقدماً رجله بين يدى جليس له قط.

وعن قرة بن إياس: كان إذا جلس جلس إليه أصحابه حَلَقاً حَلَقاً.

وعن أنس: كان إذا فقَد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام، سأل عنه فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زارَه وإن كان مريضاً عاده.

وكان يتجمّل لأصحابه فضلًا عن تَجَمّله لأهله.

وعن جندب: كان إذا لقى أصحابَه لم يصافحهم حتى يُسلّمَ عليهم.

وعن عائشة: كان إذا بلغه عن الرّجل، لم يقل: ما بالُ فلانٍ يقول: ولكن كان يقول: ما بال أقوامٍ يقولون: كذا وكذا.

وعن أنس: كان لا يأخذ بالقَرف ولا يقبَل قول أحدٍ على أحدٍ.

وعن حذيفة: كان إذا لقيه الرجلُ من أصحابه مسَحَهُ و دَعا له.

وعن جارية الأنصارى: كان إذا لم يحفظ اسم الرجل قال: يا ابن عبد اللَّه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: كان يقسّم لحظاتِه بينَ أصحابه فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسويّة.

و لم يبسط رجليه بين أصحابه قط.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يداعب و لا يقول إلا حقاً.

وعن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: كان يَستشيرُ أصحابَه ثم يعزمُ على ما يريدُ.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يداعب الرَّجل يريد به أن يسرّه.

ص: ۱۶۵

وعن أنس: کان صلی الله علیه و آله یدعو أصحابه بکناهم إکراماً لهم و استمالةً لقلوبهم، ویکنّی من لم یکن له کنیة فکان یُدعی بما کنّاه به.

وعن أنس: کان لا یدعوه أحد من أصحابه و غیرهم إلا قال: لبیک.

وعن علی بن أبی طالب علیه السلام: کان لیسرّ الرجل من أصحاب إذا رآه مغموماً بالمداعبة، وکان صلی الله علیه و آله یقول: إن اللَّه یبغض المعبّس فی وجه إخوانه.

وعن زیدبن‌ثابت: کنّا إذا جلسناإلیه صلی الله علیه و آله إن‌أخذنا فی‌حدیث الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا فی ذکر الدنیا أخذ معنا، وإن أخذنا فی ذکر الطعام والشرابِ أَخَذَ معنا.

وسأل الإمام الحسین أباه الإمام علیاً علیه السلام: کیف کانت سیرته صلی الله علیه و آله فی جلسائه؟

کان صلی الله علیه و آله دائم البشر، سهل الخلق، لین الجانب، لیس بفظ ولا غلیظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عیاب، ولا مداح، یتغافل عما لا- یشتهی، فلا- یؤیس منه ولا- یخیب منه مؤملیه، قد ترک نفسه من ثلاث: المراء والإکثار وما لا یعنیه، وترک الناس من ثلاث: کان لا- یذم أحداً ولا- یعیّره، ولا یطلب عثراته ولا عورته، ولا یتکلم إلا فیما رجی ثوابه، إذا تکلّم أطرق جلساؤه کأن علی رؤوسهم الطیر، فإذا سکت تکلموا، ولا یتنازعون عنده الحدیث، من تکلّم أنصتوا له حتی یفرغ، حدیثهم عنده حدیث أوّلهم، یضحک مما یضحکون منه، ویتعجب مما یتعجبون منه، ویصبر للغریب علی الجفوة فی مسألته ومنطقه حتی أن کان أصحابه یستجلبونهم، ویقول: إذا رأیتم طالب الحاجة یطلبها فارفدوه، ولا یقبل الثناء إلا من مکافئ، ولا یقطع علی أحد کلامه حتی یجوز فیقطعه بنهی أو قیام.

وعن أبی عبد اللَّه علیه السلام قال: کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقسّم لحظاته بین أصحابه؛ فینظر إلی ذا وینظر إلی ذا بالسویة، قال: ولم یبسط رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رجلیه بین أصحابه قط، وإن کان لیصافحه الرجل فما یترک رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یده من یده حتی یکون هو التارک، فلما فطنوا لذلک کان الرجل إذا صافحه مال بیده فنزعها من یده.

وفی المکارم قال:

کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إذا حدّث بحدیث تبسّم فی حدیثه.

ص: ۱۶۶

مداعبته صلى الله عليه و آله

وعن يونس الشيبانى قال: قال لى أبو عبد اللَّه عليه السلام: كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليلًا.

قال: هلّا تفعلوا؟ فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يداعب الرجل يريد به أن يسرّه.

وعن الصادق عليه السلام قال: ما من مؤمن إلا وفيه دعابة، وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يداعب ولا يقول إلا حقاً.

وفى الكافى بإسناده عن معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام فقلت:

جعلت فداك، الرجل يكون مع القوم فيمضى بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟

فقال: لا بأس ما لم يكن، فظننت أنه عنى الفحش.

ثم قال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يأتيه الأعرابى فيأتى إليه بالهدية، ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا، فيضحك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وكان إذا اغتمّ يقول: ما فعل الأعرابى، ليته أتانا.

سكوته صلى الله عليه و آله

قال: فسألته عن سكوت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال عليه السلام: كان سكوته صلى الله عليه و آله على أربع:

على الحلم والحذر والتقدير والتفكير: فأما التقدير ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكّره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم والصبر فكان لا يغضبه شى ولا يستفزه، وجمع له الحذر فى أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده الرأى فى صلاح أمته، والقيام فيما جمع له خير الدنيا والآخرة.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع الناس جميعاً

قد وسع الناسَ منه خُلُقُهُ فصارَ لهم أباً، وصاروا عنده فى الخَلق سواء، مجلسُه مجلسُ حلمٍ وحياء وصدق وأمانة، لاتُرفَعُ عليه الأصوات، ولا تؤبَنُ فيه الحُرَم،

ص: ۱۶۷

ولا تُثَنى فلتاتُه، مُتعادلين، متواصلين فيه بالتقوى، متواضعين، يوقِّرون الكبيرَ، ويَرحمون الصَّغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

كان إذا ودّع المؤمنين قال: «زوّدكم اللّه التقوى ووجّهكم إلى كل خير، وقضى لكم حاجة، وسلّم لكم دينكم ودنياكم ورَدّكم إليَّ سالمين».

وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يخزن لسانه إلّا عمّا كان يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفّرهم، ويُكرمُ كريمَ كلّ قوم ويوليه عليهم، ويحذَرُ الناس ويحترسُ منهم من غيرِ أن يطوى عن أحدٍ بِشره ولا خُلُقه

ويتفقَّد أصحابَه.

ويسأل الناسَ عمّا في الناس،

ويحسِّنُ الحسنَ ويقوّيه،

ويقبّحُ القبيحَ ويوهنُه،

معتدلَ الأمر غير مختلف فيه،

لايغفَل مخافةَ أن يغفلوا ويميلوا.

ولا يقصّرُ عن الحقِ ولا يجوِّزُهُ.

الذين يَلُونه من الناسِ خيارُهم.

وأعظمُهم عنده منزلةً أحسنُهم مواساةً وموازرة،

كان لا يجلس ولا يقومُ إلّا على ذكرٍ.

لا يوطّن الأماكن وينهى عن إيطانها.

وإذا انتهى إلى قومٍ جَلَسَ حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك.

ويعطى كلَّ جلسائه نصيبَه، ولا يحسب أحدٌ من جلسائه أنَّ أحداً أكرمُ عليه منه.

مَن جالسَهُ صابره حتى يكونَ هو المنصرف.

مَن سأله حاجةً لم يرجع إلّا بها، أو ميسورٍ مِنَ القول.

ويقول أبو واقد: كان أخفَّ الناس صلاةً على الناس، وأطول الناس

ص: ۱۶۸

صلاةً لنفسه.

وعن عبد اللَّه بن بسر: كان إذا أتى باب قومٍ لم يستقبل الباب من تلقاءِ وجههِ، ولكن من ركنِه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم.

وعن عكرمة مرسلًا: كان إذا أتاه رجلٌ فرأى في وجهه بشراً أخذ بيدِهِ.

وعن عقبة بن عبد: كان إذا أتاه الرجل وله الاسمُ لا يحبُّهُ حوّلَه.

وعن عوف بن مالك: كان إذا أتاه الفيءُ قسّمه في يومه فأعطى الآهِلَ حظّين وأعطى العَزَبَ حظاً.

وعن أبي موسى: كان إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بَشِروا ولا تُنفِّروا، ويَسِّرُوا ولا تُعَسّروا.

وعن عائشة: كان يُغيّر الاسمَ القبيحَ.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يخرج في مَلأ من الناس من أصحابه كلِّ عشيّةِ خميسٍ إلى بقيع المدنيين، فيقول ثلاثاً: السلام عليكم يا أهلَ الديار- وثلاثاً- رحمكم اللَّه.

وعن أنس: كان رحيماً ولا يأتيه أحدٌ إلّا وَعَدَ وأنجز له إن كان عنده.

وعن جابر: كان يتخلّف في السير فيزجي الضعيفَ ويردفُ، ويدعُو لهم.

وعن ابن عباس: كان إذا دخلَ على مريض يعوده قال: لا بأس، طهورٌ، إن شاء اللَّه.

ويقول أبو هريرة: كان إذا عطسَ وَضَعَ يده أو ثوبه على فيه وخفّض بها صوته.

وكان أصبر الناس على أقذار الناس.

وعن ابن عمر: كان إذا صلّى بالناس الغداةَ أقبلَ عليهم بوجهه، فقال: هل فيكم مريضٌ أعودُه؟ فإن قالوا: لا، قال: فهل فيكم جنازةٌ أتبعُها؟

وعن حنظلة بن حذيم: كان يحبُّ أن يُدعى الرجل بأحبّ أسمائِه إليه وأحبّ كناه.

ص: ۱۶۹

وعن ابن عمر: کان یکرهُ أن یَطَأ أحدٌ عقِبَهُ ولکن یمینٌ وشمالٌ.

وعن أنس: کان ینزلُ من المنبر یوم الجمعة فیکلّمُهُ الرجل فی الحاجة فیکلّمه، ثم یتقدمُ إلی مصلّاه فیصلّی.

وعن أنس: کان لا یواجهُ أحداً بشیء یکرهُه.

وعن الإمام علی بن الحسین السجاد علیه السلام: کان یحمِّلُ الناس من خَلفه ما یطیقون.

وکان یُؤثر الداخلَ علیه بالوسادة التی تحته فإن أبی أن یقبلها عَزَم علیه حتی یفعل.

وکان لا یدع أحداً یمشی مَعه إذا کان راکباً حتی یحمله معه، فإن أبی، قال:

تقدَّم أمامی وأدرکنی فی المکان الذی ترید.

وعن الإمام جعفر الصادق علیه السلام: کان من رأفته صلی الله علیه و آله لأمّته مداعبته لهم لکیلا یبلغ بأحد منهم التعظیمُ حتی لا یُنظَرَ إلیه.

وکان یقول: لا یبلّغُنی أحدٌ منکم عن أحد من أصحابی شیئاً، فإنی أحِبُّ أن أخرج إلیکم وأنا سلیمُ الصدر.

وعن أنس: کان إذا بایعه الناس یُلَقنهم: فیما استطعتُ.

أدبُه صلی الله علیه و آله مع الصبیان

عن الإمام محمد الباقر علیه السلام: کان یسمع صوتَ الصبی یبکی وهو فی الصلاة فیخفف الصلاة فتصیر إلیه أمُه.

وعن أنس: کان إذا اتی بباکورة الثمرة وضعَها علی عینیه ثم علی شفتیه، وقال:

اللّهم کما أریتَنا أوّلَه فأرنا آخره، ثم یعطیه مَن یکونُ عنده مِن الصبیان.

وکان إذا یؤتی بالصغیر لیَدعوَ بالبرکة، أو یسمّیه، فیأخذُه فیضعُه فی حجره تکرمةً لأهله، فربما بالَ الصبیُ علیه فیصیحُ بعضُ من رآه حین یبول، فیقول صلی الله علیه و آله:

لا تَزرِمُوا بالصبیّ، فیدعُه حتی یقضی بولَه، ثم یفرغ له من دعائه أو تسمیَته ویبلغُ

ص: ۱۷۰

سرورُ أهلِه فيه، ولا يرون أنه يتأذى ببول صبيّهم، فإذا انصرفوا غَسَلَ ثوبه.

وعن أنس: كان أرحمَ الناس بالصبيان والعيال.

وعن عبد اللّه بن جعفر: كان إذا قدم من سفر تُلقّىَ بصبيان أهل بيته.

وعن أنس: كان يزور الأنصار ويسلّم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم.

وعن أنس: كان يمرُّ بالصبيان فيسلّم عليهم.

وعن عائشة: كان يؤتى بالصبيان فيبرّكُ عليهم ويحنِّكُهُم ويدعُو لهم.

وعن أنس: كان يكنّى الصبيان فيستلين به قلوبَهم.

وعن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: كان إذا أصبح مَسَحَ على رؤوس ولده، و ولد ولده.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع النساء

وعن جرير: كان يمرّ بنساءٍ فيسلّم عليهن.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يسلّم على النساء ويردُّون عليه السلام.

وعن أنس: كان يكنّى النساء اللاتى لَهُنَّ الأولاد، واللاتى لم يلدنَ.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع ضعفاء الناس

عن أمية بن عبد اللّه: كان يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين.

ويقول أبو سعيد وأبن أبى أوفى: كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى حاجته.

وعن على بن أبى طالب عليه السلام: كان آخر كلامه: «الصلاة، الصلاة، اتقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم».

وعن سهل بن حنيف: كان يأتى ضعفاء المسلمين ويزوّرهم، ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم.

وعن ابن عباس: كان يجلس على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيبُ دعوة

ص: ۱۷۱

المملوك على خبزِ شعير.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان إذا أكلَ مع القوم طعاماً كان أوَّلَ من يضعُ يَدَه، وآخرَ من يرفعُها ليأكلَ القومُ.

وعن عبد اللَّه بن سنان عن أهل البيت عليهم السلام: كان يذبح يوم الأضحى كبشين أحدهما عن نفسه والآخر عمّن لم يجد من أمَّتِهِ.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع خادمه

عن أنس قال: خدمت النبى صلى الله عليه و آله تسع سنين فما أعلم أنه قال لى قط: هلا فعلت كذا وكذا؟ ولا عاب على شيئاً قط.

وقال أيضاً: والذى بعثه بالحق ما قال لى فى شى قط كرهه: لم فعلته؟ ولا لامنى نساؤه إلا قال: دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر.

كان مما يقولُ للخادم: ألك حاجة؟

وأجاب الإمام على عليه السلام عن سؤال الإمام الحسين عن سيرة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مع أهل الفضل: وكان من سيرته صلى الله عليه و آله فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بأدبه، وقسمه على قدر فضلهم فى الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وبإخبارهم بالذى ينبغى، ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغونى حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يقدر على إبلاغها ثبّت اللَّه قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رواداً، ولايفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع أعدائه ومناوئيه

ويقول عمرو بن العاص: كان يُقْبِلُ بوجهه و حديثه على شر القوم يتألَّفه بذلك.

ص: ۱۷۲

وعن عمر بن على عن أبيه عليه السلام قال: كانت من أيمان رسول اللّه صلى الله عليه و آله: لا وأستغفر اللّه.

وفى إحياء العلوم:

كان صلى الله عليه و آله إذا اشتدّ وجده أكثر من مسّ لحيته الكريمة.

سخاؤه

وكان صلى الله عليه و آله أسخى الناس لا يثبت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل شى ولم يجد من يعطيه وفجأ الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما آتاه اللّه إلا قوت عامه فقط، من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك فى سبيل اللّه.

لا يسأل شيئاً إلا أعطاه، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه، حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شى، قال: وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه، قال: ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس، قال: لا يهوله شى من أمور الدنيا.

قال: ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه.

وكان له عبيد وإماء من غير أن يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس، لا يمضى له وقت من غير عمل للّهتعالى أو لما لا بد منه من صلاح نفسه، يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكيناً لفقره أو زمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى اللّه دعاءاً مستوياً.

وكان صلى الله عليه و آله أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس.

وكان صلى الله عليه و آله إذا سرّ ورضى فهو أحسن الناس رضى، فإن وعظ وعظ بجد، وإن

ص: ۱۷۳

غضب- ولا- يغضب إلا للَّه- لم يقم لغضبه شى، وكذلك كان فى أموره كلها، وكان إذا نزل به الأمر فوّض الأمر إلى اللَّه، وتبرأ من الحول والقوة، واستنزل الهدى.

من سننه وأدبه صلی الله علیه و آله فى العشرة

وفى إرشاد الديلمى قال:

كان النبى صلی الله علیه و آله يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويأكل مع العبد، ويجلس على الأرض، ويركب الحمار ويردف، ولا- يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغنى والفقير، ولا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها هو، ويسلّم على من استقبله من غنى وفقير وكبير وصغير، ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حشف التمر.

وكان صلی الله علیه و آله خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، ولم يتجش من شبع قط، ولم يمدّ يده إلى طمع قط.

ص: ۱۷۴

وفی مکارم الأخلاق عن النبی صلی الله علیه و آله:

أنه کـان ینظر فی المرآة ویرجـل جمته ویتمشـط، وربما نظر فی الماء وسوّی جمته فیه، ولقـد کان یتجمّل لأصـحابه فضـلًا علی تجمّله لأهله، وقال صلی الله علیه و آله: إن اللّه یحب من عبده إذا خرج إلی إخوانه أن یتهیأ لهم ویتجمّل.

وعن الرضا عن آبائه علیهم السلام قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله خمس لا أدعهنّ حتی الممات:

الأکل علی الأرض مع العبید، ورکوبی مؤکفاً، وحلبی العنز بیدی، ولبس الصوف، والتسلیم علی الصبیان لتکون سنّة من بعدی.

وفی الفقیه عن علی علیه السـلام أنه قال لرجل من بنی سـعد: ألا أحـدثک عنی وعن فاطمة- إلی أن قال- فغدا علینا رسول اللّه صـلی الله علیه و آله ونحن فی لحافنا فقال: السـلام علیکم، فسـکتنا واسـتحیینا لمکاننا، ثم قال صـلی الله علیه و آله: السلام علیکم فسکتنا، ثم قال صـلی الله علیه و آله: السلام علیکم فخشینا إن لم نرد علیه أن ینصرف، وقد کان یفعل ذلک فیسلّم ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف، فقلنا: وعلیک السلام یا رسول اللّه، أدخل فدخل، الخبر.

و عن أبی عبـد اللّه علیه السـلام قـال: کـان رسـول اللّه صـلی الله علیه و آله یسـلم علی النسـاء ویرددن علیه، وکـان أمیر المؤمنین علیه السـلام، یسـلّم علی النساء، وکان یکره أن یسلم علی الشابة منهنّ، ویقول: أتخوّف أن یعجبنی صوتها فیدخل علیّ أکثر مما أطلب من الأجر.

وعن عبد العظیم بن عبد اللّه الحسنی رفعه قال:

کـان النبی صـلی الله علیه و آله یجلس ثلاثـاً: القرفصاء، وهو أن یقیم ساقیه ویسـتقبلهما بیـده، ویشـدّ یـده فی ذراعه، وکان یجثو علی رکبتیه، وکان یثنی رجلًا واحدة ویبسط علیها الأخری، ولم یر متربعاً قط.

ولا خیّر بین أمرین إلا أخذ بأشدّهما، وما انتصر لنفسه من مظلمة حتی ینتهک محارم اللّه، فیکون حینئذ غضبه للّه تبارک وتعالی، وما أکـل متکئاً قـط حتی فارق الـدنیا، وما سـئل شـیئاً قط فقال: لا، وما ردّ سائل حاجـة قط إلا أتی بها أو بمیسور من القول، وکان أخفّ الناس صلاة فی تمام، وکان أقصر الناس خطبةً

ص: ۱۷۵

وأقلهم هذراً، وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل، وكان إذا أكل مع القوم كان أول من يبدأ وآخر من يرفع يده، وكان إذا أكل أكل مما يليه، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده، وإذا شرب شرب ثلاثة أنفاس، وكان يمصّ الماء مصاً ولا يعبّه عباً، وكان يمينه لطعامه وشرابه وأخذه وعطائه فكان لا يأخذ إلا بيمينه، ولا يعطى إلا بيمينه، وكان شماله لما سوى ذلك من بدنه، وكان يحب التيمّن فى جميع أموره فى لبسه وتنعّله وترجله.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا تكلم تكلم وتراً، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً، وكان كلامه فصلًا يتبيّنه كل من سمعه، وإذا تكلم رئى كالنور يخرج من بين ثناياه، وإذا رأيته قلت: أفلج وليس بأفلج.

وكان نظره اللحظ بعينه، وكان لا يكلم أحداً بشى يكرهه، وكان إذا مشى كأنما ينحطّ فى صبب، وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً، وكان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا يتنازع أصحاب الحديث عنده، وكان المحدث عنه يقول: لم أر بعينى مثله قبله ولا بعده صلى الله عليه و آله.

وهناك آداب للرسول صلى الله عليه و آله مع الجميع:

فعن أنس: وكان صلى الله عليه و آله لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: لبيك.

و عنه: ولقد كان صلى الله عليه و آله يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويكنّى من لم يكن له كنية فكان يُدعى بما كنّاه به، ويكنى أيضاً النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن، ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم.

وكان صلى الله عليه و آله يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

و عن عجلان قال: كنت عند أبىعبداللَّه عليه السلام، فجاء سائل فقام عليه السلام إلى مكيل فيه تمر فملأ يده فناوله، ثم جاء آخر فسأله، فقام فأخذ بيده فناوله، ثم جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله، ثم جاء آخر فقال عليه السلام: اللَّه رازقنا وإياك.

ثم قال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت

ص: ۱۷۶

إلیه امرأة إبناً لها فقالت: انطلق إلیه فاسأله فإن قال: لیس عندنا شی فقل: أعطنی قمیصک، قال: فأخذ قمیصه فرمی به- وفی نسخة أخری فأعطاه- فأدبه اللّه علی القصد فقال: «وَلا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَةً إِلی عُنُقِکَ وَلا تَبْسُطْها کُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً». وفیه روی: أن رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان لا یدع أحداً یمشی معه إذا کان راکباً حتی یحمله معه فإن أبی قال: تقدم أمامی وأدرکنی فی المکان الذی ترید.

وعن أبی القاسم الکوفی فی کتاب الأخلاق: وجاء فی الآثار: أن رسول اللّه صلی الله علیه و آله لم ینتقم لنفسه من أحد قط بل کان یعفو ویصفح.

و کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أیام سأل عنه، فإن کان غائباً دعا له، وإن کان شاهداً زاره، وإن کان مریضاً عاده.

و عن جابر عن أبی جعفر علیه السلام قال: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یأکل الهدیة ولا یأکل الصدقة.

وفیه عن موسی بن عمران بن بزیع قال: قلت للرضا علیه السلام: جعلت فداک، إن الناس رووا أن رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان إذا أخذ فی طریق رجع فی غیره! کذا کان؟ قال:

فقال: نعم فأنا أفعله کثیراً فافعله، ثم قال لی: أما إنه أرزق لک.

و عن أبی جعفر علیه السلام قال: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یخرج بعد طلوع الشمس.

و عن عبد اللّه بن المغیرة، عمّن ذکره قال: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله إذا دخل منزلًا قعد فی أدنی المجلس إلیه حین یدخل.

و عن جعفر بن محمد عن آبائه عن علی علیه السلام قال: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یرجل شعره، وأکثر ما کان یرجل بالماء، ویقول: کفی بالماء طیباً للمؤمن.

ص: ۱۷۷

رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی کلمات الشعراء

سعید المهاجر

المدیح من أبواب الشعر العربی المعروفة، وتعدّ المدائح النبویة، وهی التی بدأت مع الخیوط الأولی للدعوة النبویة الخالدة وظلت وما زالت وستبقی متوهجة، من أروع فروعه وأصدقها وأجملها لفظاً وأحسنها وأثراها معنی..

لقد کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله مقصداً وقبلة ومثابة لجمیع الناس، مؤمنیهم ومجاهدیهم وعلمائهم ومفکریهم ومثقفیهم وسیاسییهم وأدبائهم وشعرائهم...

هؤلاء جمیعاً ومنهم الشعراء بالذات وعلی مرّ التاریخ، قد أسرتهم شخصیة نبی اللّه العظیمة بما تتوفر علیه من خصائص عالیة وشمائل جلیلة وصفات جمیلة ومناقب رفیعة، لا تجد نظیراً لها لدی أحد من العالمین، وکیف نجد لها نظیراً ومثیلًا وقد تولّت السماء بناءه وشیدت کیانه وصنعته کما أرادت لیکون نبیاً ورسولًا وشاهداً وبشیراً ونذیراً وداعیاً إلی اللّه تعالی وسراجاً منیراً...

وإذا کان الشاعر یستعین بما یشاء من مناقب تتسم بالجلالة وصفاتٍ کلها عظمة و تکریم لیردف بها أدواته الشعریة فی وصف من یرید مدحه والثناء علیه، فإذا بممدوحه هذا یصبح أجمل من غزال وأبهی من شمس وأنور من قمر وأکثر منه ضیاءً وأکرم من سحاب وأسخی من غمام... وهو الخالی من کل ذلک بل ومن أقل

ص: ۱۷۸

منه، ولکنه الشعر.. والشعر ما أکذبه!!..

إلا أن هـذا الشعـر وذاک الشاعر وهـذا القصـید یکون مختلفاً جداً حین یکون رسول اللّه صـلی الله علیه و آله موضوع القصـید، حینما یکون ممدوحهم خاتم الأنبیاء وسیدَ الأنام، عندما یصبح موضوعهم ومحور أدبهم وشعرهم من وصفته السماء:

«وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ» (۱).

وحقاً ماقالوه:

أثنی العظیمُ علیک فی آیاته بعظیمِ خُلقک ما أجلّ وأروعا

الناسُ إنْ مدحوا استطاروا فرحةً والمادحُ المصنوعُ لیس الصانعا

ومدحُ ربّک وهو أنفسُ مدحةٍ قد زاد فیک تعبّدًا وتواضعاً

ومهما یقول فیه الشعراء یبقی ما یقولونه- وإن علا وسما- دون وصف السماء له، ودون ما حمّلته إیاه بمراتب عظیمة جداً، ودون ما یتحلی به من خلق عالٍ وسیرة عطرة وجهاد دؤوب.. ویبقی الشاعر- مهما کان قدیراً- مقصّراً فی وصف ما یستحقه رسول الرحمة والخیر والعطاء والمغفرة.. مهما أجهد نفسه وفکره ولسانه وقلمه فی مدحه صلی الله علیه و آله، ویقف الجمیع وکل ما ینشدونه و یتفوّهون به شعراً أو نثراً عاجزاً عن إیفاء جزء مما یمتاز به ویتحلّی به ممدوحهم رسول السماء من آداب سامیة وأخلاق عظیمة وشمائل نادرة ومواقف کبیرة وتضحیات جسام..

وعلیه، فإن هذا النوع من مدیحهم یأتی دائماً بعیداً عن المزاعم الکاذبة والادعاءات الباطلة، ونجده خالصاً من الشوائب والمطامع الرخیصة المرجوة من مدح سلطان أو زعیم أو ثری، بل ولا مکان فیه لزخارف الأقوال، إنه کلمات خالصة بعواطف صادقة وألفاظ دقیقة ومعانی رائعة وجمال تصویر وحسن سبک وبراعة نظم..

لهذا ولغیره، سجل هذا النوع من المدیح مکانةً مرموقة ومنزلة رفیعة

۱- القلم: ۴.

ص: ۱۷۹

ومستقلة، فهو المديح النبوى الصادق، وهى المدائح النبوية الخالصة، وهى القصائد الرائدة وكلها تنأى عن الشوائب، وتترفع عن الأقاويل، وما أكثرها فى دواوين الشعر والشعراء!!

۱- من مدائح النبى صلى الله عليه و آله

نقف عند مقاطع مقتبسة مما جاء من هذه المدائح والقصائد:

شعر ورقة بن نوفل

فممّا قاله ورقة بن نوفل:...

بأن محمداً سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا

فيلقى من يحاربه خسارا ويلقى من يسالمه فلوجا

فياليتى إذا ما كان ذاكم شهدت فكنت أوّلهم ولوجا

ولوجاً فى الذى كرهت قريش ولو عجت بمكّتها عجيجا

أرجى بالذى كرهوا جميعاً إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا

أبوطالب و مدح النبى صلى الله عليه و آله

وكان لأبى طالب عم رسول اللّه صلى الله عليه و آله عدة قصائد فى مدحه منها:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرّها وصميمها

وإن حصلت أشراف عبد منافها ففى هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرّها وكريمها

أَنتَ الرَسولُ رَسولُ اللّه نَعلَمُهُ عَلَيکَ نُزِّلَ مِن ذى العِزَّةِ الکُتُبُ

ص: ۱۸۰

لَقَد أَكرَمَ اللّه النَبِيَّ مُحَمَّداً فَأَكرَمُ خَلقِ اللّه فى الناسِ أَحمَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل

يلوذ به الهلاف من آل هاشم فهم عنده فى رحمةٍ وفواضل

فمن مثله فى الناس أىمؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليمٌ رشيد عادل غير طائش يوالى إلاها ليس عنه بغافل

لقد علموا أن ابننا لا مكذّب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد فى أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل

فأيده رب العباد بنصره وأظهر ديننا حقه غير باطل

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا لؤيا وخصا من لؤى بنى كعب

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط فى أول الكتب

وأن عليه فى العباد محبة ولا خير ممن خصّه اللّه بالحب

أعشى بنى قيس وشعره فى رسول اللّه صلى الله عليه و آله

أعشى بنى قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل، خرج إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله يريد الإسلام، فقال يمدح رسول اللّه صلى الله عليه و آله بقصيدة (داليَّة) وقد جاء فيها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبتّ كما بات السليم مسهّدا

وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم صحبة مهددا (۱)

۱- مهدد: اسم امرأة.

ص: ۱۸۱

ثم يقول:

آليت لا آوى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمدا

متى ما تناخى عند ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندى

نبياً يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا

أجدك لم تسمع وصاة محمد نبى الإله حيث أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدا

ندمت على أن لا تكون كمثله فترصد للأمر الذى كان أرصدا

فإياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا

وذا النصب المنصوب لا تنسكنّه ولا تعبد الأوثان واللّه فاعبدا

ولا تقربنّ حرّة كان سرها عليك حراماً فانكحن أو تأبداً

وذا الرحم القربى فلا تقطعنّه لعاقبة ولا الأسير المقيّدا

وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تحمد الشيطان واللّه فاحمدا

ولا تسخرا من باس ذى ضرارة ولا تحسبنّ المال للمرء مخلّدا (۱)

آية اللّه الهاشمى وشوق الشاعر إلى نبى الرحمة صلى الله عليه و آله

وللسيد آية اللّه جما ل الدين الهاشمى رائعة، راح ينظمها وهو فى المدينة المنورة عام ۱۹۷۶ ميلادى، حين زيارة الضريح الطاهر لرسول الرحمة محمد صلى الله عليه و آله، نقتبس شيئاً منها:

أتيتك بالأشواق أطفو وأرسب وكلّى آمال وكلّك مطلب

۱- السيرة النبوية ۱: ۳۸۶- ۳۸۷.

ص: ۱۸۲

ملكت على بعد الديار مشاعرى فأنت إلى ذهنى من الفكر أقرب

إلى أن دنت منى الديار وأصبحت قبابك فى عينى تهلّ وتغرب

تلاشت حدودى فى حدودك والهوى توحد أشتات به وتذوب

فعدت وماآلاك عند مشاعرى فأنت بها فكر ودين ومذهب

***

ولما وطأت المسك من أرض طيبة وهب عبير من شذى الخلد أطيب

وأقحمت طرفى لجّة النور لوحت شمائل أشهى من خميل وأعذب

تخيّلت عشراً من قرون وأربعا ستبعد طرفى عن رؤاك وتحجب

ولكن رأيت الأمس عندى بسحره ثرى كما يهوى الجلال ويطلب

كأن السنين الذاهبات وبعدها مرايا بها تدنو إلىّ وتقرب

ولملمت طرفى من سناك ولمعه كذا الشمس تعشو العين منها وتتعب

وراودت فكرى أن يعيك فاده بأنك أوفى من مداه وأرحب

***

سماحاً أبا الزهراء إن جئت أجتلى سناك وأستهدى الجلال وأطلب

إذا لم تؤمّل فضل نورك ظلمتى فمن أين يرجو جلوة النور غيهب

وإن لم يلج ذنبى ببابك خاشعاً فمن أين يرجو رحمة اللّه مذنب

ومثلك من أعطى ومثلى من اجتدى فإن السما تنهل والأرض تشرب

وما عند باب الأنبياء معرّة فليس على من أمّ بابك معتب

أهبت بنقصى فاستجار بكامل إلى ذاته ينمى الكمال وينسب

وأغرى طلابى أنّ فيض معينه مدى الدهر ثرّ ما يجفّ وينضب

وعفّرت خدى فى ثرى مس عفره لجبريل من جنحيه ريش مزغب

وفيه محاريب لآل محمد بهنّ ضراعات إلى اللّه تنصب

وآثار أقدام صغار ومهجع إلى الحسنين الزاكيين وملعب

وصوت رحى الزهراء تطحن قوتها إلى جلد كبش حيث تحبس زينب

رؤى سوف يبقى الدهر يروى جلالها وتبقى على رغم البساطة تأشب

***

ص: ۱۸۳

عهدتک والقرآن نور وحکمۂ یشد إلیه التائهین ویجذب

وأنت عطاء کلما احتاجت الدنا إلی مکسب منه تولد ومکسب

وأنت طموح نال کل ممنع ولم یرضه من غارب لنجم منکب

وأنت شموخ فی النوائب مرقل علی عزمات کلّهن توثب

وأنت إذا التاث رأی اصابۂ مسدّدۂ عن صائب الرأی تعرب

فما بالنا لا نجتلیک بتیهنا وأنت لنا نبع وروض مخضب

فقد یکتفی فی تافه الزاد کاسل لأن کریم الزاد ماتاه متعب

من قصائد حسّان بن ثابت

وهناک مدائح حسان بن ثابت ومنها قوله فی إحدی قصائده:...

أَلَم تَرَ أَنَّ اللّه أَنزَلَ نَصرَهُ عَلی عَبدِهِ خَیرِ العِبادِ مُحَمَّدِ

وَأَرسَلَهُ فی الناسِ نوراً وَرَحمَۀً فَمَن یَرضَ ما یَأتی مِنَ الأَمرِ یَهتَدِ

کعب بن زهیر والقصیدۀ اللامیَّۀ

ومما قاله کعب بن زهیر فی قصیدته اللامیۂ المشهورۂ التی مطلعها:

بانت سعاد فقلبی الیوم مبتول متیم إثرها لم یفد مکبول

یسعی الغواۂ جنابیها وقولهم إنک یا ابن أبی سلمی لمقتول

وقال کل صدیق کنت آمله لا ألهینک إنی عنک مشغول

فقلت خلوا طریقی لا أبا لکم فکل ما قدّر الرحمن مفعول

کل ابن أنثی وإن طالت سلامته یوماً علی آلۂ حدباء محمول

نبّئت أن رسول اللّه أوعدنی والعفو عند رسول اللّه مأمول

مهلًا هداک الذی أعطاک نافلۂ ال قرآن فیها مواعیظ وتفصیل

لا تأخذنی بأقوال الوشاۂ ولم أذنب ولو کثرت فیّ الأقاویل

إنّ الرسول لنور یستضاء به مهنّد من سیوف اللّه مسلول

کعب بن مالک یمتدح النور النبوی

وقصائد کعب بن مالک التی یقول فی إحداها:

فَإِنْ یَکُ مُوسی کَلَّم اللّه جَهْرَۀً عَلَی الطُّورِ المُنِیفِ المُعَظَّم

فَقَدْ کَلَّم اللّه النبیَّ محمَّداً عَلَی المَوْضِعِ الأَعْلَی الرَّفِیع المُسوَّم

وَإِنْ تَکُ نَمْلُ البَرِّ بالوَهْم کَلَّمتْ سُلَیْمانَ ذا المُلکِ الذی لیس بالعَمِی

فهذا نَبیُّ اللّه أحمَدُ سَبَّحتْ صِغارُ الحَصَی فی کَفِّهِ بالتَّرنُّم

*** من شعر عبداللّه بن رواحۂ

وقصائد عبد اللّه بن رواحۂ ومن أبیاته فی إحداها:

وَفینا رَسولُ اللّه یَتلو کِتابَهُ إذا انشَقَّ مَعروفٌ مِنَ الصُبحِ ساطِعُ

أَرانا الهُدی بَعدَ العَمی فَقُلوبُنا بِهِ موقِناتٌ أَنَّ ما قالَ واقِعُ

يَبيتُ يُجافى جَنبَهُ عَن فِراشِهِ إِذا استُثقِلَت بِالكافِرينَ المَضاجِعُ

وتوالت قصائد المديح منذ ذلك الوقت، وكان فى كل عصر من العصور شعراء مدحوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لا يتسع المقام فى هذه المقالة لذكر أسمائهم، وقد اشتُهر بعضهم بالمدائح النبوية كشرف الدين البوصيرى، صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فى مطلعها:

أمِنْ تَذَكُّرِ جِيران بِذِى سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

وهى القصيدة المعروفة بالبردة

ولحسان بن ثابت نماذج عديدة من الشعر مدحاً لرسول اللّه صلى الله عليه و آله ورثاء، نختار بضعة أمثلة منها:

نصرناه لمّا حلّ وسط رحالنا بأسيافنا من كل باغ وظالم

جعلنا بنينا دونه وبناتنا وطبنا له نفساً بفيء المغانم

ص: ۱۸۴

ص: ۱۸۵

وأحسن منک لم تر قط عینی وأجمل منک لم تلد النساء

خلقت مبرأ من کل عیب کأنک قد خلقت کما تشاء

ویذبّ حسان عن عرض رسول اللّه صلی الله علیه و آله

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند اللّه فی ذاک الجزاء

هجوت محمداً برّاً تقیّاً رسول اللّه شیمته الوفاء

فإنّ أبی ووالده وعرضی لعرض محمد منکم وقاء

ثکلت بنیتی إن لم تروها تثیر النقع من کنفی کداء

یبارین الأعنّة مصعدات علی أکتافها الأسل الظماء

تظلّ جیادنا متمطّرات تلطمهنّ بالخمر النساء

فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا وکان الفتح وانکشف الغطاء

هذا فی المدح..

۲- من رثاء الرسول صلی الله علیه و آله

أما فی الرثاء، فاننا نجد حسّان بن ثابت یرثی الرسول بمجموعة من القصائد تنم عن حزن صادق وألم مریر:

بطیبة رسمٌ للرسول ومعهد منیر وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تمتحی الآیات من دارحرمة بها منبر الهادی الذی کان یصعد

وواضح آثار وباقی معالم وربع له فیه مصلّی ومسجد

بها حجرات کان ینزل وسطها من اللّه نور یستضاء ویوقد

معارف لم تطمس علی العهد آیها أتاها البلی فالآی منها تجدّد

عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبراً بها واراه فی الترب ملحد

ظللت بها أبکی الرسول فأسعدت عیون ومثلاها من الجفن تسعد

یذکرن آلاء الرسول وما أری لها محصیاً نفسی فنفسی تبلد

ص: ۱۸۶

مفجعة قد رشفها فَقْد أحمد فظلّت لآلاء الرسول تعدّد

أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل الذى فيه أحمد

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدّد

وبورك لحدٌ منك ضمّن طيباً عليه بناء من صفيح منضد

تهيل عليه التُرب أيد وأعين عليه وقد غارت بذلك أسعد

لقد غيّبوا حلماً وعلماً ورحمة عشية علوه الثرى لا يوسد

وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيّهم وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعضد

يبكون من تبكى السماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد؟!

فابكى رسول اللّه يا عين عبرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

وما لك لا تبكين ذا النعمة التى على الناس منها سابغ يتغمّد

فجودى عليه بالدموع وأعولى لفَقْد الذى لا مثله الدهر يوجد

وما فَقَد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يُفقد

وليس هواى نازعاً عن ثنائه لعلى ربه فى جنة الخلد أخلد

مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وقال فى قصيدة أخرى:

تا للّهما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبىّ الأمّة الهادى

من الذى كان فينا يستضاء به مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر أصبحت منه كمثل المفرد الصادى

وقال أحد الشعراء:

وإلا شهِدَتْ بِفضْلِ مَقامِكَ الأَكْوَانُ وَتَرَنّمتْ فَرَحاً بِكَ الأَزْمَانُ

ص: ۱۸۷

وَتَبَاشَرَتْ كُلّ السّمَاءِ وَكَبرتْ وَالأرْضُ فِى عُرُسٍ كَذا الأَرْكَانُ

وَتَزَلْزَلَ الطّغْيانُ فى أرْجَائِهَا فَبسَيْفِ دِينِكِ يُهْزَمُ الطّغْيانُ

وَتَثَقّفَ الإنْسَانُ أَعْلَامَ الهُدَى لَوْلَاكَ ضَلّ بِجَهْلِهِ الإنْسَانُ

كَمُلَتْ صِفَاتُكَ فى الأنَامِ فَكُلّهَا نُورٌ تُضِىءُ يَمُدّها الإيْمَانُ

سَبْحَانَ مَنْ أَلْقَى إلَيْكَ مَحَاسِناً مِنْ نُورِ نُورِكَ يَنْبُعُ السّبْحانُ

وَعَلَا بِذِكْرِكَ حَامِداً وَمُحَمّداً وَبِاسْمِ أَحْمَدَ تَشْهَدُ الرّهْبَانُ

جِبْرِيلُ يَشْهَدُ وَالملائِكَةُ العُلَا وَالأَنْبِيَاءُ بِصِدْقِهِمْ قَدْ دَانوا

أَنْتَ الذِى أُوْتِيتَ كُلّ فَضِيلةٍ وَالمُعْجِزُاتِ عَظِيمُها القُرْآنُ

أَنْتَ المُقَرّبُ وَالمُشَفّعُ للوَرَى يَوْمِ الشفاعّةِ أَحْمَدُ العُنْوَانُ

أَنْتَ الخَلِيلُ وَأَنْتَ أَعْظَمُ نِعْمَةِ وَالآيَةُ العُظْمَى كذَا الفُرْقَانُ

وقال اللَّه: قد أرسلت عبداً يقول الحق ليس به خفاء

وقال اللَّه: قد يسّرت جنداً هم الأنصار عرضتهااللقاء

لنار فى كل يوم من معد سباب رأو قتال أو هجاء

فمن يهجو رسول اللَّه منك ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول اللَّه فينا وروح القدس ليس له كفاء

وَبِنورِ وجْهِكَ تُمْطِرُ نَار السّمَا وَبِفَضْلِ جُودِكَ عَمّنا الإحْسَانُ

عَرْشُ الإلَهِ يَرَى مَقَامكَ عَالِياً وأَدْنَاكَ مِنْهُ بِفَضْلِهِ الرّحْمَنُ

فأنتَ مؤتمنُ الرحمنِ إذ خُتمت بكَ الرسالاتُ واستهدت بك البشرُ

جاهدْتَ فى اللَّه إذ بلّغتَ دعوَتَهُ فالكفرُ مندحرٌ والشركُ منكسرُ

صلّيتَ بالرُسلِ فى مسراكَ كنتَ بهم كما يزيّنُ ضوءَ الأنجمِ القمرُ

تركتَ فينا كتابَ اللَّه ننهجهُ وسُنّةً فُسّرَتْ فى ضوئها السُوَرُ

ففى جبينكَ «نورٌ يُشرقُ القمرُ» وفى حديثِكَ ذاكَ الهدىُ ينهمرُ

وفى سجاياكَ يا خيرَ الورى مثَلٌ وفى حياتِكَ ذاكَ المقتدى الأثرُ

قد كنتَ قلباً لنشرِ الدينِ مجتهداً وكنتَ كفّاً لبذلِ الخيرِ تبتدرُ

إذا وهبتَ فلا مَنٌّ ولا قَتَرٌ وإن دُعيتَ فلا مَطْلٌ ولا ضجرُ

وكنتَ قرءاننا يمشى بخيرِ هدىً ماذا نقولُ وماذا فيكَ نختصرُ؟!

يا ناصرَ الدينِ.. يا وحىَ الإلهِ به يرفرفُ القلبُ والأرواحُ والفِكَرُ

يا مَن أضاءَ بنورِ اللَّه سنّتَهُ للمقتدينَ فتلكَ الأنجمُ الزُهرُ

مناقبُ النصرِ فى أرجاءِ دعوتِهِ ال غرّاءِ فيها قلوبُ الشركِ تنبهرُ

هُداكَ زلزلَ كسرى فى مدائنِهِ وخرَّ قيصرُ إذ لم تُغنِهِ النُذرُ

وأنّكَ المصطفى البشرى النذيرُ وقد ذُكرتَ إذ أُنزلَ الإنجيلُ والزُبرُ

أدّيتَ فينا أماناتٍ وقد شهدت لكَ القلوبُ وذاكَ السمعُ والبصرُ

عزاؤنا أنَّ عقبى الدارِ موعدُنا طوبى لمَن آمنوا.. بُشرى لِمَن صبروا

***

ريح الصّبا تزكى الصّبابة فى الحشا عند الهبوب وتحرّك الأشواق تطوى بالمنى بُعدَ الدّروب

ص: ۱۸۸

ص: ۱۸۹

فإذا الحیاة بمرّها تحلو وتنساها الکروب و تهون فی الدّرب الصّعاب و ینجلی لیل الخطوب

یا أحمدَ الهادی ویا نوراً أطلّ علی القلوب من کلِّ شیءٍ حُسنَهُ آتاک علام الغیوب

فالشّمسُ حُزْتَ ضیاءها والغیمُ مدمعه السّکوب والطّیرُ أهدت شدوها والزّهرُ أهداک الطّیوب

أهدی الصّباح حیاته وسکینةً أهدی الغروب یا منذراً ومبشّراً من عند علّام الغیوب

یا داعیاً وسراجَ نورٍ قد أضاء لنا الدّروب ذکراک تحیینا وحبّک غیثنا یروی القلوب

وحدیثک الهادی ریاضٌ لیس فیها من لغوب صلّی علیک اللّه یا من ذکره یمحو الذّنوب

ص: ١٩٠

عمرة القضاء

فی ذی القعدة سنة

(٧ه- ٦٢٧ م)

محمد سليمان

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً» (١).

العمرة لغة- بضم العين وسكون الميم وفتح الراء-: الزيارة.. جمعها عمر بضم العين وفتح الميم، وعمرات بضم كل من العين والميم. ومنه المعتمر بضم الميم وسكون العين وفتح التاء وكسر الميم الثانية: الزائر والقاصد للشیء ومن يؤدی العمرة، ومنه اعتمر فلان أی زار وقصد وأدی العمرة.. (٢) وهذه أیالعمرة شرعاً: قصد الكعبة للنسك المعروف.. (٣) عُمر رسول اللَّه صلی الله عليه و آله

تحدثنا بعض المصادر التاريخية أنّ رسول اللَّه صلی الله عليه و آله اعتمر أربع مرات (وفی من لا

١- الفتح: ٢٧.

٢- أنظر مصادر اللغة والقاموس الفقهی.

٣- نفس المصادر.

ص: ۱۹۱

يحضره الفقيه: واعتمر عليه السلام تسع عمر..) كلها كانت فى ذى القعدة من أشهر الحج التى هى شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهو داخل إلى مكة، وإنه لم يحفظ عنه أنه اعتمر فى السنة إلّامرة واحدة، وأنه لم يحج إلّامع عمرته الأخيرة فى حجة الوداع:

إحداها: عمرة الحديبية، وكانت فى ذى القعدة عام الحديبية سنة ست من الهجرة فَصَدَّهُ المشركون عن البيت، فنحر وحلق حيث صُدَّ، وحلَّ. وحسبت له ولمن معه عمرة.

والثانية: عمرة القضاء، وكانت فى ذى القعدة سنة سبع؛ حيث قضاها فى العام المقبل من صلح الحديبية.

والثالثة: عمرته التى قرنها مع حجته فى ذى القعدة سنة ثمان عند فتح مكة.

والرابعة: عمرته من الجِعْرَانة مع حجته وكان إحرامها فى ذى القعدة وأعمالها فى ذى الحجة.. وقول: إنّ عمرته من الجعرانة حيث قسم فيها غنائم حنين. وعمرة مع حجته..

وقال بعضهم: إنما اعتمر النبى صلى الله عليه و آله هذه العمر فى ذى القعدة لفضيلة هذا الشهر ولمخالفة الجاهلية فى ذلك، فإنهم كانوا يرونه من أفجر الفجور... ففعله صلى الله عليه و آله مرات فى هذه الأشهر ليكون أبلغ فى بيان جوازه فيها وأبلغ فى إبطال ما كانت الجاهلية عليه واللَّه أعلم (۱).

وبما أنّ عمرة القضاء هى محل كلامنا نقف عندها تفصيلًا.

أسماء عمرة القضاء

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء، لأن المشركين صدّوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عام الحديبية عن البيت الحرام، فكان مجيئه فى العام التالى قضاءً عما فاته من عمرة

۱- صحيح البخارى ۴۱۴۸؛ صحيح مسلم ۱۲۵۳؛ وانظر النووى فى شرحه وصحيح الترغيب. من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۵۹.

ص: ۱۹۲

الحُدَيْبِيَّة. أوسميت بعمرة القضاء، لأنها وقعت حسب المقاضاة و صدور القضاء بين الطرفين وليس من القضاء الذى هو ضد الأداء؛ لأن العمرة التى سبقت وتحللوا منها على الحدود اعتبرت لهم عمرة واعتبرت لهم غزوة، والعمرة الثانية كانت مستقلة، وكانت- بناءً على اشتراط الطرفين- أن يأتى النبى صلى الله عليه و آله فى العام المقبل، وأن تخلى لهم قريش مكة، فجاءوا ودخلوا المسجد الحرام.

وسميت بعمرة الصلح للمصالحة التى وقعت فى الحديبية.

وسميت بعمرة القضية أى: لما تقاضوا به فى الصحيفة التى كتبت بين الطرفين،

وسميت بعمرة القصاص، لأنهم صدوا رسول صلى الله عليه و آله فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست، فاقتصّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله منهم فدخل مكة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام الذى صدّوه فيه من سنة سبع. وبلغنا- والقول لابن هشام فى سيرته- عن ابن عباس أنه قال: فأنزل اللَّه فى ذلك «وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ» (۱).

وفى المغازى عن ابن عباس: خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ذى القعدة سنة سبع بعد مقدمه بأربعة أشهر، وهو الشهر الذى صدّه المشركون، لقول اللَّه عز وجل «الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ» يقول: كما صدوكم عن البيت فاعتمروا فى قابل.

وفى أسباب النزول للواحدى عن قتادة أنه قال: أقبل نبى اللَّه صلى الله عليه و آله وأصحابه فى ذى القعدة حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة فاعتمروا فى ذى القعدة، وأقاموا بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فخروا عليه حين ردّوه يوم الحديبية فأقصه اللَّه منهم، فأنزل: «الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ..» الآية.

وفى مجمع البيان: «إنه الشهر الحرام على جهة العوض لما فات فى السنة الأولى، ومعناه الشهر الحرام ذو القعدة الذى دخلتم فيه مكة واعتمرتم وقضيتم

۱- البقرة: ۱۹۴.

ص: ۱۹۳

منها وطركم فى سنة سبع بالشهر الحرام ذى القعدة الذى صددتم فيه عن البيت ومنعتم عن مرادكم فى سنة ست «وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ» قيل فيها قولان: أحدهما إن الحرمات قصاص بالمراغمة بدخول البيت فى الشهر الحرام قال مجاهد: لأن قريشاً فخرت بردها رسول اللّه صلى الله عليه و آله عام الحديبية محرماً فى ذى القعدة عن البلد الحرام، فأدخله اللّه مكة فى العام المقبل فى ذى القعدة فقضى عمرته وأقصه بما حيل بينه وبينه، وهو معنى قتادة والضحاك والربيع وعبد الرحمن بن زيد، وروى عن ابن عباس وأبى جعفر الباقرمثله..».

فهى عمرة القصاص كما جاء به التنزيل، وهى أولى بها لقوله تعالى: «الشَّهْرُ الْحَرامُ..» (۱).

إذن فهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والصُّلح، والقصاص.

وعدان مباركان!

إن عمرة القضاء كانت- ولا شك- تصديقاً إلهيّاً لوعدين، وهى أيضاً بشرى عظيمة بصدق هذين الوعدين ووقوعهما، تزفها السماء للمؤمنين بتحقيق آمالهم بدخولهم المسجد الحرام آمنين ملبين... ثم تحقق وعد اللّه وبشرى السماء الكبرى «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً» وهو ما تحقق فعلًا؛ فقد ظهر لا فى المدينة ومكة ولا فى الجزيرة العربية وما حولها وقبل أن ينتهى نصف قرن حتى ظهر الإسلام فى امبراطوريتين كبيرتين تحيطان الجزيرة العربية، كل بلاد الفرس و القسم الأعظم من بلاد الروم، وفى الهند والصين وفى غير هذه البقاع...:

الوعد الأول: وعد ربانى، فقد وعد اللّه به رسوله الكريم صلى الله عليه و آله من دخول مكة المكرمة والطواف بالبيت الحرام..

۱- الروض الأنف ۲: ۲۵۴.

ص: ۱۹۴

الوعد الثانی: وعد نبوی، فقد وعد به النبی صلی الله علیه و آله صحابته من دخول مکهٔ والطواف بالبیت الحرام..

بعد أن رأی صلی الله علیه و آله فی منامه أنه قادم إلی البیت معتمراً، فأخبر أصحابه، فخرجوا معه وکان هذا سنهٔ ۶ هجریهٔ فی ذی القعدهٔ.. وما أن علم المشرکون بمجیئهم حتی استکثروا علی أنفسهم أن یدخل محمد صلی الله علیه و آله وأتباعه علیهم مکهٔ عنوهٔ وبدون إذن ولا۔ علم منهم، وعدّوا ذلک تجاوزاً لهم ولهیبتهم ومکانتهم عند العرب وعدم مبالاهٔ بوجودهم وسیادتهم...، فخرجوا لیصدوا المسلمین عن البیت الحرام، فلما علم صلی الله علیه و آله أن المشرکین قد خرجوا لیصدوهم من الطریق المعهود قال:

«من رجل یدلّنا علی الطریق بعیداً عن مواقعهم؟»

فقام رجل وقاد الرکب إلی أن وصلوا إلی الحدیبیهٔ من غیر الطریق المعروف للمار إلی مکهٔ، والحدیبیهٔ تبعد عن مکهٔ تسعهٔ أمیال، وهی اسم بئر قریبهٔ من طریق جدهٔ وبقرب من البئر شجرهٔ تمت تحتها بیعهٔ الرضوان بعد أن صدّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن العمرهٔ وصالح کفار قریش وعلی أن یعتمر من العام المقبل، وتقع الحدیبیهٔ علی مشارف حدود الحرم، فنزلوا بخیامهم فی الحل، وکانوا یصلّون الصلوات فی الحرم؛ لأنه لیس بینهما فاصل کبیر..

«فَتْحاً مُبِیناً» و «فَتْحاً قَرِیباً» (۱).

وصلح الحدیبیهٔ ینطبق علیه هذان الوصفان «مُبِیناً، قَرِیباً»

هذا ما ذهب إلیه بعض المفسرین بل أکثرهم، فعن الفتح الأول- کما یذکر القرطبی فی تفسیره- نسب القول إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنه قال عن صلح الحدیبیهٔ:

«بل هو أعظم الفتوح قد رضی المشرکون أن یدفعوکم عن بلادهم بالراح ویسألوکم القضیهٔ ویرغبوا إلیکم فی الأمان وقد رأوا منکم ما کرهوا»

ویقول قتادهٔ: الحدیبیهٔ. وقال جابر: ما کنا نعد فتح مکهٔ إلا یوم الحدیبیهٔ،

۱- الفتح: ۱، ۲۷.

ص: ۱۹۵

وقال مجاهد: هو منحره بالحديبية وحلقه رأسه.. وكان فتح الحديبية آية عظيمة.

والصلح من الفتح كما قاله الضحاك..

ويقول محمد عزة دروزة: «ولا ريب فى أن هذا الصلح الذى سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق، بل إنه ليصح أن يعدّ من الأحداث الحاسمة العظمى فى السيرة النبوية، وفى تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها، فقد اعترفت قريش بالنبى والإسلام وقوتهما وكيانهما، واعتبرت النبى والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتى هى أحسن، فى حين أنها غزت المدينة فى سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة فى نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلّتهم إزاء الغزاة. ولهذا شأن عظيم فى نفوس العرب، الذين كانوا يرون فى قريش الإمام والقدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودى كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبى والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون، بدت لنا ناحية من نواحى خطورة هذا الفتح وبُعد مداه.

وقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبى صلى الله عليه و آله فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التى عادت على المسلمين منه. وإذ قووا فى عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين فى المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفدون على النبى صلى الله عليه و آله من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود فى خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان فى ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر اللَّه والفتح، ودخل الناس فى دين اللَّه أفواجاً».

وأختصر ما يفصله سيد قطب عن صلح الحديبية حيث يعبر عنه بأنه:

ص: ۱۹۶

الفيض الإلهى على رسوله صلى الله عليه و آله: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز...

يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها، وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خلاءت (بركت) القصواء

فيقول: «ما خلاءت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.

لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياه»..

ويسأله عمر بن الخطاب فى حمية: فلم نعطى الدنية فى ديننا؟

فيجيبه: «أنا عبد اللّه ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى»...

ويعبر عنه أيضاً أنه: كان فتحاً فى الدعوة.. وكان فتحاً فى الأرض... وكان فتحاً فى الموقف بين المسلمين فى المدينة وقريش فى مكة وسائر المشركين حولها.

يقول الزهرى: فما فتح فى الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل فى تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ويقدّم ابن هشام الدليل حيث يقول: والدليل على قول الزهرى أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله خرج إلى الحديبيّة فى ألف وأربعمئة فى قول جابر بن عبد اللّه. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف..

وأما عن «فَتْحاً قَرِيباً» يقول القرطبى فى تفسيره:... قال مجاهد: هو صلح الحديبية، وقاله أكثر المفسرين. ثم يذكر قول الزهرى: ما فتح اللّه فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية...

يقول السيد صاحب الميزان عن هذين الفتحين:

«إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً»: كلام واقع موقع الامتنان، وتأكيد الجملة ونسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذى

ص: ۱۹۷

یمتنّ به.

ثم یواصل کلامه مرجحاً الرأی القائل: إنه صلح الحدیبیة حیث یقول: والمراد بهذا الفتح علی ما تؤیده قرائن الکلام هو ما رزق اللّه نبیه صلی الله علیه و آله من الفتح فی صلح الحدیبیة...

وإن کان هذا واحداً من الأقوال فی المراد من الفتح الوارد فی الآیة: فبعض ذهب إلی أن المراد به فتح مکة، وبعض ذهب إلی أنه فتح خیبر، وقیل: الفتح المعنوی.

ولکن السید لا یرجح هذه الأقوال؛ لأن سیاق الآیات والقرائن لا تساعد ها..

«ومن هنا یظهر أن المراد بالفتح القریب فی هذه الآیة (۲۷ الفتح) فتح الحدیبیة؛ فهو الذی سوّی للمؤمنین الطریق لدخول المسجد الحرام آمنین ویسّر لهم ذلک ولولا ذلک لم یمکن لهم الدخول إلا بالقتال وسفک الدماء ولا عمرة مع ذلک، لکن صلح الحدیبیة وما اشترط من شرط أمکنهم من دخول المسجد معتمرین فی العام القابل. ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القریب فی الآیة فتح خیبر بعید عن السیاق، وأما القول بأنه فتح مکة فأبعد» (۱).

لقد أنزل اللّه سبحانه وتعالی فیها سورة الفتح، وتم فیها الصلح والاتفاق بین المسلمین والمشرکین، وکانت بنود هذا الصلح هی أهم معالمها، وما عمرة القضاء إلا النتیجة الأهم أو الحدث الأهم الذی أعقب ذلک الصلح وهی نتیجة لبند من بنوده.

ففی السنة السابعة للهجرة النبویة الشریفة وفی شهر ذی القعدة الحرام وبعد انتظارٍ دام قرابة سبع سنوات، وبعد أن أبرم رسول اللّه صلی الله علیه و آله صلح الحدیبیّة مع قریش فی أواخر سنة ست للهجرة، علی مشهد من الصحابة، علی یقین من بعضهم

۱- انظر: الجامع لأحکام القرآن للقرطبی، و تفسیر المیزان: الآیة من سورة الفتح. والکلام مفصل وطویل؛ وسیرة الرسول ۲: ۲۹۲-۲۹۳. محمد عزة دروزة. فی ظلال القرآن لسید قطب؛ والسیرة النبویة لابن هشام.

ص: ۱۹۸

واستغراب من بعضهم، وتشكيك من آخرين، لما تضمنته بنود ذلك الصلح من فقرات بدت للوهلة الأولى أنها ليست فى صالح المسلمين أو كما تصور عدد منهم، كانت عمرة القضاء وتحقق الوعد وصدقت الرؤيا..

لقد راحت- إضافة إلى بشائر القرآن الكريم- أقوال متعددة لرسول اللّه صلى الله عليه و آله يبشر فيها أن عاقبة هذا الصلح إلى خير ونصر أكيدين.. وهو ما حدث بالفعل.. و كما نجد ذلك فى قوله صلى الله عليه و آله لعمر بن الخطاب الذى بدا أكثرهم استغراباً و تشكيكاً واعتراضاً، وقوله صلى الله عليه و آله إلى أبى جندل ولغيرهما.. خصوصاً بعد أن دخل على من حوله ممن معه من الصلح وبنوده أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.. وسنرى أقواله صلى الله عليه و آله طى بحثنا هذا.

وحتى نرى هذا وغيره لا بد لنا- إذن- من العودة قليلًا إلى بنود هذا الصلح، وطريقته دون التعرض إلى مقدماته كما ذكرها غير واحد من المؤرخين، وخصوصاً الواقدى فى مغازيه خوف الإطالة، لأن فتح مكة- وهو نصر كبير وقبله عمرة القضاء وحتى بيعة الرضوان ثم فتح خيبر وهما الأقرب زمناً من صلح الحديبية- كلها من نتائج ذلك الصلح الذى سمته السماء فتحاً مبيناً، وفتحاً قريباً، وما كان فى

ص: ۱۹۹

الإسلام فتح أعظم مما وقع فی الحدیبیهٔ بما تمخض عنه من نتائج عادت بالخیر علی الإسلام والمسلمین کما نری ذلک آتیاً فیما عدّده رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی ردّه علی المشککین..

یقول الخبر:.. ثم بعثت قریش سهیل بن عمرو، أخا بنی عامر بن لؤی، إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا یکن فی صلحه إلا أن یرجع عنا عامه هذا، فواللَّه لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علینا عنوهٔ أبداً.

فأتاه سهیل بن عمرو، فلما رآه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مقبلًا، قال:

«قد أراد القوم الصلح حین بعثوا هذا الرجل».

فلما انتهی سهیل بن عمرو إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله تکلم فأطال الکلام وتراجعا، ثم جری بینهما الصلح.

وقال محمد بن إسحاق بن یسار: حدثنی بریدهٔ بن سفیان عن محمد بن کعب:

أن کاتب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی هذا الصلح کان علی بن أبی طالب، فقال له رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

اکتب «هذا ما صالح علیه محمد بن عبد اللَّه سهیل بن عمرو» فجعل یتلکأ ویأبی أن یکتب إلا محمد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: فإن لک مثلها تعطیها وأنت مضطهد، فکتب ما قالوا (۱).

وفی قول: إن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله محاه بنفسه، وهو یقول: «اللهم إنک تعلم أنی رسول اللَّه»

لقد حدث هذا حین دعا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی بن أبی طالب علیه السلام فقال:

اکتب بسم اللَّه الرحمن الرحیم.

فقال سهیل: لا أعرف هذا، ولکن اکتب باسمک اللهم.

فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: اکتب باسمک اللهم. فکتبها.

ثم قال: «اکتب هذا ما صالح علیه محمد رسول اللَّه سهیل بن عمرو؛

۱- انظر: المیزان فی تفسیر القرآن، سورهٔ الفتح.

ص: ۲۰۰

فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول اللّه لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول صلى الله عليه و آله: اكتب هـذا ما صالـح عليه محمد بن عبد اللّه سـهيل بن عمرو، اصـطلحا على وضع الحرب عن الناس عشـر سـنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضـهم عن بعض، على أنه من أتى محمـداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشـاً ممن مع محمـد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسـلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وأنك ترجع عنا عامك هـذا، فلا تـدخل علينا مكـة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصـحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا:

نحن فى عقد قريش وعهدهم..

فلما فرغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله من الكتاب أشهد على الصلح رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين...

وفى رواية أخرى لا تختلف كثيراً عن السابقة، أفاد الشيخ المفيد فى كتابه الإرشاد فى فصل خصّه بصلح الحديبية فقال:...

نزل عليه الوحى بالإجابة إلى ذلك، وأن يجعل أمير المؤمنين عليه السلام كاتبه يومئذ والمتولى لعقد الصلح بخطّه.

فقال لعلى عليه السلام: اكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: ما أدرى ما الرحمن.. إلّا أنّى أظنّه هذا الذى باليمامة، ولكن أُكتب كما نكتب: باسمك اللهم فكتب: باسمك اللّهمّ.

فقال: واكتب: هذا ما قاضى عليه رسولُ اللّه سهيلَ بن عمرو.

فقال سُهيل: فعلام نقاتلك يا محمد؟!

ص: ۲۰۱

فقال صلى الله عليه و آله: أنا رسول اللّه وأنا محمد بن عبد اللّه.

فقال الناس: أنت رسول اللّه.

فقال سهيل بن عمرو: لو علمنا أنك رسول اللّه ما حاربناك. اكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبد اللّه، أتأنف من نسبك يا محمد؟!

فقال رسول اللّه: أنا رسول اللّه وإن لم تُقرّوا. ثم قال: امحُ يا على واكتب: محمد بن عبد اللّه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوة أبداً! فمحاه رسول اللّه بيده. ثم كتب على عليه السلام:

«هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد اللّه والملأ من قريش وسهيل بن عمرو، اصطلحوا على:

وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعض عن بعض، وعلى أنه لا إسلال ولا إغلال، وأن بيننا وبينهم غيبة مكفوفة. وأنه من أحبّ أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل، وأنّ من أحبّ أن يدخل فى عهد قريش وعقدها، فعل.

وأنه من أتى من قريش إلى أصحاب محمد بغير إذن وليّه يردّوه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردّوه إليه.

وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكة، لا يُكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يُعيّر.

وأن محمداً يرجع عنهم عامه هذا، وأصحابه، ثم يدخل فى العام القابل مكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام. ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر: السيوف فى القِراب.

وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار، وكتب على بن أبى طالب.

وقال عبد اللّه بن أبى نجيح: حدثنى مجاهد، عن ابن عباس: أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله «أهدى عام الحديبية فى هداياه جملًا لأبى جهل فى رأسه برة من فضة يغيظ بذلك المشركين».

هذه هى شروط الصلح التى ذكرت فى المصادر التاريخية.... ثم انصرف

ص: ۲۰۲

رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من وجهه ذلک قافلًا، حتی إذا کان بین مکة والمدینة، نزلت سورة الفتح:

«إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبیناً* لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَما تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَیَهْدِیَکَ صِراطاً مُسْتَقِیماً...».

مواقف بعض الصحابة:

لقد خرج أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من المدینة قاصدین مکة، وهم لا یشکّون فی وصولهم وتحقیق هدفهم، أداء العمرة وزیارة البیت الحرام للرؤیا التی رأی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، لقد رأی فی النوم- ورؤیا الأنبیاء صادقة- أنه دخل البیت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح الکعبة...

ولما بلغ المشرکین خروج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلی مکة راعهم ذلک، واجتمعوا له وشاوروا فیه ذوی رأیهم فقالوا: یرید أن یدخل علینا فی جنوده معتمراً فتسمع به العرب وقد دخل علینا عنوة وبیننا وبینه من الحرب ما بیننا! واللَّه، لا کان هذا أبداً ومنّا عین تطرف، فارتاؤا رأیکم... فانتهی الأمر إلی أن یتفاوضوا مع رسولاللَّه صلی الله علیه و آله وکان الصلح وفقراته..

وإذا بالصحابة وقد انقسموا فی مواقفهم بین مؤید لما یقوم به رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ومسلّم له، وبین مغتم ومغتاظ ومشکک بل ومعترض علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وبین من انتابته الهواجس والأوهام وظلّ حبیساً لها:

لقد سمعنا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو یحدثنا عن رؤیاه أنّه یدخل مکّة مع أصحابه لأداء مناسک العمرة! وقد سررنا جمیعاً بها!

إن تعبیر الرؤیا سیتحقق وها نحن نجهز أنفسنا ونسوق هدینا بأمرٍ من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله!

لقد صددنا عن مکة! إذن سندخلها عنوة لأن رؤیا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لا تتخلف.

ماذا جری؟ هو رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یتفاوض معهم؟

ص: ۲۰۳

ألم يكن البناء أن نؤدى العمرة هذا العام؟

يبدو أننا لا ندخل مكة!

ولا نعتمر!

انظر هاهو الصلح يكاد يتم بينهم!

ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا رسول اللّه غير صادقة؟

فأين هذا الوعد؟

وأين صارت رؤياه؟!

ألم نسمع؟

بلى سمعنا!

إنه رسول اللّه وهو أعلم بما يفعل، إنه مسدّد من السماء!

وما علينا إلا الاتباع لما يريد والتسليم بما يراه! وهذا هو الإيمان..

وتوالت هذه الهواجس وراحت تقلقهم وتقضّ عليهم مضاجعهم وتسلب الراحة من نفوسهم...

وهم يسمعون أجوبة رسول اللّه وأقواله:

هل قلت لكم: إنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها..

والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات اللّه تعالى إلا أعطيتهم إياها..

إنى رسول اللّه ولست أعصيه وهو ناصرى..

أنا عبد اللّه ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعنى..

يقول الخبر:

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، أىالصلح، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال:

ص: ۲۰۴

یا أبا بکر، ألیس برسول اللَّه؟

قال: بلی.

قال: أو لسنا بالمسلمین؟

قال: بلی.

قال: أو لیسوا بالمشرکین؟

قال: بلی.

قال: فعلام نعطی الدنیهٔ فی دیننا؟

قال أبو بکر: یا عمر الزم غرزه فإنی أشهد أنه رسول اللَّه.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول اللَّه.

ثم أتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال: یا رسول اللَّه ألست برسول اللَّه؟

قال: بلی.

قال: أو لسنا بالمسلمین؟

قال: بلی.

قال: أو لیسوا بالمشرکین؟

قال: بلی.

قال: فعلام نعطی الدنیهٔ فی دیننا؟

قال: «أنا عبد اللَّه ورسوله لن أخالف أمره، ولن یضیعنی».

فکان عمر یقول ما زلت أتصدق وأصوم وأصلی وأعتق من الذی صنعت یومئذ مخافهٔ کلامی الذی تکلّمت به حتی رجوت أن یکون خیراً.

وکان له کلام آخر، وهو مما جری فی أثناء هذا الصلح أن عمر بن الخطاب سأل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال:

أوَ لستَ کنتَ تحدثنا أنا سنأتی البیت فنطوف به؟

فأجابه: بلی، أفأخبرتک أنک تأتیه عامک هذا؟

قال: لا.

ص: ۲۰۵

قال: فإنك آتيه ومطوّف به.

وكلام ثالث لعمر بن الخطاب: واللّه ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبى صلى الله عليه و آله فقلت: ألست نبى اللّه؟

فقال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطى الدنيّة فى ديننا إذن؟

قال: إنى رسول اللّه ولست أعصيه وهو ناصرى.

قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف حقاً؟

قال: بلى، أفأخبرتك أن نأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

فبينا رسول صلى الله عليه و آله يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وقد كان أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله خرجوا وهم لا يشكّون فى الفتح لرؤيا رآها رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد! قد لجت (تمت) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا؛ قال: صدقت فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أأردّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا

ص: ٢٠٦

عهد اللَّه وإنا لا نغدر بهم».

وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مضطرباً فى الحلّ وكان يصلى فى الحرم، فلما فرغ من الصلح قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، وكان الذى حلقه فيما بلغنى، فى ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعى؛ فلما رأى الناس أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون.

وفى رواية الزهرى: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأصحابه:

قوموا فانحروا ثم احلقوا.

قال: فواللَّه ما قام منهم رجل، حتى قال صلى الله عليه و آله ذلك ثلاث مرات.

فلما لم يقم منهم أحد، دخل صلى الله عليه و آله على أم سلمة رضى اللَّه عنها، فذكر لها ما لقى من الناس.

قالت (أم سلمة) رضى اللَّه عنها: يا نبى اللَّه! أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك.

فخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بيده، ودعا حالقه فحلقه

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

وفى رواية: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأصحابه- بعد ما كتب الكتاب-: انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم فامتنعوا، وقالوا: كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة؟! فاغتم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت: يا رسول اللَّه انحر أنت واحلق. فنحر رسول اللَّه وحلق، فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياب (١).

وعن مجاهد، عن ابن عباس، قال: «حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون.

١- راجع: الميزان للطباطبائى، فقد ذكر المصادر هناك.

ص: ۲۰۷

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: يرحم اللَّه المحلّقين.

قالوا: والمقصّرين يا رسول اللَّه؟

قال: يرحم اللَّه المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول اللَّه؟

قال: يرحم اللَّه المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول اللَّه؟

قال: والمقصرين.

فقالوا: يا رسول اللَّه فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟

قال: لم يشكوا».

وهنا موقف آخر لبعض المسلمين يضاف إلى موقف عمر بن الخطاب، موقف ينطوى على عدم قبول بما أجراه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأن ما وقع لم يحقق لهم ما جاؤوا من أجله فلا خير فيه لهم وما حصل ليس فتحاً..

«وفى الدر المنثور: أخرج البيهقى عن عروة قال: أقبل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

واللَّه ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصدّ هدينا وعكف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالحديبية وردّ رجلين من المسلمين خرجا.

فبلغ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قول رجال من أصحابه: أن هذا ليس بفتح.

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: بئس الكلام. هذا أعظم الفتح، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم فى الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم اللَّه عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح.

«ثم أقبل على عمر (۱) فقال:

۱- انظر: المغازى ۲: ۶۰۹.

ص: ۲۰۸

أنسيتم يوم أحد «إِذْ تصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وأنا أدعوكم فِی أُخْراكُمْ»؟

أنسيتم يوم الأحزاب «إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا»؟ أنسيتم يوم كذا، وجعل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يذكرهم أموراً.

قال المسلمون: صدق اللَّه ورسوله هو أعظم الفتوح، واللَّه يا نبى اللَّه ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم باللَّه وبأمره أو بالأمور منا. فأنزل اللَّه سورة الفتح».

فنزلت الآية الآنفة فى هذا الصدد والنبى صلى الله عليه و آله عائد من الحديبية إلى المدينة، وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة...

تقول الآية: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ» فما رآه النّبى فى المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ تضيف الآية قائلة: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا»، وكان فى هذا التأخير حكمةٌ:

«فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً».

فلما دخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عام القضية وحلق رأسه قال: هذا الذى وعدتكم.

فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: ادعوا لى عمر بن الخطاب! فقال: هذا الذى قلت لكم. فلما كان فى حجة الوداع بعرفة فقال: اى عمر، هذا الذى قلت لكم! قال: اى رسول اللَّه، ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وقالها أبو بكر.. ولكن الناس يعجلون- والكلام ما زال لأبى سعيد الخدرى كما فى مغازى الواقدى- واللَّه تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد اللَّه... (۱)

۱- انظر: فى ظلال القرآن وكتاب المغازى، وما أخرجه البيهقى عن عروة فى الدر المنثور، و الميزان فى تفسير القرآن، فى السورة والآية، والأحاديث فى قصة الحديبية كثيرة...

ص: ۲۰۹

وكانت العمرة

وفعلًا كانت عمرة القضاء، ووقعت طبقاً لإحدى مواد معاهدة الحديبيّة، وهو البند القائل:

«وإنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب، لا تدخلها بغيرها».

إذن أن يرجع المسلمون من مكانهم دون أن يدخلوا مكة، ولهم أن يأتوا فى العام المقبل معتمرين، وتخلى لهم قريش مكة لمدة ثلاثة أيام ليعتمروا فيها ولا يزعجهم أحد، ثم بعد ذلك يخرجون ويرجعون من حيث أتوا. هذا من شروط الصلح المهمة.

وأصبح من المقرر أن يؤدّى المسلمون العمرة وزيارة بيت اللّه فى العام المقبل على أن لا يمكثوا فى مكّة أكثر من ثلاثة أيام، وفى الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة ورؤساء قريش أيضاً، لئلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين، ولئلا يروا المسلمين

ص: ۲۱۰

يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر عبادتهم للواحد الأحد بعيداً عن آلهتهم المتعددة، التى بلغت- كما فى بعض الأخبار- ۳۶۰ صنماً ووثناً فى ساحة المسجد الحرام وفى المسعى وعلى الصفا والمروة وهنا وهناك من المسجد الحرام..

ما إن انتهى عامٌ على بنود الصلح، إنه عام واحد، عام لا غير من صلح الحديبية، حتى أصبح للمسلمين الحق فى دخول مكة للعمرة حسب اتفاقهم مع قريش فى العام السابق، فأمر رسول اللّه المسلمين أن يستعدوا لزيارة الكعبة، فالمهاجرون كانوا يتمنّون هذا اليوم بعد سبع سنوات بعيدين فيها عن مكة، أما الأنصار فكانوا يتمنون أيضاً زيارة الكعبة كما كانت لهم تجارة مع قريش وأموال لعلهم ينتفعون بها من تلك التجارة..

وذلك أنه لما أهلّ هلال ذى القعدة يعنى فى سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة، أمر صلى الله عليه و آله أصحابه أن يعتمروا وفقاً للبند المكتوب فى الصلح، وأن لا يتخلّف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف عنهم أحد منهم إلا رجالٌ استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا..

فخرج صلى الله عليه و آله بعد أن استعمل على المدينة أباذر الغفارى، وقال ابن هشام:

واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الديلى، وعند الواقدى: إن الذى استعمل على المدينة أبو رهم.. وأما الحاكم فيذهب إلى أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله استخلف على المدينة عُوَيف بن الأضْبَط الدِّيلى، أو أبا رُهْم الغفارى (۱).

وخرج مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله قوم من المسلمين للعمرة، فكان مجموع من خرج فى عمرة القضاء ألفين من المسلمين، فقال رجال من حاضر المدينة من العرب:

واللّه يا رسول اللّه، ما لنا من زاد وما لنا من يطعمنا. فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله المسلمين أن ينفقوا فى سبيل اللّه، وأن يتصدقوا، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا. قالوا:

يا رسول اللّه! بم نتصدّق وأحدنا لا يجد شيئاً؟

۱- انظر: السيرة النبوية لابن هشام والهامش ۴: ۱۲، والمستدرك للحاكم..

ص: ۲۱۱

قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: بما کان، ولو بشق تمرهٔ، ولو بمشقص (فصل السهم إذا کان طویلًا غیر عریض) یحمل به أحدکم فی سبیل اللَّه. فأنزل اللَّه عز وجل فی ذلک:

«أَنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَهِٔ» (۱)

نزلت هذه الآیهٔ فی ترک النفقهٔ فی سبیل اللَّه تعالی.

وساق صلی الله علیه و آله ستّین بدنهٔ، وقد قلّدها، وأحرم من مسجد المدینهٔ، وأحرم معه المسلمون، ولبّی ولبّی معه المسلمون، واتّجهوا بتلبیتهم نحو مکّهٔ، وذلک بعد أن جعل علی هدیه ناجیهٔ بن جندب الأسلمی.

وحیث إن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لم یکن یأمن مباغتهٔ قریش وغدرهم به وبأصحابه فی أرض مکهٔ، أمر مائتی رجل من المسلمین بأن یحملوا معه السلاح والدروع والرماح، وحملهم علی مائهٔ فرس، وأمّر علیهم محمد بن مسلمهٔ وأمرهم أن یتقدّموه إلی منطقهٔ (مرّ الظهران) قریباً من الحرم وینتظروا قدومه هناک.

فلمّا علمت قریش بذلک أرسلوا من یقول لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله بأن من شروطهم علیه: أن لا یدخل مکهٔ إلا بسلاح المسافر. فأجابه صلی الله علیه و آله: «نعم لا ندخلها إلا کذلک، ولکن یکون هؤلاء قریبین منّا» وبذلک سدّ صلی الله علیه و آله طریق الغدر علی قریش.

ثم دخل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ومن معه بسلاح المسافر وهم یلبّون. وفعلًا ما إن علمت قریش بقدوم الرسول و الصحابهٔ و المهاجرین و الأنصار إلی مکهٔ حتی أسرعت بالخروج من مکهٔ إلی رؤوس الجبال وأخلوا لهم مکهٔ، وقیل: إنه کان ذلک لئلّا یروه، عداوهًٔ للَّهولرسوله واحتاطت لنفسها و عسکرت أیضاً فوق التلال المحیطهٔ بمکهٔ وتجمّع رجالهم ونساؤهم وصبیانهم فی مکهٔ وتزاحموا؛ لیروا هذا النبی القائد یحیط به المهاجرون والأنصار، وأثار هذا التجمع الحسد والبغض والغیظ لدی بعض أئمهٔ الکفر، فخرج عدد منهم إلی الجبال حتی لا یروا هذا الموقف العظیم،

۱- البقرهٔ: ۱۹۴.

ص: ۲۱۲

وتناقل بعض المغرضين أخباراً كاذبة عن أحوال المسلمين، وزعموا أن حُمّى يثرب وهنتهم وغيرها من الشائعات المغرضة التى بثوها هنا وهناك؛ ليوهنوا أمر المسلمين ويصوروهم على أضعف حال وانهم لم يجنوا من اتّباعهم لمحمد إلا الضعف والهوان والفقر..

وراحت قريش تتحدث فيما بينها أن محمداً صلى الله عليه و آله وأصحابه فى عسرة وجَهْد وشدة، حتى إذا دخل مكة صفَّ له المشركون عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه وأحوالهم، فلما دخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال:

«رحم اللَّه امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة».

ثم استلم الركن والحجر الأسود، وخرج يهرول هو ويهرول معه أصحابه.

و طاف بهم الرسول صلى الله عليه و آله فى عزّ وقوة حول الكعبة، حتى إذا واراه البيت من المشركين المحدقين به واستلم الركن اليمانى مشى حتى الحجر الأسود.

حتى قال أهل مكة من الكفار- كما ذكرنا ذلك- وهم ينظرون فى دهشة إلى المسلمين وقوتهم: هؤلاء هم الذين قلتم: إن حُمَّى المدينة أضعفتهم؟!

فوسوس لهم الشيطان!!

فى مؤامرة خطط لها المشركون بعد أن أوحى لهم الشيطان كيده حيث تجمع كفار قريش على قعيقعان وهو: الذى يطل على الكعبة من جهة الحِجْر، وقبل أن يبدأ المسلمون بالطواف، جاء الشيطان إلى هؤلاء الكفرة المردة وقال لهم:

أين أنتم؟ ها هم المسلمون قد جاءوا، وقد أنهكتهم حمى يثرب، وأضناهم طول السفر، فلو ملتم عليهم ميلة رجل واحد لقضيتم عليهم.

وتم هذا التآمر بين الشيطان وبين أعوانه وأتباعه الغدرة للقضاء على المسلمين فى ذلك الوقت وفى ذلك المكان.. وهؤلاء الكفار لو تسلطوا عليهم بالنبل من فوق الجبال بل حتى ولو بالحجارة لقضوا عليهم للأسباب التالية:

ص: ۲۱۳

- لأن موقع الكعبة والمسجد الحرام منخفض بل فی أخفض مكان فی مكة، ترتفع الجبال من حوله، وتأتيه السيول من كل جانب، فلو أن المشركين نفذوا مخططهم لقضوا عليهم..

- ولأن المسلمين عزّل، فقد اشترط عليهم أهل مكة أن لا يأتوا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف فی القراب.. ثم ليس هناك موالٍ قريب ليمدّ المسلمين بالمدد، والرسول صلی الله عليه و آله كان قد جاء بالسلاح معه، وتركه فی العيس، وترك حراساً عليه، ولكن لو انقضّوا عليهم فلن يجد المسلمون وقتاً ليأتوا بالسلاح!

- وهنا أمر مهم، وهو ما كان يعتقده المشركون فيزيد فی معنوياتهم: أن المسلمين ضعاف وأنهم أصابهم الهزال والضعف من آثار حمّی يثرب، وهذا كان أمراً معروفاً فی الجاهلية، فقد كانوا يعتقدون فی الجاهلية أن من دخل المدينة تصيبه الحمی، فإذا أراد أن يسلم من الحمی فعليه أن يقف عند بابها وينهق ثلاث مرات، فإذا ما نهق ثلاث مرات فی اعتقادهم فإنها تشرد عنه الحمی، إذن الحمی كانت مشهورة عندهم، ويقول العلماء المتأخرون: هذا أمر طبيعی؛ لأن المدينة كانت مليئة بمياه السيول، وكانت العيون تفيض علی وجه الأرض، فينتج عن ذلك غدران ومستنقعات الماء، ومستنقعات الماء فی العالم إنما هی حواضن للبعوض، والبعوض هو الذی يسبب الحمی وينقلها. إذاً كانت المدينة موطناً طبيعياً للحمی.

أروهم اليوم من أنفسكم قوة

فكان الحلّ من رسول اللّه صلی الله عليه و آله أنه أخبر المسلمين بتآمر المشركين مع الشيطان.. بعد أن جاءه جبريل عليه السلام وأخبره أن المشركين قد تآمروا بكذا وكذا..

وانطلاقاً مما يتمتع به صلی الله عليه و آله من فكر ثاقب، ونور النبوة، قال لأصحابه:

إن المشركين تآمروا عليكم بكذا وكذا بسبب كذا، فأروهم من أنفسكم اليوم قوة، يعنی: اقلبوا عليهم ظنّهم، كما يقال: اعكسوا عليهم الفكرة، فهم يقولون: إنكم ضعاف بسبب الحمی، وإنكم منهكون بسبب طول السفر من المدينة إلی مكة، فإذا رأوكم كذلك فإنهم سيطمعون فيكم ويتحقق فيكم القول، ولكن اعكسوا عليهم

ص: ۲۱۴

الفكرة، وبماذا تعكس؟ قال: «أروهم اليوم من أنفسكم قوة».

وليس المراد الدخول معهم بمعركة عند البيت، وإنما المراد أروهم القوة وأنتم تؤدون عمرتكم..

الاضطباع والرمل

فأمرهم بالاضطباع، وهو: جعل وسط الرداء تحت الإبط الأيمن، وطرفيه على الكتف الأيسر، يعنى: شمروا، وهذه هى هيئة الإنسان الذى يريد أن يعمل، وأمرهم بالرمل، أى‌بالهرولة من بداية الطواف التى تكون من عند الحجر الأسود، فكانوا يرملون من عند ه ويطوفون بالبيت من وراء حجر إسماعيل إلى أن يأتوا إلى الركن اليمانى، يعنى: ثلاثة أركان من أركان الكعبة يقطعونها هرولة، وإذا وصلوا إلى الركن اليمانى ودخلوا فى ظل الكعبة وسترتهم الكعبة عن أعين أهل مكة الذين ينظرون إليهم من المقابل، فيمشون على مهل ليكون ذلك أرفق بهم ليستأنفوا الشوط الثانى بنشاط، ولو كانت الهرولة فى الأشواط الثلاثة كاملة فقد يظهر عليهم الضعف فى الآخر، ولو كانت الهرولة فى الأشواط السبعة لكان ذلك شاقاً عليهم، ولكن حينما تبدأ طائفة بالهرولة ثم تتبعها طائفة أخرى فى الهرولة تكون الطائفة الأولى قد أنهت الشوط الأول، والطائفة الثالثة تبدأ، وإذا جاءت الطائفة الرابعة تكون الثانية قد انتهت، وهكذا تستمر الهرولة طيلة مدة الطواف، وإن كان الكل لم يهرول السبعة أشواط.

وكذلك أمرهم أن يمشوا ما بين الركن اليمانى والحجر الأسود إرفاقاً بهم من أن يواصلوا الشوط كاملًا، وهكذا الشوط الثانى والثالث حتى لا ـ يظهر عليهم الإعياء. وهذا الأمر بالرمل التحقيق أنه كان فى عمرة القضية، وكان من أجل إظهار القوة، وإحباط فكرة المشركين.

فلم يزل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يلبّى حتى استلم الركن بمحجنه، وكان دخوله مكة من الثنيّة التى تطلعه على الحجون، والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم،

ص: ۲۱۵

وعبداللّه بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله إنى شهدت أنه رسوله

حقاً وكل الخير فى سبيله (نحن قتلناكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله)

هـذان نسبا خطأ لابن رواحة، لأنهما لعمار بن ياسر قالهما فى صفين، والمشركون فى مكة بعد لم يقروا بالتنزيل حتى يقتلوا على التأويل:

قد أنزل الرحمن فى تنزيله بأنّ خير القتل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله إنى رأيت الحق فى قبوله

ثم طاف رسول اللّه صلى الله عليه و آله بالبيت الحرام على راحلته، وطاف المسلمون معه، وأمر عبداللّه بن رواحة أن يردّد هذا الدعاء والمسلمون يردِّدونه معه ويقولون:

«لا إله إلّا اللّه وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده».

وكانت الكعبة على موعد مع الأذان

فما أن قضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله نسكه حتى دخل البيت الحرام وما أن حان وقت الظهر، حتى أمر بلالًا ليرتقى ظهر الكعبة مؤذناً.. وأقام صلى الله عليه و آله الصلاة بأصحابه على مسمع ومرئ من المشركين وزعمائهم الذين هالهم هذا الموقف وأربكهم فى عقر دارهم... إنه حقاً لأعظم موقف و فتح فى الإسلام...

وما أن سمع كرمة بن أبى جهل بلالًا يصدح صوته بفصول الأذان حتى قال:

لقد أكرم اللّه أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول! فيما قال صفوان بن أمية: الحمد للّهالذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا!

وقال خالد بن أسيد: الحمد للّهالذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم. حين يقوم

ص: ۲۱۶

بلال بن أم بلال ينهق فوق الكعبة! وأما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا ذلک غطوا وجوههم.

حقاً بان غيظهم وبدت أضغانهم واستغشوا ثيابهم وازدادوا غماً....

ثم إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما أراد السعى بين الصفا والمروهٔ ورأى قريشاً قد اصطفوا له لينظروا إليه وإلى أصحابه قال لأصحابه:

رحم اللَّه امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّهٔ، ثم أخذ يهرول فى سعيه فى المكان المعلوم الآن فى المسعى، وأخذ المسلمون يهرولون معه فيه؛ ليرى المشركون جلدهم وقوّتهم.

فسعى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومن معه سبعاً، حتى إذا فرغ من السعى أتمّ نسکه ثم خرج من إحرامه، وکذلک فعل المسلمون.

وبعد ذلک أمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مائتين من أصحابه الذين قضوا مناسکهم أن يذهبوا إلى أصحابهم بمرّ الظهران، فيقيموا على السلاح حتى يأتى الآخرون فيقضون نسکهم، ففعلوا.

ولم يسمح المشرکون لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله بدخول الکعبهٔ، وقد أرسل صلى الله عليه و آله إليهم فأبوا وقالوا: لم يکن من شرطک.

الرحيل من مکهٔ

ولما مضى على دخوله صلى الله عليه و آله مکهٔ ثلاثهٔ أيام- وهى المدهٔ التى تمّ الاتفاق عليها مع قريش- قضى فيها المسلمون عمرتهم، وزار فيها المهاجرون ديارهم و ذويهم فى مکهٔ.. فلما انقضت المدهٔ المتفق عليها بين الطرفين فى صلح الحديبيهٔ، أتت قريش عليّاً عليه السلام فقالوا له: قل لصاحبک أخرج عنّا فقد مضى الأجل.

وفى روايهٔ: فلما کان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو، وفى قول:

حويطب بن عبد العزى ونفر آخرون معه وقالوا: إنه قد انقضى أجلک فاخرج عنّا.

فقال النبى صلى الله عليه و آله: وما عليکم لو ترکتمونى فأعرست بين أظهرکم، وصنعنا لکم

ص: ٢١٧

طعاماً فحضرتموه؟

قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك، اخرج عنا! ننشدك اللّه يا محمد والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت.

وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم ينزل بيتاً، وضربت له قبة من الأدم بالأبطح فكان هناك حتى خرج منها. لم يدخل تحت سقف بيت من بيوتها..

فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبى صلى الله عليه و آله فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك! واللّه لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً.

فتبسّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم قال: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا...

فأمر أبا رافع ينادى بالرحيل، وقال:

لا يمسينّ بها أحد من المسلمين.

فخرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف، وهى على بُعد عشرة أميال من مكّة، فبنى بها رسول اللّه صلى الله عليه و آله هنالك، ثم أدلج رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى قدم المدينة فى ذى الحجة.

والسيدة ميمونة شقيقة زوجة عمه العباس.. وأمر الزواج هذا وقع بعد أن عزم رسول اللّه صلى الله عليه و آله على ترك مكّة والعودة إلى المدينة فأقبل إليه عمّه العبّاس فى رسالة من شقيقة زوجته ميمونة بنت الحارث اخت ام الفضل زوجة العباس، وكانت أرملة من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين، حيث قد أعجبها ما شاهدته من رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فأرسلت إليه عبر العباس تعرض عليه رغبتها فى الزواج منه، فوافق رسول اللّه صلى الله عليه و آله على ذلك، فلعله يقوّى عبر زواجه هذا أواصره بقريش ويستميل قلوبهم إليه، ويخفّف من غلوائهم وبغضائهم.. ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره فى نفوذ أمر النّبى فى قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه.

وقد خلّف أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسى، وأقام بسرف، وتتام الناس، و حتى قدمت ميمونة ومن معها، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم، حيث لاموا ميمونة على رغبتها فى الزواج من رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأرادوا

ص: ۲۱۸

منهـا أن تنصـرف عن ذلك، لكنها أبت عن إجابتهم وأصـرّت على إرادتها، وكانت على ما قيل: هى آخر من تزوّجه رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وآخر من مات من أزواجه.

وبينما الرسول صـلى الله عليه و آله وحوله أصـحابه عائدون، إذا بفتاة تخرج من مكة، تجرى خلفهم وتنادى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قائلة: يا عم. يا عم.

إنها ابنة حمزة سيد الشهداء الذى استشهد فى أحد، فأخذها على بن أبى طالب، وسلّمها إلى السيدة فاطمة زوجته، وإذا بزيد بن حارثة وجعفر يتنافسان على أيهما أحق بكفالتها.

فقال جعفر: ابنة عمى وخالتها زوجتى.

وقال على: أنا أخذتها وهى بنت عمى.

وقال زيد: ابنة أخى؛ لأن النبى صلى الله عليه و آله قد آخى بين زيد وحمزة.

فحكم النبى بأن تكون مع جعفر وزوجته.

وقال: «الخالة بمنزلة الأم»..

و قد أسلم بعد هذه العمرة المباركة مباشرة جمعٌ من المشركين ممن بهرت أنظارهم قوة الإسلام و المسلمين..

و صـدق اللَّه رسولَه بمـا وعـد به المسـلمين، وقـد تحقّقت رؤيـاه التى أراه اللَّه تعـالى فى منامه قبل عام تقريباً، وكتب اللَّه له ولمن معه دخول البيت والطواف به..

فنزلت الآية الكريمة ۲۷ من سورة الفتح، وهى تحمل بشائر عديدة، وهو ما سنراه عبر أقوال بعض المفسرين بعد قليل.

الرمل والاضطباع بين اللغة والفقه الإسلامى

الرمل لغة: الهرولة.. وفى الطواف: هو أن يمشى سريعاً يهز فى مشيته الكتفين كالمبارز بين الصفين.

والاضـطباع من اضـطبع بـالثوب ونحوه: أدخله من تحت إبطه الأـيمن، وردّ طرفه، فألقاه على عاتقه الأيسـر، وبـدا منكبه الأيمن وتغطى الأيسر. وكان يفعل

ص: ۲۱۹

ذلک من يريد أن ينشط للعمل (۱).

مع أن سبب الرمل قد زال وهم يقولون بذلک إلا أنهم جعلوا من سنن الطواف عندهم أن يرمل الطائف فی الأشواط الثلاثة الأولی فی کل طواف، بأن يسرع مشيه مقارباً خطاه، ويمشی فی الباقی من طوافه علی هينته، ويروون أن رجلًا سأل الخليفة الثانی عمر بن الخطاب فی خلافته وقال: يا أمير المؤمنين! فی نفسی شیء، رملنا لما کنا خائفين، يعنی: أوّل ما رملنا، فعلامَ الرمل الآن؟

قال: يا ابن أخی! حج رسول اللّه، وطاف ورمل فرملنا.

ولما رواه الشيخان عن ابن عمر: «کان رسول اللّه صلی الله عليه و آله إذا طاف بالبيت طواف الأول خبّ ثلاثاً، ومشی أربعاً، وليقل أثناء الرمل: اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وسعياً مشکوراً».

ويضطبع الذکر- ولو صبياً- فی الطواف والسعی علی الصحيح اتّباعاً للسنة، وهو جعل وسط ردائه تحت منکبه الأيمن وطرفيه علی الأيسر. ولا ترمل المرأة ولا تضطبع. ومن سنن السعی أن يمشی ثم يرمل بين الميلين الأخضرين.. (۲).

والرسول صلی الله عليه و آله حينما فتح مکة سنة ثمان، يعنی: بعدها بسنة واحدة، حينما طاف بالعمرة التی أهلّ بها من حنين عند عودته من الطائف من ثقيف، رمل ومکة فتحت فی العام الثامن، وهو اعتمر فی نفس العام بعد الفتح، وقد أصبحت مکة فی إمرة رسول اللّه وله عليها أمير، ومع ذلک رمل، وفی حجة الوداع سنة عشر من الهجرة حج وطاف بالبيت ورمل.

إذن، العلة کانت موجودة فی أوّل رمل، وبعد ذلک انتفت تلک العلة ولم تعد موجودة، أیلم تکن العلة موجودة فی الحج، ولم يکن هناک خوف ولا مؤامرة، ولکن أمر شرع فاستمرّت مشروعيته. وعلی هذا يتفقون علی أن الرمل يکون فی

۱- انظر: القاموس الفقهی لغةً واصطلاحاً لسعدی أبو جيب.

۲- انظر: وهبة الزحيلی، الفقه الإسلامی وأدلّته ۳: ۱۰۴- ۱۰۵، وغيره.

ص: ۲۲۰

الطواف الأول الذى يعقبه سعى، وهذه قاعدة: أن كل طواف يعقبه سعى ففيه رمل، وكل طواف بدأ به الحاج أو المعتمر فإن فيه رملًا، فالذى يأتى مفرداً الحج سيطوف طواف القدوم، وله أن يسعى بعده سعى الحج، ففى طوافه رمل، والذى يأتى معتمراً فإنه سيأتى ويطوف، وطوافه ركن فى العمرة، وبعده سعىٌ ففى طوافه رمل.

وأما طواف الإفاضة، فمن كان قد سعى قبل عرفات فلا سعى عليه، وعلى هذا لا رمل فيه.

وأما طواف الوداع فلا سعى بعده وعلى هذا لا رمل فيه.

وهكذا أصبح الرمل مشروعاً فى أول طواف يطوفه الناسك حاجاً كان أو معتمراً، وإن كان قد انتهى سببه وانقطعت علته، إلا أنه أمر شرع وداوم عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله وفعله مع انتفاء العلة، وهو الذى يقول الأصوليون فيه الاعتراض أو الإيماء، وهو بقاء الحكم مع انتفاء العلة.

ص: ۲۲۱

موقف الإمامية

وأما ما ورد من أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رمل فى الطواف، فهو قضية فى واقعة لإظهار جلادة أصحابه فى الجملة، ولا يستفاد منها الاستحباب، وفى نوادر ابن عيسى عن أبيه قال: «سئل ابن عباس فقيل: إن قوماً يروون أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر بالرمل حول الكعبة فقال: كذبوا وصدقوا. فقلت: وكيف ذلك؟

فقال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دخل مكة فى عمرة القضاء وأهلها مشركون وبلغهم أن أصحاب محمد مجهودون، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: رحم اللَّه امرأً أراهم من نفسه جلداً، فأمرهم فحسروا عن أعضادهم ورملوا بالبيت ثلاثة أشواط، ورسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله على ناقته، وعبد اللَّه بن رواحة اخذ بزمامها والمشركون بحيال الميزاب ينظرون إليهم، ثم حج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد ذلك فلم يرمل ولم يأمرهم بذلك، فصدقوا فى ذلك، وكذبوا فى هذه».

وعن زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الطواف: أيرمل فيه الرجل؟

فقال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما أن قدم مكة وكان بينه وبين المشركين الكتاب الذى قد علمتم، أمر الناس أن يتجلّدوا وقال: أخرجوا أعضادكم، وأخرج رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، ثم رمل بالبيت ليريهم أنه لم يصبهم جهد، فمن أجل ذلك يرمل الناس، وإنى لأمشى مشياً، وقد كان على بن الحسين عليه السلام يمشى مشياً».

وفى نوادر أحمد بن عيسى عن أبيه عن جده قال: «رأيت على بن الحسين عليه السلام يمشى ولا يرمل».

والمراد من الرمل: الهرولة على ما يستفاد من أقوال اللغويين (۱).

وقفة

لم أجد فيما تيسّر لى من مصادر تاريخية وتفسيرية وروائية إلا الشروط التى ذكرت فيما تضمنته لائحة الصلح بين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومشركى مكة، والتى ذكرناها

۱- انظر: وسائل الشيعة، باب ۲۹ من أبواب الطواف، الأحاديث ۲، ۵، ۴.

ص: ۲۲۲

أعلاه، إلا خبراً ذكره تفسير العياشى- وهو من تفاسير الإمامية- عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

عن بعض أصحابنا، عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: سألته عن السعى بين الصفا والمروة فريضة هو أو سنّة؟ قال: فريضة، قال: قلت: أليس اللَّه يقول: «فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» قال: كان ذلك فى عمرة القضاء، وذلك أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان شرطه عليهم أن يرفعوا الأصنام، فتشاغل رجل من أصحابه حتى أعيدت الأصنام فجاؤا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. فسألوه وقيل له: إن فلاناً لم يطف وقد أعيدت الأصنام، قال:

فأنزل اللَّه «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما»، أىوالأصنام عليهما (۱).

قال الفيض (رحمه اللَّه) فى الوافى: يعنى شرط على المشركين أن يرفعوا أصنامهم التى كانت على الصفا والمروة حتى ينقضى أيام المناسك، ثم يعيدوها، فتشاغل رجل من المسلمين عن السعى حتى انقضت الأيام وأعيدت الأصنام، فزعم المسلمون عدم جواز السعى حال كون الأصنام على الصفا والمروة.

والذى يبدو لى أن هذا الشرط لم يكن مع بنود الصلح، وإنما جاء بعد ذلك عندما أراد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يسعى بين الصفا والمروة طلب من قريش أن يرفعوا أصنامهم، ويمكن أن يستفاد هذا مما جاء فى تفسير القمى: «فإن قريشاً كانت وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة وكانوا يتمسّحون بها إذا سعوا فلما كان من أمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما كان فى غزاة الحديبية وصدّه عن البيت، وشرطوا له أن يخلوا له البيت فى عام قابل حتى يقضى عمرته ثلاثة أيام ثم يخرج عنها، فلما كان عمرة القضاء فى سنة سبع من الهجرة دخل مكة وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بين الصفا والمروة وقد

۱- بحار الأنوار ۲۱: ۵۴؛ والبرهان ۱: ۱۷۰.

ص: ۲۲۳

رفعت الأصنام، وبقى رجل من الطواف ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة، فجاء الرجل الذى لم يسع إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: قد ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة ولم أسع، فأنزل اللَّه عزوجل: «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» والأصنام فيه...

فهذه العبارة تبيّن أن طلب الرفع كان ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى مكة: «فلما كان عمرة القضاء فى سنة سبع من الهجرة دخل مكة وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله..»

إذن هو طلب متأخر. وإلا لو كان موجوداً ومتفقاً عليه لذكرته لائحة الصلح، وليس هناك مصلحة فى إخفائه وفى عدم تدوينه ونقله، بل بالعكس هو شرط لصالح المسلمين..

ثم إن الكلام يقع فى مدى استجابتهم، والذى أميل إليه أنه حتى لو طلب ذلك منهم فإنهم لم يستجيبوا له، لأنه طلب منهم أن يسمحوا له بدخول الكعبة، وهو أمر أيسر عليهم من قلع أصنامهم وإخلاء البيت أو المسعى منها لتعلقهم بها وأنها رمزعبادتهم وقدّموا فى سبيلها كل غال من دماء وأموال فأبوا وقالوا: لم يكن فى شرطك.. ورفضوا طلبه الآخر: «وما عليكم لو تركتمونى فأعرس بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك...».

ثم إن رفعها ثم إعادتها ليس أمراً سهلًا خصوصاً وأن عددها ليس بالقليل (۳۶۰ صنماً) فى المسجد والمسعى مرصّصة بالرصاص، كما تذكر بعض مصادر التاريخ (۱). وأيضاً لو طلب منهم رفعها لنقلت الأخبار ذلك كما نقلت لنا طلبه لدخول البيت فهو أمر ليس بالهيّن والبسيط حتى يتغافل عنه.

ثم هناك رواية أخرى تقول: قال أبوعبداللَّه فى خبر حماد بن عثمان: إنه كان

۱- منها المغازى ۲: ۸۳۲.

ص: ۲۲۴

على الصفا والمروة أصنام فلما أن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون، فأنزل اللّه هذه الآية، فكان الناس يسعون والأصنام على حالها، فلما حج النبى صلى الله عليه و آله رمى بها (۱).

والأمر إما يحتاج إلى معالجة. وإما إلى الأخذ بهذه الرواية، خصوصاً وهى مؤيدة بما لم تختلف عليه المصادر فى نقلها لبنود الصلح ولم تذكر شرط رفع الأصنام كبند من البنود المتفق عليها بين الطرفين..

وفى تفسير التبيان للشيخ الطوسى:

وإنما قال: «فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» وهو طاعة، من حيث إنه جواب لمن توهّم أن فيه جناحاً، لصنمين كانا عليه: أحدهما إساف، والآخر نائلة، فى قول الشعبى، وكثير من أهل العلم. وروى ذلك عن أبى جعفر وأبى عبداللّه عليهما السلام..

وكان ذلك فى عمرة القضاء ولم يكن فتح مكة بعد، وكانت الأصنام على حالها حول الكعبة، وقال قوم: سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما، فكره المسلمون ذلك خوفاً أن يكون من أفعال الجاهلية، فأنزل اللّه تعالى الآية. وقال قوم عكس ذلك:

إن أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعى بينهما، فظنّ قوم أن فى الإسلام مثل ذلك، فأنزل اللّه تعالى الآية. وجملته أن فى الآية رداً على جميع من كرهه، لاختلاف أسبابه. ومثله فى مجمع البيان: «.. فكان الناس يسعون والأصنام على حالها فلما حجّ النبى صلى الله عليه و آله رمى بها».

وفى أسباب النزول للواحدى يذكر ابن عباس فى ذيل رواية عنه:

... فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما- بين الصفا والمروة- لأجل الصنمين؛ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية «إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ...».

أى إن كرههم وقع بعد فتح مكة وتكسير الأصنام لأنهما كانا مكاناً لها.

۱- بحار الأنوار ۲۱: ۵۵؛ والبرهان ۱: ۱۷۰.

ص: ٢٢٥

مع تفسير الآية المباركة

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً» (١).

هذه الآية المباركة جاءت مصدقةً لرؤيا النبى صلى الله عليه و آله، ولترسم نتيجة مهمة من نتائج قصة الحديبيّة، فحملت بشائر طالما اشرأبت لها الأعناق فاستيقنتها نفوس وانتظرتها أخرى واستعجلها قوم آخرون...

إن عمرة القضاء (هذا الوعد الربانى النبوى) التى أداها رسول الرحمة صلى الله عليه و آله والمسلمون، ما كانت إلا تمهيداً لبيعة الرضوان ولفتح مكة فيما بعد، ولفتح خيبر قبلها... فقد ترك هذا الحدث آثاراً كبيرة على الوضع النفسى والاجتماعى وأيضاً السياسى لكلا الطرفين، فالوضع الإسلامى صار يتمتع أبناؤه بالقوة والتفاؤل بانتشار دينهم والقضاء على الشرك والمشركين وعلى أعدائهم المنتشرين من القبائل العربية وآخرين يحيطون بهم، وبالعودة إلى بلدهم الذى هجّروا منه قسراً وهو مكة المشرفة، وهم رافعو الرؤوس ينشدون أناشيد النصر والخلاص من الكفر والشرك والظالمين وأصنامهم وأوثانهم وطغيانهم.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، إنّ مشاهدة قريش للعدد الكثير من المسلمين الأنصار والمهاجرين وهم محدقون برسول اللّه صلى الله عليه و آله فى طوافهم وسعيهم وباقى مناسكهم، وما كانوا عليه من حماس ونشاط، لم يكن يتوقعه المشركون رغم كل محاولاتهم إجهاض مظهر العز والقوة اللتين يتمتع بهما المسلمون، وكان لذلك أبلغ الأثر فى نفوسهم، فقد داخلتهم الرهبة والهيبة من المسلمين، إذ فوجئوا بأمر لم يكونوا يألفوه، بل لم يكونوا يتوقعوه..

حتى ورد عن ابن عباس: «أن المشركين لما رأوا رمَل المسلمين (والرَمَل هو

١- الفتح: ٢٧.

ص: ۲۲۶

الإسراع فی المشی مع مقاربة الخُطا) حول الکعبة، قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذین زعمتم أن الحمّی قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد من کذا وکذا».

إذن، کان ولا ریب لعمرة القضاء- وبالشکل الذی تمت به وبالصورة التی انتهت إلیها وما ترکته من ثمار وانتصارات توالت بعدها- آثار بالغة فی نفوس المشرکین فی الجزیرة العربیة وما حولها، مهّدت لفتح مکة فیما بعد ذلک..

إن صلح الحدیبیة- وکما وصفه الکتاب العزیز ووصف نتائجه عبر سورة سمّیت بسورة الفتح- کان فتحاً مبیناً وفوزاً عظیماً ونصراً عزیزاً ومغفرة وهدایة ونعمة تامة...: «إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً* لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِراطاً مُسْتَقِیماً* وَیَنْصُرَکَ اللَّهُ نَصْراً عَزِیزاً* هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ وَللَّه جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَکانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً* لِیُدْخِلَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَیُکَفِّرَ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَکانَ ذلِکَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِیماً* وَیُعَذِّبَ الْمُنافِقِینَ وَ الْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِکِینَ وَالْمُشْرِکاتِ الظَّانِّینَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَیْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِیراً* وَللَّه جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَکانَ اللَّهُ عَزِیزاً حَکِیماً* إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِیراً* لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَأَصِیلًا» (۱).

کما أن هناک دلالات وأهداف وبصمات کبیرة من هذا الحدث ترکه علی مسیرة الدین وأهله من خلال الإعداد الصحیح للمسلمین، لیثمر هذا الإعداد عن قوة معنویة وقوة مادیة علی حد سواء تثبت قواعد المؤمنین، وإبرازهما فی الوقت المناسب لتتحقق لهم هیبة ورهبة فی قلوب أعدائهم المتربصین بهم، وتغیظ جمیع أعدائهم والمتآمرین علیهم وتضعف معنویاتهم...

۱- الفتح ۱- ۹.

ص: ۲۲۷

هذا وإن ما أصاب بعض الصحابة ممن سمعوا رؤيا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد كانوا مستبشرين بتحققها من تشكيك وارتياب آذى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد الذى حدث فى الحديبية من الصلح، وعدم تحقق الرؤيا فى سنتها، وهم قد استعدوا لدخول مكة لولا منع المشركين، وما حصل من اتفاق وإبرام صلح، ومنه أن لا يدخلوا المسجد الحرام إلا فى عامهم القادم. يؤكد اللَّه تعالى لهم أن هذه الرؤيا منه وهى صادقة، وأنها لا تتخلف بل هى واقعة بعد حين، وأنها تحمل نتائج كبيرة وانتصارات، وأن خوفهم وهلعهم لا مبرر له إلا ضعف إيمانهم وعدم وعيهم لخطوات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولما يأتيهم به فثقلت على نفوسهم تفاصيلها وما انتهت إليه من بنود.. فأعادوا النظر بوضعهم الإيمانى هذا، وهى درس بليغ لهم يربيهم على الطاعة المطلقة للَّه تعالى ولرسوله وعلى الامتثال البعيد عن التردد، وعلى الاستسلام الخالى من الارتياب.. وأعلنوا ندمهم على ما ظهر منهم وما سبّبوه من ألم لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله. وأن الطاعة الصادقة يجب أن تتجذر فى قلوبهم ونفوسهم، وأنها من أهم واجبات الإيمان بغض النظر عن العواقب ودون النظر إلى ما يترتب من ربح أو خسارة...

فيما تلقى المنافقون الذين أضمروا السوء وأن لا عودة للرسول ولمن معه إلى المدينة وإلى أهليهم فهم ذاهبون إلى حتفهم.. ولم يعلموا أن اللَّه تعالى ناصرٌ نبيه، وهو الحامى له وللصادقين من عباده. تلقى هؤلاء ضربةً موجعة أفقدتهم صوابهم وخيّبت تقديراتهم وآمالهم وأفشلت خططهم...

مع أقوال بعض المفسرين

إن لصلح الحديبية دوراً كبيراً ورائداً فى تهيئة الأجواء لدخول المسلمين مكة والمكوث فيها ثلاثة أيام يؤدون مناسك عمرتهم بطمأنينة وسلام، ثم يعودون أهليهم ويتفقدون منازلهم...، كل هذا كان يجرى على مسمع ومرأى من مشركى مكة، وهم صاغرون..

وهو ما نراه فى أقوال عدد من المفسرين..

ولنبدأ مع ما ذهب إليه صاحب الميزان حيث يقول:

ص: ۲۲۸

... اللام فی «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ» للقسم، وقوله: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ» جواب القسم.

وقوله: «بِالْحَقِّ» حال من الرؤیا والباء فیه للملابسة، والتعلیق بالمشیة فی قوله: «إِنْ شاءَ اللَّهُ» لتعلیم العباد

والمعنی:

أقسم لقد صدق اللّه رسوله فی الرؤیا التی أراه لتدخلن أیها المؤمنون المسجدَ الحرام إن شاء اللّه حال کونکم آمنین من شرّ المشرکین محلّقین رؤوسکم ومقصّرین، لا تخافون المشرکین.

وقوله: «فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِیباً» ذلک إشارة إلی ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنین، والمراد بقوله: «من دون ذلک» أقرب من ذلک والمعنی: فعلم تعالی من المصلحة فی دخولکم المسجد الحرام آمنین ما جهلتموه ولم تعلموه، ولذلک جعل قبل دخولکم کذلک فتحاً قریباً لیتیسّر لکم الدخول کذلک.

ومن هنا یظهر أن المراد بالفتح القریب فی هذه الآیة فتح الحدیبیة؛ فهو الذی سوّی للمؤمنین الطریق لدخول المسجد الحرام آمنین ویسّر لهم ذلک، ولولا ذلک لم یمکن لهم الدخول فیه إلا بالقتال وسفک الدماء، ولا عمرة مع ذلک لکن صلح الحدیبیة وما اشترط من شرط أمکنهم من دخول المسجد معتمرین فی العام القابل.

ویأخذ السید الطباطبائی من هذا دلیلًا علی أن المراد بالفتح الوارد فی الآیة هو صلح الحدیبیة لاغیره، حیث یقول:

ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القریب فی الآیة فتح خیبر بعید من السیاق، وأما القول بأنه فتح مکة فأبعد.

وسیاق الآیة یعطی أن المراد بها إزالة الریب عن بعض من کان مع النبی صلی الله علیه و آله، فإن المؤمنین کانوا یزعمون من رؤیا رآها النبی صلی الله علیه و آله من دخولهم المسجد آمنین

ص: ۲۲۹

محلّقین رؤوسهم ومقصرین، أنهم سیدخلونه کذلک فی عامهم ذلک، فلما خرجوا قاصدین مکة معتمرین فاعترضهم المشرکون بالحدیبیة وصدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم فی الرؤیا فأزال اللَّه ریبهم بما فی الآیة.

ومحصله: أن الرؤیا حقة أراها اللَّه نبیه صلی الله علیه و آله وقد صدق تعالی فی ذلک، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء اللَّه آمنین محلّقین رؤوسکم ومقصرین لا تخافون، لکنه تعالی أخّره وقدم علیه هذا الفتح، وهو صلح الحدیبیة لیتیسّر لکم دخوله؛ لعلمه تعالی بأنه لا یمکن لکم دخوله آمنین محلّقین رؤوسکم ومقصرین لا تخافون إلا بهذا الطریق.

قوله تعالی: «هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَدِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ»، تقدم تفسیره فی سورة التوبة الآیة ۳۳، وقوله: «وَکَفی بِاللَّهِ شَهِیداً» أیشاهداً علی صدق نبوته والوعد أن دینه سیظهر علی الدین کله أو علی أن رؤیاه صادقة، فالجملة تذییل ناظر إلی نفس الآیة أو الآیة السابقة (۱).

أما صاحب تفسیر الأمثل، فمما یقوله عند تفسیر الآیة: ینبغی الالتفات إلی أنّ «اللام» فی «لَتَدْخُلُنَّ» هی لام القسم، وأنّ «النون» فی آخر الفعل هی للتوکید، بأنّ هذا هو وعد إلهی قطعی فی المستقبل وتنبؤ معجز صریح عن أداء المناسک والعمرة فی کامل الأمان ومنتهی الطمأنینة، وکما سنبیّن کان هذا التوقّع والتنبّؤ صادقاً فی شهر ذی القعدة ذاته من السنة المقبلة، وهکذا أدّی المسلمون مناسک العمرة بهذه الصورة!

التعبیر ب «فَتْحاً قَرِیباً» کما یعتقد کثیرٌ من المفسّرین هو إشارة إلی صلح الحدیبیّة الذی عبّر عنه القرآن بالفتح المبین، ونعرف أنّ هذا الفتح کان السبیل إلی دخول المسجد الحرام فی السنة التالیة.

علی حین أنّ جماعة آخرین یعتقدون أنّ «فَتْحاً قَرِیباً» إشارة إلی «فتح خیبر».

۱- انظر: الطباطبائی، المیزان، سورة الفتح، الآیة ۲۷.

ص: ۲۳۰

وبالطبع فإنّ كلمة «قَرِيباً» فيها تناسبٌ أكثر مع «فتح خيبر»؛ لأنّه كان «تحقّقه العينى» بعد هذه الرؤيا فى فترة أقل زمناً من فتح مكّة بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يقول فى الآية (۱۸) من هذه السورة ذاتها عند الكلام على بيعة الرضوان:

«فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً». وكما قلنا ويعتقد بذلك أكثر المفسّرين أيضاً أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خيبر» والقرائن الموجودة... وفى تفسير على بن إبراهيم رواية تشير إلى هذا المعنى أيضاً.. (۱) جملة: «مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها وهو «التقصير»، و به يخرج المحرم من إحرامه، وقد استدل بعضهم بالآية فى التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير فى تقليم الأظافر والحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

جملة: «فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا» إشارة إلى مسائل مهمّة مطوية فى صلح الحديبيّة، وقد انكشفت بمرور الزمن إذ قويت قواعد الإسلام وانتشر صوته وترامت أصداؤه فى كلّ مكان وطُويت نزعة الحرب عند المسلمين، واستطاعوا أن يفتحوا «خيبر» بفارغ البال وقرار البلبال، وأرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيرة العربية، وبعث النّبى صلى الله عليه و آله رسائله إلى أعاظم رؤساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ اللَّه كان يعلمها...

نواجه فى هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، وهى رؤيا النبى صلى الله عليه و آله الصادقة التى تعدّ (غصناً من غصون) الوحى، وهى مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح ولده، الآية تحكى عن هذا الفتح أيضاً، ومع الالتفات إلى أنّ الآية محل البحث تنسجم مع تلك الآية يبدو أنّ الآيتين بمعنى واحد.. (۲).

والآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التى أخبر عنها القرآن، وهى شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوىّ، وأنّه من معاجز النّبى الكريم حيث يخبرُ قاطعاً

۱- لاحظ: نور الثقلين ۵: ۷۶.

۲- انظر: الصافات: ۱۰۲.

ص: ۲۳۱

عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام فی المستقبل القریب وعن الفتح القریب قبله أیضاً، وکما نعلم فإنّ هذین التنبؤین قد حدثا فعلًا..

وحول هذا المقطع من الآیة المبارکة «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّهُ...» وتعلّق الوعد علی المشیئة الإلهیة رغم أن اللّه تعالی هوالخالق للأشیاء کلها وهو العالم بها قبل وقوعها وهو المخبر بوقوع العمرة، أی‌ما وجه دخول «إِنْ شاءَ اللّهُ» فی إخبار اللّه عز وجل؟ وهنا أقوال:

۱- إنه حکایة قول الملک للرسول صلی الله علیه و آله.

۲- إن هذا التعلیق تأدب بآداب اللّه تعالی، وإن کان الموعود به محقق الوقوع.

أو أن یعلّق اللّه تعالی عدته بالمشیئة تعلیماً لعباده أن یقولوا فی عداتهم مثل ذلک متأدبین بأدب اللّه ومقتدین بسنته «وَلا تَقُولَنَّ لِشَیْءٍ إِنِّی فاعِلٌ ذلِکَ غَداً إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللّهُ».

۳- استثنی اللّه فیما یعلم لیستثنی الناس فیما لا یعلمون.

۴- «إن» هنا بمعنی «إذ» التی تذکر لتعلیل ما قبلها- وهو زعم الکوفیین- أی إذ شاء اللّه حین أری رسوله ذلک، وعن أبی عبیدة ومثله قوله: وأنتم الأعلون إن

ص: ٢٣٢

كنتم مؤمنين، قال معناه: إذ كنتم.. وقالوا: وليست شرطية؛ لأن الشرط مستقبل وهذه القصة قد مضت.

٥- إن الاستثناء من الدخول، وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة، وقد مات منهم أناس فى السنة، فيكون تقديره لتدخلن كلكم إن شاء اللّه، إذ علم اللّه أن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لأن لا يقع فى الخبر خلف. وقيل: إن الاستثناء داخل على الخوف والأمن، فأما الدخول فلا شك فيه، وتقديره لتدخلن المسجد الحرام آمنين من العدو إن شاء اللّه. وهذه الأقوال الثلاثة كما يذكرالطبرسى فى تفسيره مجمع البيان للبصريين.

ويقول سيد قطب فى ظلاله:

ولكن اللّه سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان وهو يقول لهم:

«لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ...» فالدخول واقع لأن اللّه أخبر به، ولكن المشيئة يجب أن تظلّ فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة لا يقيّدها شيء حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب، وتصبح هى قاعدة التصور للمشيئة الإلهية.

والقرآن يتكئ على هذا المعنى ويقرّر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء فى كل موضع، حتى المواضع التى يذكر فيها وعد اللّه. ووعد اللّه لا يخلف. ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه اللّه فى روع المؤمنين، ليستقرّ منهم فى أعماق الضمير والشعور.

أما صاحب تفسير الأمثل فيقول:

ولعلّها نوع من تعليم العباد لكى يعوّلوا على مشيئة اللّه عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة اللّه، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه. وربّما هى إشارة للظروف التى يهيّؤها اللّه لهذا التوفيق «توفيق اللّه المسلمين لزيارة بيته فى المستقبل القريب» والبقاء على خط «التوحيد والسكينة والتقوى»...

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهى أعمارهم فى هذه

ص: ۲۳۳

الفترة والفاصلة الزمانية ولا يوفّقون إلى زيارة بيت اللّه، والجمع بين هذه المعانى كلها لا مانع منه أبداً...

وختاماً هذا تلخيص لما ورد عن بعض المفسرين إضافة لما ذكرناه طى المقالة من أقوالهم:

لقد رأى النّبى صلى الله عليه و آله فى المدينة رؤيا أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه بذلك، غير أنهم أصيبوا بإحباط وارتياب بعد أن منعتهم قريش ووقع الصلح.

فكان جواب النّبى لهم: هل قلت لكم: إنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟

فنزلت الآيـة الآنفـة فى هذا الصدد والنبى عائد من الحديبية إلى المدينة، وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة... تقول الآية: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ»، فما رآه النّبى فى المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ تضيف الآيـة قائلةً: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً» وكان فى هذا التأخير حكمةٌ: «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً».

اللام فى «لَتَدْخُلُنَّ» هى لام القسم، و النون للتوكيد، وهو وعد إلهى قطعى الوقوع ويتضمن نبوءة عن أداء المناسك والعمرة بأمان وطمأنينة.. وهو أمر غيبى وبالتالى فهو شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوىّ وأنّه من معاجز النّبى الكريم حيث يخبرُ قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام فى المستقبل القريب وعن الفتح القريب «صلح الحديبية أو فتح خيبر»، و أنّ هذين التنبّؤين قد وقعا فعلًا..

جملة «محلّقين رؤوسكم ومقصّرين» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها، وهو «التقصير» وبه يخرج المحرم من إحرامه، وقد استدل بعضهم بالآية فى التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير فى تقليم الأظافروالحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

ص: ۲۳۴

«فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا» مالم تعلموا من الخير والصلاح وما ستثمر هذه الخطوة وهذا الحدث من خير عميم ونصر كبير وعزة للإسلام والمسلمين..

وأما عمرة القضاء فهى العمرة التى أدّاها النّبى صلى الله عليه و آله مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أىفى ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة (على وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول وأصحابه مكّة).

وجاءت هذه العمرة طبقاً لإحدى مواد كتاب صلح الحديبيّة التى أصبح من المقرر بموجبها أن يؤدّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله- ومعه المسلمون- العمرة وزيارة بيت اللّه الحرام ليس فى عامهم هذا عام الصلح بل فى العام المقبل، على أن لا يمكثوا فى مكّة أكثر من ثلاثة أيام، وفى الوقت ذاته يخرج المشركون ورؤساؤهم من مكّة أيضاً.

حتى لا- يرى المشركون شيئاً قد يثيرهم وعبادة قد تغيظهم ونداء أو شعاراً قد يغضبهم.. ودرءاً لما قد يقع من احتكاك بينهم و اختلاف، وبالتالى قد يكون ذلك كله سبباً لنزاع مسلّح بين الفريقين...

لقد أحرم النّبى صلى الله عليه و آله فى السنة المقبلة وأصحابه ومعهم جمالهم المساقة للهدى، وتحرّكوا جميعاً حتى بلغوا أطراف مرّ الظهران وضواحيها، وعندها بعث النّبى صلى الله عليه و آله ما كان عنده من أسلحة وخيول تستلفت النظر مع الصحابى محمّد بن مسلمة، فلمّا وقعت عيون المشركين عليها أصيبوا بفزع وهلع وانتابهم خوف شديد وظنّوا أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله يريد أن ينقض العهد بمدته عشر سنين و قتالهم وسرعان ما انتشر الخبر فى مكة.

غير أنّ النّبى صلى الله عليه و آله حين وصل منطقة قريبة من مكّة، أمر أن توضع الأسلحة من السهام والرماح وغيرها من الأسلحة فى منطقة تدعى يأجج، ودخل هو وأصحابه مكّة بالسيوف المغمدة فى قرابها.

فلمّا رأى أهل مكّة من النّبى ما رأوا فرحوا؛ إذ وفى النبى بوعده، فكأنّ النبى بعمله هذا وجّه إنذاراً لمشركى مكة إن سولت لهم أنفسهم أمراً فنقضوا العهد وأرادوا سوءاً فسيجدون قوة عظيمة تقهرهم وتفشل عليهم تآمرهم.

ص: ۲۳۵

فخرج رؤساء مكّة وأتباعهم من مكة لئلّا تتأثر نفوسهم بما يرونه من عزة المسلمين والكيفية التى يؤدون بها مناسك عمرتهم...

ومع هذا ظلّ جمع منهم- رجالًا ونساءً وأطفالًا- مجتمعين على سطوح مكة وتلالها القريبة من المسجد وفى الطرقات المؤدية إليه وحول الكعبة ليشاهدوا رسول اللّه محمداً صلى الله عليه و آله وقد عاد إلى مدينته بقوة وانتصار فى تظاهرة المسلمين الذين يحيطون به.. فعاملهم بلطف ومحبة وحنين من جهة، ومن جهة أخرى أمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف وأن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلًا لتبدو علائم القدرة والقوّة فيهم وأن تترك هذه الحالة فى أفكار أهل مكّة وأنفسهم تأثيراً كبيراً ودليلًا حيّاً على قوة المسلمين وحكمتهم!

وعلى كلّ حال، فإنّ «عمرة القضاء» كانت عبادة، كما كانت فى الوقت ذاته عَرضاً «للعضلات المفتولة»، وينبغى القول: إنّ «فتح مكّة» الذى تحقّق بعد سنة أُخرى كانقد نثربذره فىهذه السنة وهيّأ الأرضية لاستسلام أهل مكّة للفاتحين (المسلمين).

وكان هذا الأمر مدعاةً لقلق رؤساء قريش إلى درجة أنّهم بعثوا رجلًا بعد مضى ثلاثة أيّام إلى النّبى يطلب منه أن يغادر بسرعة هو وأصحابه مكّة طبقاً للمعاهدة...

ومن الطريف هنا أنّ النّبى تزوّج أرملةً من نساء قريش وكانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين، وذلك ليشدّ أواصره بهمويخفّف من غلوائهم وبغضائهم.

وحين سمع النبى اقتراحهم بالمغادرة قال: «ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه». قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنّا.

ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره فى نفوذ أمر النّبى فى قلوبهم، غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه... (۱).

۱- هذا موجز لما ذكر فى تفسير الأمثل للشيخ مكارم ملخصاً لما جاء فى ظلال القرآن ومجمع البيان..

ص: ۲۳۶

قراءة فى حجة الوداع

تعليم المناسک ورواية الفريقين

خطبة الغدير- ما نزل فيها من قرآن

حسن محمد

فى العام العاشر من الهجرة النبوية وفى شهر ذى القعدة، راح رسول اللّه صلى الله عليه و آله يجهّز نفسه وأهله وأصحابه والمسلمين عموماً من شتى البلاد طالباً منهم جميعاً الحضور فى موسم الحج.

والذى يبدو من هذا الحشد والإعداد الكبير له والاهتمام العظيم به هو أنه صلى الله عليه و آله إضافة إلى أنه يريد بذلک توديعهم فهو مقبل على ربه وجواره تعالى عن قريب «أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا..» ولهذا سميت بحجة الوداع، فقد ودّع الناس بعد انتهاء خطبته فى عرفات ومنى، وتأتينا أسماؤها الأخرى فى فصل: ما نزل فيها من قرآن.

و أراد أن يبين لهم أموراً، غاية بالدقة والأهمية لما تترکه فى حياتهم الإيمانية ومسيرتهم نحو اللّه تعالى وهم يؤدّون ما عليهم من تكاليف وما تنتظرهم من مهام، وكان منها:

- مناسک فريضة الحج المقدسة كما رسمتها السماء، وتخليصها مما علق بها من

ص: ۲۳۷

بدع وشوائب وانحرافات...

- أحكام ومفاهيم أخرى تضمّنتها خطبه فی ميادين هذه الفريضة.

- قيادة المسيرة الإسلامية من بعده صلى الله عليه و آله وعلى جميع المستويات.

ونحن هنا، ولبيان ما يرتبط بالأمور المذكورة نقف عند النقاط التالية وبإيجاز نأمل أن يكون نافعاً بإذنه تعالى:

سنته صلى الله عليه و آله التی اتبعها عبر أفعاله وأقواله وغدت مدرسة تعليمية، تلامذتها المسلمون، ينهلون منها الصحيح من المناسك والسليم من الأعمال والأذكار، ورسول اللّه فی ذلك قدوتهم والأسوة التی يتأسّون بها ويأخذون عنها «لَكُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» ولقد كلفته هذه الفريضة كما غيرها جهوداً كبيرة مضنية من خلال ما قام به من دور تبليغی..

و نلقی الضوء من خلال ذلك على طريقة عمله و تبليغه صلى الله عليه و آله لفريضة مهمة من فرائض اللّه تعالى على عباده، وهی فريضة الحج وإنما اخترناها لأنها مهمة عملية تطبيقية استغرقت منه وقتاً طويلًا وجهداً فائقاً، خصوصاً وأنه أراد من خلال ذلك الإطاحة بكل عمل مارسوه باعتقاد أنه جزء من الحج وما هو من الحج، وبكل شائبة تركها تعاقب السنين أو انحراف عن السيرة السليمة للحج أو بدعة دخلت على مناسك نبی اللّه إبراهيم الخليل عليه السلام التی بلغها من قبل كما تحمله الآية الكريمة:

«... وَ أَرِنا مَناسِكَنا...» (۱)

وكيف بذل رسول اللّه صلى الله عليه و آله جهده فی تعليمهم مفاصلها النقية ومناسكها الخالصة وما يتعلق بها كما أرادته السماء وبلغها نبی اللّه إبراهيم عليه السلام، وكان يؤدی ذلك لا- نظرياً فقط بل راح يمارسه أمامهم ويطبقه عملياً فی ميادين المناسك المتعددة وهدفه العظيم يرافقه وهو تربيتهم وتعليمهم توحيد اللّه إخلاصاً وعبادته بالطريقة التی يريدها سليمة والإخلاص له فی جميع العبادات، مع العناية باتباعه صلى الله عليه و آله فی الأقوال والأعمال، وأن تُؤَدّی مناسك الحج وسائر العبادات على الوجه الذی شرعه اللّه لعباده على لسانه، فهو المعلّم والمرشد والمبلغ، وبالتالی فهو القدوة والأسوة... وهكذا بعثه اللّه تعالى رحمةً للعالمين.

۱- البقرة: ۱۲۸.

ص: ۲۳۸

وهو القائل لهم: «خذوا عنى مناسككم».

إن حجة الوداع هى الحجة الوحيدة التى أدّاها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وقد وقعت فى العام العاشر الهجرى كما سبق ذكره، ونظراً لهدفها الكبير بخصوص ما يتعلق بالفريضة، وهو تعليم المسلمين الحج وتبليغهم أحكامه ومناسكه من قبل الرسول صلى الله عليه و آله؛ لهذا وجه دعوة عامة إلى المسلمين فى الجزيرة العربية لحضور هذه الفريضة، للاشتراك فى تلك الحجة. ومن هنا تعد حجة الوداع سفرة تعليمية ميدانية عملية يتدرب فيها المسلمون على كيفية أداء مناسك الحجّ، وهو ما أكدته مصادر التاريخ والرواية، وهذا الهدف من الأهداف الكبيرة لحجة الوداع.

وما قاله سراقة بن مالك بن جعشم الكنانى دليل واضح على ما أداه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من أعمال نافعة كأنها جديدة عليهم، تخص فريضة الحج وإبعادها عما اعتادوا عليه فى أدائها: يارسول اللَّه! علّمنا ديننا كأنا خلقنا اليوم، فهذا الذى أمرتنا به لعامنا هذا أم لما يستقبل؟

فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: بل هو للأبد إلى يوم القيامة، ثم شبك أصابعه وقال:

دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة...

«واجتمعوا لحج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وإنما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه أو يصنع شيئاً فيصنعونه..» (۱).

إن لحجة الوداع فى الفقه السنى وفى الفقه الشيعى وفى أحاديثهم أهمية كبيرة تولدت عندهم؛ لأنها تتضمن أحكام الحج، وهو أمر مهم وجيد ومتفق عليه عندهم، وإن هذا الحديث يمكن أن يكون حكماً ومرجعاً فى المسائل المختلف عليها بين فقهاء الفريقين، إلا أنها لدى الشيعة تحظى بأهمية أخرى أكبر، لإعلان نبى الرحمة ولاية ابن عمه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام، بعد أن اختتم حجته

۱- انظر رواية معاوية بن عمار، واللفظ لها، وكذا رواية جابر.

ص: ۲۳۹

وعند عودته منها وتوقفه قریباً من «الجحفة» فی «غدیر خم»، وکان ذلک بأمر من اللَّه تعالی، ثم أخذ البیعة من الناس.

وفی بعض روایات مدرسة أهل البیت علیهم السلام جاءت قصة الغدیر فی أعقاب حدیث حجة الوداع..

وهناک روایة أخری یرویها معاویة بن عمار عن الإمام جعفر الصادق علیه السلام تبیّن ما قام به رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من أعمال فی حجة الوداع تحمل اختلافاً عن روایة الصحابی جابر، لسنا بصدد بیان ذلک، لأن ما نبتغیه من مقالتنا هنا هو تبیین الدور التعلیمی التدریبی للحج الصحیح ونبذ ما تعلّق به من شوائب..

وأنا هنا أکتفی بنقل نصّ الروایتین عن حج النبی صلی الله علیه و آله وهی کما قلنا حجة تبلیغیة تعلیمیة لنلمس ذلک الدور.

نبدأ بروایة للصحابی الجلیل جابر الأنصاری:

کان عمر جابر یومها عشرین سنة وکان یقود ناقة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله؛

فتابع تفاصیل هذه الحجة مشاهدة وسماعاً وحفظاً ونقلها بدقة.

فجاءت روایة کاملة لحجة الوداع. وهو القائل: «علی یدی دار الحدیث» (۱).

وهی تعد نقطة التقاء بین فقه وحدیث کل من أهل السنة والشیعة حول حجة الوداع.

مما قالوه عن حدیث جابر

وقبل أن نذکر نصها هذه بعض الأقوال فی حدیث جابر لحجة الوداع:

فالإمام یحیی بن شرف أبو زکریا محیی الدین النووی الشافعی (۶۷۶- ۶۳۱ ه) فی شرحه لصحیح مسلم یقول: هو حدیث عظیم مشتمل علی جملة من الفوائد والنفائس من مهمات القواعد.. حتی یقول: وقد تکلّم الناس علی

۱- رواه مسلم فی صحیحه ۸: ۱۶۸.

ص: ۲۴۰

ما فیه من الفقه وأكثروا.

وصنّف فیه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبیراً وخرّج فیه من الفقه مائة ونیفاً وخمسین نوعاً، ولو تقصّی لزید علی هذا القدر أو هو قریب منه.. والنووی فی شرح أحادیث الحج من صحیح مسلم یستند مراراً إلی هذا الحدیث، ویشرح بالتفصیل مبهماته ومشكلاته (۱).

و قال صاحب التاج الجامع الشیخ ناصیف عن حدیث جابر: هذا حدیث جلیل القدر عظیم الفضل، حوی كل ما فعله النبی صلی الله علیه و آله فی حجة الوداع من أركان وواجبات ومندوبات إلا قلیلًا، وهو أول حدیث طویل فی كتاب التاج ویلیه فی الطول حدیثا: الإسراء والهجرة الآتیان فی كتاب النبوة و... ثم یقول: وجابر رضی اللَّه عنه كان یقود راحلة النبی صلی الله علیه و آله فی حجة الوداع، فلذا كان أعلم الناس بها.

ثم بدأ بذكر الروایة ونحن ننقلها مع هامشها من التاج الجامع:

عن جعفر بن محمد رضی اللَّه عنه عن أبیه قال: دخلنا علی جابر بن عبد اللَّه، فسأل عن القوم، حتی انتهی إلیَّ فقلتُ: أنا محمد بن علیّ بن الحسین. فأهوی بیده إلی رأسی فنزع زِرّی الأعلی، ثمّ حلّ زرّی الأسفل، ثمّ وضع كفّه بین ثدییَّ، وأنا یومئذ غلامٌ شاب. فقال: مرحباً بک یا ابن أخی، سل عمّا شئت، فسألته وهو أعمی وحضر وقت الصلاة، فقام فی نساجة ملتحفاً بها، كلما وضعها علی منكبیه رجع طرفاها إلیه، من صغرها، ورداؤه إلی جنبه علی المشجب، فصلّی بنا.

فقلت: أخبرنی عن حجة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال بیده، فقعد تسعاً وقال: إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مكث تسع سنین لم یحج، ثم أذّن فی الناس فی العاشرة: أنّ رسولاللَّه صلی الله علیه و آله حاجّ، فقدم المدینة بشرٌ كثیر، كلّهم یلتمس أن یأتمّ برسول اللَّه صلی الله علیه و آله ویعمل مثل عمله. فخرجنا معه، حتی أتینا ذا الحلیفة، فولدت أسماء بنت عمیس محمّد بن أبی بكر، فأرسلت إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: كیف أصنع؟ قال: اغتسلی واستثفری

۱- انظر: صحیح مسلم ۸: ۱۷۰.

ص: ۲۴۱

بثوب وأحرمى. فصلّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى المسجد، ثمّ ركب القصواء حتّى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مدّ بصرى بين يديه، من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، ما عمل به من شىء عملنا به، فأهلَّ بالتوحيد: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمةَ لك والملك، لا شريك لك. وأهلّ الناس بهذا الذى يهلّون به، فلم يرُدَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله عليهم شيئاً منه. ولزم رسول اللّه صلى الله عليه و آله تلبيته.

قال جابر: لسنا ننوى إلّا الحجّ، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثمّ نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقال:

«وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلّى»

فجعل المقام بينه وبين البيت. وكان يقرأ فى الرّكعتين:

قل هو اللّه أحد- وقل يا أيّها الكافرون، ثمّ رجع إلى البيت إلى الركن فاستلمه، ثمّ خرج من الباب إلى الصّفا، حتى إذا دنا من الصّفا قرأ:

«إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ»

ابدأوا بما بدأ اللّه به، فبدأ بالصفا، فرقى عليه، حتّى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحّد اللّه وكبره وقال: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا اللّه وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثمّ دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرّات، ثمّ نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصّفا، فلمّا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أنّى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسُق الهدى، وجعلتها عمرةً، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحلل وليجعلها عمرة.

فقام سراقة بن مالك فقال: يا رسول اللّه! ألعامنا هذا أم لأبد؟

ص: ۲۴۲

– فشبَّک رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أصابعه واحدةً فی الأخری، وقال: دخلت العمرة فی الحج مرّتین لا، بل لأبد أبد.

وقدم علیٌّ من الیمن ببُدنِ النبیّ صلی الله علیه و آله، فوجد فاطمة رضی اللَّه عنها ممّن حلّ، ولبست ثیاباً صبیغاً، واکتحلت، فأنکر ذلک علیها، فقالت: إن أبی أمرنی بهذا، قال:

فکان علیّ یقول بالعراق: فذهبتُ إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مُحرّشاً علی فاطمة للذی صنعت، مستفتیاً لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیما ذکرت عنه، فأخبرته أنی أنکرتُ ذلک علیها، فقال: صدقت، صدقت، ماذا قلت حین فرضت الحج؟ قلت: اللّهمّ! إنّی أهلُّ بما أهلَّ به رسولک صلی الله علیه و آله، قال: فإنّ معیَ الهدی فلا تُحلّ.

قال: فکان جماعة الهدی الذی قدم به علیّ من الیمن، والذی أتی به النبی صلی الله علیه و آله مائة. قال: فحلّ الناس کلّهم وقصّروا، إلّا النبی صلی الله علیه و آله ومن کان معه هدی.

فلمّا کان یوم الترویة توجّهوا إلی منی، فأهلّوا بالحجّ ورکب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فصلّی بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثمّ مکث قلیلًا حتی طلعت الشمس، وأمر بقبّة من شعر فضُربت له بنمرة، فسار رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، ولا تشکُّ قریش إلّا أنّه واقفٌ عند المشعر الحرام أو المزدلفة، کما کانت قریش تصنع فی الجاهلیة، فأجاز رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حتّی أتی عرفة فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتی إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرُحلت له. فأتی بطن الوادی.

فخطب الناس وقال:

إنّ دماءکم وأموالکم حرام علیکم کحُرمة یومکم هذا، فی شهرکم هذا، فی بلدکم هذا، ألا کلّ شیء من أمر الجاهلیة تحت قدمیّ موضوعٌ، ودماء الجاهلیة موضوعة. وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربیعة بن الحارث. کان مسترضعاً فی بنی سعد، فقتلتْهُ هُذیْلُ، وربَا الجاهلیة موضوع، وأوّل رباً أضع من ربانا، ربا عبّاس بن عبد المطّلب، فإنّه موضوع کلّه، فاتّقوا اللَّه فی النساء، فإنّکم أخذتموهنّ بأمان اللَّه، واستحللتم فروجهنّ بکلمة اللَّه، و لکم علیهنّ ألا یوطئن فرشکم أحداً تکرهونه، فإن فعلن ذلک فاضربوهنّ ضرباً غیر مبرّح، ولهنّ علیکم رزقهنّ

ص: ۲۴۳

وكسوتهنّ بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لم تضلّوا إن اعتصمتم به: كتاب اللَّه، وأنتم تسألون عنّى، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فقال بإصبعه السّبابة يرفعها إلى السّماء وينكتها إلى الناس: اللّهمّ اشهد اللّهمّ اشهد ثلاث مرات. ثمّ أذّن، ثمّ أقام فصلّى الظهر، ثمّ أقام فصلّى العصر، ولم يصلّ بينهما شيئاً، ثمّ ركب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصّخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس. وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد شنق للقصواء الزّمام حتى إنّ رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول- أی يشير بيده اليمنى-: أيها الناس! السكينة السكينة كلما أتى حبلًا من الحبال أرخى لها قليلًا حتى تصعد.

حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبّح بينهما شيئاً، ثمّ اضطجع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتّى طلع الفجر، وصلاه حين تبيّن له الصّبح بأذان وإقامة، ثمّ ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا اللَّه وكبره وهلّله ووحّده. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس،

ص: ۲۴۴

وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلًا حسن الشعر، أبيض، وسيماً. فلمّا دفع رسول اللّه صلى الله عليه و آله، مرّت به ظعن يجرين، فطفقَ الفضل ينظر إليهنّ، فوضع النبى صلى الله عليه و آله يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشقّ الآخر ينظر، فحوّل رسول اللّه صلى الله عليه و آله يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، حتى أتى بطن محسّر، فحرّك قليلًا، ثمّ سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى.

حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يكبّر مع كلّ حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادى، ثمّ انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى عليّاً فنحر ما غبر، وأشركه فى هديه، ثمّ أمر من كلّ بدنة ببضعة، فجعلت فى قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثمّ ركب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأفاض إلى البيت، وصلّى بمكة الظهر، فأتى بنى عبد المطّلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بنى عبد المطّلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه (۱).

- القصواء: لغة، الناقة التى قطع طرف أذنها. وقيل: اسم لناقته بلا قطع أذن.

وقيل: بل للقطع.

- النساجة- ويقال: ساجة- هى الطيلسان.

- والمشجب كمنبر، عيدان تضم أصولها وتفرج رؤوسها توضع عليه الملابس.

- استثفرى بالسين والتاء والفاء، أى تحفظى بثوب من نزول الدم وأحرمى. بذى الحليفة، صلاة العصر.

ركب ناقته القصواء وأهل بالحج، أى فى أيام الحج وإلا فهى معلومة وعملوها غير مرة...

۱- انظر التاج الجامع ۲: ۱۵۳- ۱۵۹؛ رواه مسلم وأبو داود بهذا اللفظ، ورواه النسائى مختصراً، وللبخارى والترمذى بعضه.

ص: ۲۴۵

– استلم الرکن، أیالحجر الأسود بمسحه وتقبیله.

– أیالباب القریب من الصفا ویسمی باب بنی مخزوم.

– من استقبال الکعبة والتوحید یتخلله الدعاء.

– أیلو أمکننی استدراکک ما فات أو لو ظهر لی قبل الآن ما ظهر لی الآن ما سقت هدیاً وعملت العمرة أولًا لأتمتع بمحظور الإحرام قبل الحج ولنفی ما یزعمه الناس من قبیحها فی أشهره وتطیباً لقلب من لم یهد من الأصحاب، ولا منافاة بین ما هنا وبین ما تقدم فی القرآن من الحدیث القائل: وقل عمرة فی حجة، فإن هذا إباحة لها بعد حظرها.

– أیهل فسخ الحج إلی عمرة وجوازها فی شهر خاص بعامنا فقط أم دائماً؟

فأجابه بالثانی وأکده بتشبیک أصابعه وتکریر الجواب مرتین، وقوله: لا بل لابد أبد أیلیس جوازها خاصاً بهذا العام بل للأبد.

– أیبالورس ونحوه مما لا یجوز للمحرم.

– أیمع من أمرهم بالتمتع.

– أیبمنی وقد نزلوا وباتوا فیها.

– نمرة بفتح فکسر، موضع قبیل عرفات لیس منها، بل بین الحلّ والحرم.

– إلا زائدة ونظم الکلام، ولا تشک قریش فی أنه واقف بالمشعر الحرام وهو لفظ أبی داود، وکانت قریش تقف به فی الجاهلیة؛ لأنه من الحرم ویقولون: نحن أهل الحرم فلا نخرج عنه، وأما سائر العرب فکانوا یقفون بعرفات، فأمر النبی صلی الله علیه و آله بالوقوف بها، وهو قوله تعالی: «ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ»

– وادی عرنة الذی لیس من عرفة عند کافة العلماء إلا مالکاً، وفیه استحباب الخطبة فی هذا المکان، وعلیه أهل العلم کلهم إلا مالکاً، ومذهب الشافعی وأحمد:

أن فی الحج أربع خطب مندوبة: إحداها یوم السابع من ذی الحجة عند الکعبة، والثانیة هذه التی ببطن عرنة یوم عرفات، والثالثة یوم النحر، والرابعة یوم النفر الأول، وکلها إفراد وبعد صلاة الظهر إلا التی یوم عرفة فإنها خطبتان، وقیل:

ص: ۲۴۶

الظهر، ویعلمهم فی کل خطبة ما یحتاجون إلیه إلی الأخری.

- لا قیمة له کالشی ء الذی یداس.

- اسمه إیاس بن ربیعة بن الحارث بن عبد المطلب جدّ النبی صلی الله علیه و آله.

- وهی فی حرب بنی سعد أصابه حجر، وهو یحبو بین البیوت فقتله.

- إنما نصّ علی الدماء و الربا لعظم شأنهما، ونص علی دم ابن عمه وربا عمه لأنه أدعی إلی امتثال أمره حیث بدأ بنفسه وأهله، کقول خطیب الأنبیاء شعیب:

«وَما أُرِیدُ أَنْ أُخالِفَکُمْ إِلی ما أَنْهاکُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِیدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» (۱)

.

- أی بأمانته وعهده فی شرعه.

- التی أمرنا بها وهی الإیجاب والقبول.

- أی فی الآخرة.

- ینکتها، بالتاء وصوابه بالموحدة أی یردها إلیهم.

- أی أمر بهما، وصلی الظهر والعصر جمع تقدیم للنسک عند الحنفیة وللسفر عند الشافعیة.

- الموقف الخاص به فی عرفات، وهو بجوار الصخرات، أی الأحجار المفترشات فی أسفل جبل الرحمة الذی بوسط عرفات، فیستحب الوقوف فیه أو بقربه بقدر الإمکان.

- نزل من عرفة إلی مزدلفة وبیده زمام ناقته.

- الحبل: التلّ من الرمل.

- أی صلاهما جمع تأخیر.

- بنحو لا إله إلا اللَّه وحده لا شریک له، له الملک وله الحمد یحیي ویمیت وهو علی کل شيء قدیر.

۱- هود: ۸۸.

ص: ۲۴۷

- الظعن، بضمتین جمع ظعینة کسفینة، وهی المرأة فی الهودج.

- مُحسِّر کمُحدِّث: مکان قبل منی نزلت فیه النقمة علی الجیش الذی جاء لهدم الکعبة، وسّمی بذلک لأن الفیل حسر فیه أی تعب وکلّ، کقوله تعالی: «یَنْقَلِبْ إِلَیْکَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِیرٌ»، أی کلیل.

- وهی غیر الطریق التی ذهب منها إلی عرفات تفاؤلًا بتغیر الحال کما دخل مکة من علیاها وخرج من سفلاها.

- بقرب مسجد الخیف وقوله: مثل حصی الخذف، صفة لسبع أی کحب الفول.

- لا من أعلاه. وعن یمینه منی وعن یساره مکة المکرمة.

- المنحر مکان النحر بقرب مسجد الخیف.

- وهی التی ساقها معه، ونحر علیّ ما غبر أیما بقی من المائة، وهی ما جاء بها من الیمن فکان علی شریکاً فی الهدی والنحر.

- أیالنبی صلی الله علیه و آله وعلی علیه السلام، فالأکل من هدی التطوع سنّة، بخلاف الهدی الواجب فلا یجوز الأکل منه..

- أیذهب إلی البیت فطاف طواف الإفاضة، وأما طوافه الأول فکان للقدوم.

- أولاد العباس، لأن السقایة کانت وظیفتهم.

أما روایة معاویة بن عمار فی حجّة الوداع، فهی کما فی کتاب الکافی:

علیّ بن إبراهیم، عن أبیه؛ ومحمد بن إسماعیل، عن الفضل بن شاذان جمیعاً عن ابن أبی عمیر، عن معاویة بن عمار، عن أبی عبد اللَّه علیه السلام قال: إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أقام بالمدینة عشر سنین لم یحجّ، ثمّ أنزل اللَّه عزّ وجلّ علیه: «وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَعَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ» (۱).

۱- الحج: ۲۶.

ص: ۲۴۸

فأمر المؤذّنین أن یؤذنوا بأعلی أصواتهم بأنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یحجُّ فی عامه هذا، فعلم به من حضر المدینة وأهل العوالی والأعراب، واجتمعوا لحجّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وإنّما کانوا تابعین ینظرون ما یؤمرون ویتبعونه أو یصنع شیئاً فیصنعونه، فخرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی أربع بقین من ذی القعدة، فلمّا انتهی إلی ذی الحلیفة (۱) زالت الشمس فاغتسل، ثمّ خرج حتی أتی المسجد الذی عند الشجرة فصلّی فیه الظهر وعزم بالحجّ مفرداً، وخرج حتی انتهی إلی البیداء عند المیل الأوّل فصفّ له سماطان، فلبّی بالحجّ مفرداً وساق الهدی ستّاً وستین أو أربعاً وستّین حتی انتهی إلی مکة فی سلخ أربع من ذی الحجّة (۲) فطاف بالبیت سبعة أشواط ثمّ صلّی رکعتین خلف مقام إبراهیم علیه السلام ثمّ عاد إلی الحجر فاستلمه، وقد کان استلمه فی أوَّل طوافه ثمّ قال: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه. فأبدأ بما بدأ اللَّه تعالی به.

وإن المسلمین کانوا یظنّون أنّ السّعی بین الصّفا والمروة شیء صنعه المشرکون فأنزل اللَّه عزّ وجلّ: «إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما» (۱)

، ثمّ أتی الصفا فصعد علیه واستقبل الرّکن الیمانی فحمد اللَّه وأثنی علیه ودعا مقدار ما یقرأ سورة البقرة مترسّلًا، ثمّ انحدر وعاد إلی الصّفا فوقف علیها، ثمّ انحدر إلی المروة حتی فرغ من سعیه، فلمّا فرغ من سعیه وهو علی المروة أقبل علی النّاس بوجهه فحمد اللَّه وأثنی علیه ثمّ قال:

إنّ هذا جبرئیل- وأومأ بیده إلی خلفه- یأمرنی أن آمر من لم یسق هدیاً أن یحلّ، ولو استقبلت من أمری مااستدبرت لصنعت مثل ما أمرتکم (۳)، ولکنّی سقت الهدی ولا- ینبغی لسائق الهدی أن یحلّ حتّی یبلغ الهدی محلّه؛ قال: فقال له رجل من القوم: لنخرجنّ حجّاجاً ورؤوسنا وشعورنا تقطر (۴)؟ فقال‌له رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله: أما

۱- البقرة: ۱۵۳.

ص: ۲۴۹

إنّک لن تؤمن بهذا أبداً، فقال له سراقة بن مالک بن جعشم الکنانی: یا رسول اللَّه عُلّمنا دیننا کأنّا خلقنا الیوم فهذا الذی أمرتنا به لعامنا هذا أم لما یستقبل؟ فقال له رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: بل هو للأبد إلی یوم القیامة، ثمّ شبک أصابعه وقال: دخلت العمرة فی الحجّ إلی یوم القیامة.

قال: وقدم علی علیه السلام من الیمن علی رسول اللَّه وهو بمکة فدخل علی فاطمة علیها السلام وهی قد أحلّت فوجد ریحاً طیّبة ووجد علیها ثیاباً مصبوغة، فقال: ما هذا یا فاطمة؟ فقالت: أمرنا بهذا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فخرج علیّ علیه السلام إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مستفتیاً، فقال: یا رسول اللَّه! إنّی رأیت فاطمة قد أحلّت وعلیها ثیاب مصبوغة! فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنا أمرت النّاس بذلک فأنت یا علیّ بما أهللت؟ قال: یا رسول اللَّه! إهلالًا کإهلال النبی، فقال له رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: قرّ علی إحرامک مثلی وأنت شریکی فی هدیی.

قال: ونزل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بمکة بالبطحاء هو وأصحابه ولم ینزل الدّور، فلمّا کان یوم التّرویة عند زوال الشمس أمر الناس أن یغتسلوا ویهلّوا بالحجّ، وهو قول‌اللَّه عزّ وجلّ الذی أنزل علی نبیّه صلی الله علیه و آله: «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِیکُمْ إِبْراهِیمَ» (۱)، فخرج النبیُّ صلی الله علیه و آله وأصحابه مهلّین بالحجّ، حتی أتی منی فصلّی الظّهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر، ثمّ غدا والنّاس معه وکانت قریش تفیض من المزدلفة وهی جمع، ویمنعون النّاس أن یفیضوا منها، فأقبل رسول صلی الله علیه و آله وقریش ترجو أن تکون إفاضته من حیث کانوا یفیضون، فأنزل اللَّه تعالی علیه: «ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ» (۲)، یعنی إبراهیم وإسماعیل وإسحاق فی إفاضتهم منها ومن کان بعدهم.

فلمّا رأت قریش أنّ قبّة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قد مضت کأنّه دخل فی أنفسهم شیء للّذی کانوا یرجون من الإفاضة من مکانهم حتی انتهی إلی نمرة وهی بطن عرنة بحیال الأراک، فضربت قبّته وضرب النّاس أخبیتهم عندها، فلمّا زالت

۱- آل عمران: ۸۹.

۲- البقرة: ۱۹۸.

ص: ۲۵۰

الشمس خرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ومعه قریش وقد اغتسل وقطع التلبیة حتی وقف بالمسجد، فوعظ الناس وأمرهم ونهاهم، ثمّ صلّی الظهر والعصر بأذان وإقامتین.

ثمّ مضی إلی الموقف فوقف به فجعل النّاس یبتدرون أخفاف ناقته یقفون إلی جانبها فنحاها، ففعلوا مثل ذلک، فقال: أیّها الناس لیس موضع أخفاف ناقتی بالموقف، ولکن هذا کلّه- وأومأ بیده إلی الموقف- فتفرّق الناس وفعل مثل ذلک بالمزدلفة فوقف الناس حتی وقع القرص قرص الشمس، ثمّ أفاض وأمر الناس بالدعة حتی انتهی إلی المزدلفة وهو المشعر الحرام، فصلّی المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتین، ثمّ أقام حتی صلّی فیها الفجر، وعجّل ضعفاء بنی هاشم بلیل وأمرهم أن لا یرموا الجمرة جمرة العقبة حتّی تطلع الشمس، فلمّا أضاء له النّهار أفاض حتی انتهی إلی منی، فرمی جمرة العقبة وکان الهدی الذی جاء به رسولاللَّه صلی الله علیه و آله أربعة وستّین أو ستّة وستّین.

وجاء علیّ علیه السلام بأربعة وثلاثین أو ستّاً وثلاثین، فنحر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ستّة وستّین، ونحر علی علیه السلام أربعاً وثلاثین بدنة، وأمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أن یؤخذ من کل بدنة منها جذوة (۵) من لحم، ثمّ تطرح فی برمة، ثمّ تطبخ، فأکل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وعلیّ وحسیا من مرقها، ولم یعطیا الجزّارین جلودها ولا جلالها ولا قلائدها، وتصدَّق به وحلق، وزار البیت ورجع إلی منی وأقام بها حتی کان الیوم الثالث من آخر أیّام التّشریق.

ثمّ رمی الجمار ونفر حتی انتهی إلی الأبطح فقالت له عائشة: یا رسول اللَّه! ترجع نساؤک بحجّة وعمرة معاً وأرجع بحجّة؟ فأقام بالأبطح وبعث معها عبد الرّحمن بن أبی بکر إلی التنعیم، فأهلّت بعمرة ثمّ جاءت وطافت بالبیت وصلّت رکعتین عند مقام إبراهیم علیه السلام وسعت بین الصّفا والمروة، ثمّ أتت النبیّ صلی الله علیه و آله فارتحل من یومه ولم یدخل المسجد الحرام ولم یطف بالبیت ودخل من أعلی مکّة من عقبة المدنیّین وخرج من أسفل مکة من ذی طوی.

ص: ۲۵۱

تعلیقات وتوضیحات

۱- ذو الحلیفة: موضع علی ستة أمیال من المدینة، وقوله: مفرداً، أی‌من دون عمرة معه فی نیة واحدة، والبیداء: أرض ملساء بین الحرمین.

۲- أی آخر الیوم الرابع.

۳- یقصد أنه لو جاءنی جبرئیل بحجّ التمتع وإدخال العمرة فی الحج قبل سیاقی الهدی کما جاءنی بعد ما سقت الهدی لصنعت مثل ما أمرتکم، یعنی لتمتعت بالعمرة وما سقت الهدی.

۴- تقطر من ماء غسل الجنابة.

۵- الجذوة: القطعة وهی مثلثة، والبرمة- بالضم- قدر من الحجارة.

نکتفی بهاتین الروایتین اللتین توضحان الدرس التعلیمی للحج وسننه، الذی کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أستاذه، والحجاج المسلمون تلامیذه، وهو أول عمل کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یهدف إلیه فی حجة وداعه وفی لقائه الأخیر مع المسلمین..

یقول الخبر:

«إن رسول اللَّه حین وقف بعرفة، قال: هذا الموقف- للجبل الذی هو علیه- وکل عرفة موقف». وقال حین وقف علی قزح صبیحة المزدلفة: «هذا الموقف، وکل مزدلفة موقف». ثم لما نحر بالمنحر، قال: «هذا المنحر، وکل منی منحر».

فقضی رسول اللَّه الحج وقد أراهم مناسکهم، وعلمهم ما افترض علیهم فی حجهم فی‌المواقف ورمی‌الجمار والطواف بالبیت، وماأحلّ لهم‌فی‌حجهم‌وماحرم علیهم» (۱).

وقد تخلل حجه هذا ومواقفه هنا وهناک فی مشاعر الحج ومنازله خطبٌ راح صلوات اللَّه علیه یلقیها یبیّن فیها أحکاماً شرعیة وأهدافاً ومبادئ قیمة تحملها رسالته السماویة:

فخطب الناس فقال: «إن دماءکم وأموالکم علیکم حرام علیکم... ألا کلّ

۱- تاریخ الطبری ۲: ۲۰۶.

ص: ۲۵۲

شیء من أمر الجاهلیة تحت قدمی موضوع، ودماء الجاهلیة موضوعة... وربا الجاهلیة موضوع... فاتقوا اللَّه فی النساء...».

إنه حدیث الغدیر

وننتقل إلی دور آخر لا یقلّ أهمیة عن ذلک الدور الأول إن لم نقل بأنه قد یفوقه، لما یتحمله من مسؤولیات عظیمة ینتظره المسلمون وتنتظره الرسالة. إنه دور القیادة من بعده صلی الله علیه و آله وهو یقف موقفه الأخیر کما حج حجه الأخیر. وکل ما صدر منه صلی الله علیه و آله کان تلبیةً لما أمرت به السماء وصاغته له إرادتها وهو ما نراه فی قراءتنا هذه لما نزل من قرآن وهو یغادر منازل الحج عائداً إلی المدینة المنورة، وإذا به یفاجئ الجمیع لیوقفهم فی صحراء ملتهبة وتحت شمس حارقة، فی غدیر خم، وهو ما یبیّن عظم ما کان یریده ویهدف إلیه، و لیؤدی ما بقی علیه أداؤه... إنه أمر السماء وما علیه إلا الامتثال بتبلیغه..

إنه حدیث عرف عند الإمامیة بأنه حدیث الغدیر، حدیث الولایة الکبری، وحدیث إکمال الدین، وإتمام النعمة، ورضا اللَّه تعالی. إنه حدیث نزل به کتاب اللَّه المبین: الآیة ۶۷ و ۳ من سورة المائدة فی حجة الوداع.

حدیث تواترت به السنة النبویة متناً وسنداً منذ عهد الصحابة والتابعین، وحظی بالکثیر الکثیر کتابةً وشعراً وأجادت فیه أفکارهم وقرائحهم..

وبدءاً نعرض ما جاء به الخبر:

... فلما قضی مناسکه، وانصرف راجعاً إلی المدینة، ومعه من کان من الجموع، ووصل إلی غدیر «خم» من الجحفة التی تتشعب فیها طرق المدنیین والمصریین والعراقیین، وذلک یوم الخمیس، الثامن عشر من ذی الحجة، نزل جبرئیل الأمین عن اللَّه تعالی بقوله: «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ ...» (۱).

۱- المائدة: ۶۷.

ص: ۲۵۳

وکان أوائل القوم قریبین من الجحفة، فأمر رسول اللّه أن یردّ من تقدم منهم، ویحبس من تأخر عنهم، حتی إذا أخذ القوم منازلهم، نودی بالصلاة، صلاة الظهر، فصلی بالناس، وکان یوماً حاراً، یضع الرجل بعض ردائه علی رأسه وبعضه تحت قدمیه من شدة الرمضاء، فلما انصرف من صلاته، قام خطیباً وسط القوم علی أقتاب الإبل، وأسمع الجمیع رافعاً عقیرته، فقال:

«ألحمد للّه، ونستعینه، ونؤمن به، ونتوکل علیه، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سیئات أعمالنا، الذی لا هادی لمن أضل ولا مضلّ لمن هدی، وأشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

أیها الناس، إنی أوشک أن أدعی فأجیب، وإنی مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنک قد بلّغت ونصحت، وجهدت، فجزاک اللّه خیراً.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنّته

ص: ۲۵۴

حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن الساعة آتیة لا ریب فیها، وأن اللَّه یبعث من فی القبور؟

قالوا: بلی نشهد بذلک.

قال: اللهم اشهد. ثم قال: أیها الناس، ألا تسمعون؟

قالوا: نعم.

قال: فإنی فرط علی الحوض، فانظرونی کیف تخلفونی فی الثقلین؟

فنادی مناد: وما الثقلان یا رسول اللَّه؟

قال: الثقل الأکبر، کتاب اللَّه، والآخر الأصغر، عترتی، وإن اللطیف الخبیر نبأنی أنهما لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلکوا، ولا تقصروا عنهما فتهلکوا.

ثم أخذ بید علی فرفعها، حتی رؤی إباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: أیها الناس، من أولی الناس بالمؤمنین من أنفسهم؟

قالوا: اللَّه ورسوله أعلم.

قال: إن اللَّه مولای، وأنا مولی المؤمنین، وأنا أولی بهم من أنفسهم.

فمن کنت مولاه، فعلی مولاه- یقولها ثلاث مرات- ثم قال: اللَّه وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حیث دار، ألا فلیبلغ الشاهد الغائب.

ثم لم یتفرقوا حتی نزل أمین وحی اللَّه بقوله:

«الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی».

فقال رسول اللَّه: اللَّه أکبر علی إکمال النعمة ورضا الرب برسالتی والولایة لعلیّ من بعدی».

وقال حسان بن ثابت: أتأذن لی یا رسول اللَّه أن أقول أبیاتاً؟

قال: قل.

ینادیهم یوم الغدیر نبیهم بخمّ وأسمع بالنبی منادیا

بأنی مولاکم نعم وولیکم فقالوا ولم یبدو هناک التعامیا

إلهک مولانا وأنت ولینا ولا تجدن فی الخلق للأمر عاصیا

ص: ۲۵۵

فقال له قم یا علی فإننی رضیتک من بعدی إماماً وهادیا

فمن کنت مولاه فهذا ولیه فکونوا له أنصار صدق موالیا

هناک دعا اللهم وال ولیه وکن للذی عادی علیاً معادیا (۱)

هذا مجمل ما جری فی واقعة الغدیر وحدیثه، الذی لم یبلغ أی‌حدیث درجته فی التواتر والتضافر ولا فی الاهتمام نثراً ونظماً..

ونحن إذ نذکر هذا لنبین مورد نزول هاتین الآیتین، وأن الأولی جاءت لتأمر النبی صلی الله علیه و آله بتبلیغ أمر ولایة علی علیه السلام، وأن الثانیة نزلت بعد إتمام ذلک التبلیغ...

وبالتالی فهما آیتان قرآنیتان أنزلتا علی صدره الشریف فی حجة الوداع، وهذه قراءة فیهما:

قراءة فیما نزل من القرآن فی حجّة الوداع

«یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ» (۲).

«الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً» (۳)

فی شهر ذی القعدة من السنة العاشرة للهجرة النبویة قرر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الخروج من المدینة المنورة إلی مکة المکرمة حاجاً، لأنه لم یحج منذ أن هاجر من مکة إلی المدینة، وأذن فی الناس بالحج، فقدم المدینة خلق کثیر من المسلمین لیأتموا به فی حجته التی سمّیت بعدة أسماء:

حجة الوداع، وحجة الإسلام، وحجة البلاغ، وحجة الکمال، وحجة التمام.

واستندت تسمیتها بالأسماء الثلاثة الأخیرة إلی الآیتین الکریمتین من سورة

۱- انظر المیزان، البحث الروائی، ومجمع البیان فی تفسیر الآیة، وکتاب الغدیر للشیخ الأمینی.

۲- المائدة: ۶۷.

۳- المائدة: ۳.

ص: ۲۵۶

المائدة اللتین نزلتا فی حجته المذکورة واللتین ذکرناهما آنفاً.

وهی حجة الوداع لأنه لم یحج بعدها إلی أن توفاه اللَّه تعالی بعد ثلاثة أشهر تقریباً. فقد ودّع الناس بعد انتهاء خطبته فی عرفات ومنی، ومن هنا قال الناس عنها: حجة الوداع، ویقول الطبری: إنها سمیت حجة الوداع وحجة البلاغ.

ووجه التسمیتین الأخیرتین یعود إلی نزول الآیة التی أعلنت إتمام الدین «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی» فی تلک السفرة، وإلی قول الرسول صلی الله علیه و آله: «ألا هل بلّغت، اللهم اشهد» تکراراً فی خطبته (۱).

التفّت حول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی حجته هذه جموع کثیرة لا- یعلم عددها إلا- اللَّه تعالی. وأقل ما حملته الروایات هو تسعون ألفاً أو یزیدون بعد أن انضم إلیه فی حجه المقیمون فی مکة والقادمون من الیمن.

وقت نزول الآیة ۶۷ من المائدة

وقع الخلاف بین المفسرین فی وقت نزول هذه الآیة:

فبعد اتفاقهم أنها نزلت فی السنة العاشرة للهجرة وفی حجة الوداع، اختلفوا فی یوم نزولها ومکانه.

رأی یقول: إن هذه الآیة نزلت یوم الجمعة، وکان یوم عرفة بعد العصر فی حجة الوداع سنة عشر، والنبی صلی الله علیه و آله واقف بعرفات علی ناقته العضباء. وهو ما علیه مشهور أهل السنة.

ورأی یقول: لما قضی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مناسکه وانصرف راجعاً إلی المدینة المنورة ووصل إلی غدیر «خم» من الجحفة، مفترق تتشعب فیه طرق المدنیین والمصریین والعراقیین، وکان ذلک یوم الخمیس، الثامن عشر من ذی الحجة. نزل جبرئیل الأمین بالآیة. وهو ما علیه الإمامیة.

۱- انظر: طبقات ابن سعد ۲: ۱۸۴؛ وتاریخ الطبری ۲: ۲۰۶.

ص: ۲۵۷

وفی سند عن أبی سعید الخدری أنه قال:

نزلت هذه الآیة: «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» یوم «غدیر خم» فی علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه.

المراد من الآیة الکریمة

اختلفوا فی مراد الآیـة وفیمن نزلت حتی تجاوز ذلک عشرة أقوال، وقبل التحدث عن أهمها أری من المناسب أن نستخلص ما حملته الآیـة نفسها من خصائص أو نکات علمیـة یمکننا الاستعانة بها والاتکاء علیها لمعرفـة أیّ الآراء هو المناسب أو الأرجح لمعرفة المراد من الآیة الکریمة.

فقد استوقفتنی هذه الخصائص طویلًا والذی استوقفنی أکثر هو الآراء التی راح عدد من المفسّرین یذکرونها لتفسیر مراد الآیة الکریمة دون النظر والاعتناء بمقاطع الآیـة التی تتوفر علی أمور مهمـة لا یصح التغافل عنها أو ترکها إذا ما أراد أحد معرفة مراد الآیة وما تریده وما تهدف إلیه.

هناک أمور خمسة تتوفر علیها الآیة المبارکة یمکن أن یتوکأ علیها الباحث لمعرفة مراد الآیة المبارکة التی ابتدأت بخطاب:

«یا أَیُّهَا الرَّسُولُ» وهو أمر لم یأت فی الخطابات القرآنیـة إلا هـذه المرة و «یـا أَیُّهَا الرَّسُولُ لا یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ مِنَ الَّذِینَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...» (۱).

ربما تکون الحکمـة- واللّه أعلم- فی أنه ناداه بأشرف الصفات وهو «یا أیها الرسول» لأن الرسول مهمته الرئیسیـة هی التبلیغ، ولإعطاء أهمیة کبیرة للوظیفة التی کلّف بها...

بعد هذا نعود إلی ذکر الأمور أو النکات، وهی:

۱- المائدة: ۴۱.

ص: ۲۵۸

أولًا:

إن الآیة کانت فی آخر حیاة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقد تکون الأخیرة أو آخر ما نزل من القرآن الکریم، فقد انتقل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلی جوار ربه تعالی بعد واحد وثمانین یوماً أو اثنین وثمانین یوماً من نزولها.

ثانیاً:

إنه أمر نازل من السماء، ولیس لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله أی علاقة فی صناعته لا من قریب ولا من بعید. صحیح أن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «وَما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی» (۱). وأنه لا یؤسّس قراراً أو حکماً من نفسه ما لم یأته وحی السماء وأمرها وکیف ینشئ حکماً أو أمراً دون إرادة السماء «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنا بَعْضَ الْأَقاوِیلِ* لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْیَمِینِ* ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِینَ* فَما مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِینَ» (۲).

لکن هذا التأکید الوارد فی الآیة له ما یبرره، وهو أن الآیة والأمر الوارد فیها فیه مجال أو مساحة یتحرک فیها المتقولون والمتشککون الذین یلقون بدلوهم تقولًا وتشکیکاً فیما تریده الآیة، وهم کثر فی وقت نزولها... ولهذا راحت الآیة تبعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کما هوواضح من أسلوبها، عن أیمسؤولیة وتبعة فی تحمل ما جاءت به ولیس له دور إلا فی تبلیغها وتبلیغها فقط. ومع هذا لم ینجو من الاتهام..

ثالثاً:

إنه أمر مهم جداً ولیس أمراً فرعیاً أو جزئیاً بل هو بدرجة أن عدم تبلیغه یساوی عدم تبلیغ الرسالة کاملة بما بذله النبی صلی الله علیه و آله طیلة ثلاث وعشرین سنة أو تزید، وبما تحمّله من تضحیات جسام منه صلی الله علیه و آله وممن معه.

رابعاً:

إن هناک فی الآیة خطاباً أو شرطاً وجزاء یتصف بأنه شدید اللهجة «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ» ولا یخلو هذا من تهدید للرسول صلی الله علیه و آله اذا ما تأخر فی تبلیغ ما أنزل أو امتنع لأیسبب کان، یأتی الجزاء وهو یحمل تهدیداً ووعیداً یتمثل فی «فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ» أیإن لم تفعل ذلک فلک ما یوجب کتمان الوحی أو الرسالة کلها من العقاب، وهو شیء خطیر.

۱- النجم: ۳- ۴.

۲- الحاقة: ۴۴- ۴۷.

ص: ۲۵۹

خامساً:

إن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کان یخشی الناس فی تبلیغه أو کان یحذر تبلیغه بدلیل ذیل الآیة: «واللَّه یعصمک من الناس» إن کنت خائفاً منهم أو متردداً. وهذا الخوف منه صلی الله علیه و آله أو التردد لم یکن علی نفسه صلی الله علیه و آله- کما یتضح من سیرته وکدحه وجهده وجهاده فی سبیل الدعوة إلی اللَّه تعالی ونشر دینه وتحکیم شریعته- بل علی الرسالة نفسها أو عدم تحقق الأمر ومصادیقه خارجاً وعدم استجابة الناس له وخوفه علیهم وهو الحریص علیهم من أن یؤدی عدم استجابتهم للأمر النازل دخول النار، أو حذره من التشکیک به بل وقد یکون هناک اتهام لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالمحاباة کما سنری فی الوضع التاریخی إذا ما تحدثنا عنه. فکان یحتاج إلی تسدید جدید وعصمة من السماء تقلع من نفسه أسباب الخوف أو التردد و تمنع عنه کید الآخرین ومزاعمهم ولو أثناء تبلیغه الأمر أو حتی تتم الحجة فیه علی الجمیع...

بعد هذا نأتی إلی مناقشة أهم الأقوال فی الآیة التی جمعها الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر، ومدی انطباق نکات الآیة علیها لنصل أخیراً إلی الرأی الذی یمکن أن تنطبق علیه النکات المذکورة، فیکون هو المناسب أو الأرجح لتفسیر مرادها، طبعاً هذا مع استبعاد الروایات من الفریقین، لأننا کما أسلفنا نرید أن نعیش مع الآیة وأجوائها ونکاتها من داخلها فقط بعیداً عن الواقع التاریخی والروائی...

آراء فی سبب نزولها

بعد هذا نأتی إلی أهم آراء المفسرین حول سبب نزول الآیة الکریمة، وبالتالی تبین المراد من الآیة، ونری مدی انطباق النکات أعلاه علی کل واحد منها، لنصل أخیراً إلی الرأی الذی تنطبق علیه النقاط الخمس المذکورة، ویکون هو الراجح لمعرفة سببها ومرادها من داخل الآیة نفسها ومن أجوائها بالذات بعیداً کما قلنا عن الروایات من الفریقین وما تذهب إلیه فی تفسیر الآیة. نعم بعد أن نصل إلی القول المناسب لمراد الآیة یمکن أن تکون الروایات وأیضاً الأمر التاریخی، أیاجتماع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالمسلمین فی موضع یقال له: غدیر خم، وحدیثه إلیهم وتبلیغه ما

ص: ۲۶۰

أمرته السماء بقوله: «من کنت مولاه فهذا علی مولاه...» وهو الرأی العاشر الذی دوّنه الفخر الرازی فی تفسیر الآیة المبارکة. تلک الروایات وهذه الواقعة فی غدیر خم وحتی ما ورد من قصائد وأشعار وآراء علماء ومؤرخین وأقوال عدد من الصحابة تؤید وتبارک، وهی لیست قلیلة یمکن أن تکون قرائن علی صحة ما ذهب إلیه الإمامیة فی تفسیر الآیة.

فنحن إذن أمام تفسیرات للآیة وآراء متعددة فی سبب نزولها، وحتی نرجّح رأیاً منها لا بد لنا من الاستعانة بما تحمله الآیة نفسها من قرائن وخصائص تعیننا علی ذلک، والأخذ بالرأی المناسب لتفسیرها وترک غیره من الآراء التی قد تبتعد عن هذه القرائن أو لا تنطبق علیه تلک النکات الخمس التی اقتبست من داخل الآیة المبارکة ومن دون اللجوء إلی الروایات أو إلی کل ما یمت إلی الروایات من الفریقین.

وقد ذکر الفخر الرازی فی تفسیره القیّم عشر أقوال ذکرها المفسرون فی سبب نزول الآیة نکتفی به؛ لأنه جمعها و نقف عند أهمها:

الأول:

لما نزلت آیتا التخییر وهما قوله: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیاةَ الدُّنْیا وَزِینَتَها فَتَعالَیْنَ أُمَتِّعْکُنَّ وَأُسَرِّحْکُنَّ سَراحاً جَمِیلًا* وَإِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْکُنَّ أَجْراً عَظِیماً» (۱)

فلم یعرضها علیهن خوفاً من اختیارهن الدنیا فنزلت.

الجواب:

أولًا:

هاتان الآیتان نزلتا من سورة الأحزاب قبل آیتنا المذکورة فی البحث.

ثانیاً:

إن هذا التخییر فی الآیتین یعد أمراً جزئیاً لا یکون بدرجة کبیرة من الأهمیة حتی یکون عدم تبلیغه عدم تبلیغ للرسالة بکاملها.

۱- الأحزاب: ۲۸- ۲۹.

ص: ۲۶۱

ثالثاً:

هل الخوف من اختیارهنّ الـدنیا وبالتالی طلاقهن، وهو لا یرید ذلک لهنّ، یجعل رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله یحجم عن تخییرهن، وبالتالی یحتاج إلی آیة أخری تصرّ وتؤکد علیه أن یبلغهن ویخیرهن، وهل یحتاج التخییر هذا إلی «وَاللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ»؟

رابعاً:

لقد أخبر رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أزواجه بهذا التخییر الوارد فی الآیتین کما تقول التفاسیر ولم یؤخره أو یتردد أو یخشی أحداً فیه.

الثانی:

نزلت فی أمر زید وزینب بنت جحش.

«وَإِذْ تَقولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِـکْ عَلَیْکَ زَوْجَـکَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِی فِی نَفْسِـکَ مَا اللَّهُ مُبْـدِیهِ وَتَخْشَـی النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضـی زَیْـدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناکَها لِکَیْ لا یَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی أَزْواجِ أَدْعِیائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَکانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» (۱).

الجواب:

أولًا:

جاءت هذه الآیة فی بیان وتوضیح المناکح، وهی نزلت قبل آیتنا المذکورة فی السنة الخامسة للهجرة.

ثانیاً:

تحمل أمراً جزئیاً ولیس له أهمیة کبیرة یعادل عدم تبلیغه علی فرض أن لم یتم ذلک- عدم تبلیغ الرسالة کاملة.

ثالثاً:

تزوج رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله بزینب بعـد طلاقها من قبل زیـد، ووقع هـذا فی السـنة الخامسة للهجرة وقبل حجة الوداع بخمس سنوات تقریباً، وقبل نزول آیـة التبلیغ التی نحن بصـددها. کما أن الأمر لا یحتاج إلی آیـة أخری تحث رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله علی إجراء ذلک.

رابعاً:

انتهت الخشیة المذکورة فی الآیة علی فرض وجودها بعد أن انتهی کل

۱- الأحزاب: ۳۷.

ص: ۲۶۲

شیء وعرف النـاس أنه صـلی الله علیه و آله تزوج بزینب فلاـ داعی للعصـمة من النـاس، کمـا فی آیـة التبلیغ. فـأی ضـرورة لإنزال آیة أخری تحث الرسول صلی الله علیه و آله علی إظهار ما عنده نحو زینب وقد بان کل شیء واتضح.

خامساً:

ثم ألا یعدّ هذا فی هذه الآیة وآیتی التخییر أیضاً وطیلة هذه المدة حتی نزلت آیة البلاغ «بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» کتماً للوحی؟! وهذه أم المؤمنین عائشة تقول: «من زعم أن رسول اللّه صلی الله علیه و آله کتم شیئاً من الوحی فقد أعظم الفریة علی اللّه، واللّه تعالی یقول: «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ» ولو کتم رسول اللّه شیئاً من الوحی لکتم قوله «وَتُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ»» (۱).

الثالث:

لما نزل قوله تعالی: «وَلا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَیَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ کَذلِکَ زَیَّنّا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ» (۲).

سکت الرسول صلی الله علیه و آله عن عیب آلهتهم فنزلت هـذه الآیـة، وقـال «بَلِّغْ»، یعنی معـایب آلهتهم ولاـ تخفهـا عنهم، واللّه یعصمک منهم.

الجواب:

أولًا:

الآیـة تحمل نهیاً عن سبّ الـذین کفروا، یعنی لا تسـبوهم. وقـد التزم رسول اللّه صـلی الله علیه و آله بهـذا النهی ولم یسـبهم فهو عمل بالآیة ولم یخالفها. فما الضـرورة لآیة البلاغ وما تحمله. والرسول صـلی الله علیه و آله لم یعمل شیئاً مخالفاً. نعم لو کان قد أمر بسـبّهم وامتنع- أیلم یعمل بـذلک- تأتی آیـة البلاغ لتأمره بسبهم. اللهم إلا أن نقول: إنها أنهت العمل بتلک الآیـة الناهیـة عن السب فأمرت الرسول صلی الله علیه و آله بـأن یسـبهم ولایخشـاهم لأن اللّه یعصـمه منهم. ولیس فی آیـة البلاـغ ما یشیر إلی هـذا ولو بلفظة قریبة للسباب.

۱- انظر: الفخر الرازی، التفسیر الکبیر، تفسیر الآیة ۶۷ من سورة المائدة.

۲- الأنعام: ۱۰۸.

ص: ۲۶۳

ثانیاً:

هل سبّ الآلهة وعدمه یکون مساوقاً لأصل الرسالة فی الأهمیة والخطورة؟!

ثالثاً:

وهل سبّ آلهتهم أهم من تهدیمها وقد هدمها رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی فتح مکةّ؟!

رابعاً:

الآیة المذکورة متقدمة علی آیة البلاغ.

الرابع:

نزلت فی الجهاد، فإن المنافقین کانوا یکرهونه، فکان یمسک أحیاناًعن حثهم علی الجهاد.

الجواب:

وهو رأی عجیب وآیات الجهاد نزلت قبل آیتنا المذکورة، نزلت أثناء الدعوة، والإسلام فی مسیرته کان محتاجاً إلی الجهاد ومقارعة الظالمین والمشرکین والمنافقین. وآیات الجهاد عدیدة نزل بها القرآن الکریم تحث المسلمین علیه وتبین أجر من جاهد وعمل به، وتفضح المتخلفین عنه وأکثرهم من المنافقین. ومن تلک الآیات: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْکُفَّارَ وَالْمُنافِقِینَ وَاغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِیرُ» (۱).

«انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَأَنْفُسِکُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* لَوْ کانَ عَرَضاً قَرِیباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوکَ وَلکِن بَعُدَتْ عَلَیْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَیَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَکُمْ یُهْلِکُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ یَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ* عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْکاذِبِینَ» (۲)

وفیها حث عام علی الجهاد.

وسورة التوبة نزلت فی السنة التاسعة للهجرة، وسمیت بالفاضحة لأنها فضحت المنافقین بإظهار نفاقهم، وسمیت المبعثرة لأنها تبعثر أسرار المنافقین. فهم

۱- التوبة ۷۳، وانظر: التحریم: ۹.

۲- التوبة: ۴۱- ۴۳.

ص: ۲۶۴

مطالبون بالجهاد وراحوا يلوذون بأعذار باطلة وبأيمان كاذبة...

فلم يتردد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى تبليغ آيات الجهاد للمسلمين وفيهم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وكانوا يعيشون بين المسلمين، ولم يخش أحداً أبداً.

الخامس:

والفخر الرازى يذهب إلى أن الأولى حمله على أنه تعالى أمّنه من مكر اليهود والنصارى وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة فى البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها (۱).

إذن ليس للرازى دليل يثبت به هذه الأولوية التى ذهب إليها إلا أن هذه الآية مسبوقة وملحوقة بآيات تتحدث عن اليهود والنصارى، فهو يستدل بسياق الآيات وحتى لا تكون هذه الآية مقحمة بينها، فلا بد من أن تكون ناظرة لمكرهم وخوف النبى صلى الله عليه و آله من ذلك.

والجواب:

أولًا:

إن الذى يناسب تفسيره أن تكون آية البلاغ نازلة أول دخول رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله المدينة المنورة أو وهو فى المدينة، ويمتنع من التبليغ لخشيته اليهود والنصارى.

أما أنه صلى الله عليه و آله وقبل أن ينزل المدينة مهاجراً يرسل المبلغين، ومنهم مصعب بن عمير رضوان اللَّه عليه، من مكة بعد بيعة الرضوان ليعلّموا من آمن من أهل المدينة أحكام الدين الجديد، ثم يهاجر إلى المدينة ويواصل دعوته وأنشطته ويقدم التضحيات العظيمة فى معاركه، و ينزل فى السنة الخامسة للهجرة بعد معركة الخندق بيهود بنى قريظة حكم الصحابى الجليل سعد بن معاذ، فقتلت رجالهم

۱- انظر: الرازى، التفسير الكبير، الآية.

ص: ۲۶۵

وسبيت نساؤهم وقسّمت أموالهم. وبعد أن قويت دولة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی المدينة وعظمت شوكتها... تأتی الآية فی السنة العاشرة للهجرة تؤمنه مكر أهل الكتاب وتأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم وهم ليسوا من القوة بحيث يخشاهم!

أما القول بأنه صلی الله علیه و آله أمر بهذه الآية: «بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ» بتبليغ الرسالة أحكاماً وشرائع ومفاهيم فهو لا يصح؛ لأن الآية من أواخر ما أنزل من القرآن الكريم، وجاءت بعد ثلاث وعشرين سنة ورسول اللَّه صلی الله علیه و آله يدعو قومه وأمته إلى عبادة اللَّه تعالى وتحكيم شريعته والتزام أحكامه وتعاليمه. فهو بلّغ الرسالة. ولو كانت الآية نازلة فی بداية الدعوة لكان هذا الكلام سليماً.

ولو قلنا: إن «... ما أُنْزِلَ...» هو تبليغ الرسالة أی «وإن لم تبلّغ الرسالة فما بلغت الرسالة» فهو كلام مختل لاتحاد الشرط والجزاء، وهذا كقولنا: «إن أتی زيد فقد جاء زيد» أو: «إن درست فقد درست». وهذا لا وجه له إلا فی شواذ البلاغة.

ويحتاج إلى مزيد عناية وتأويل. والمفروض أن الشرط والجزاء متغايران فبتغايرهما تتم الفائدة، ويكون الكلام متيناً سليماً.

إذن، الشیء المأمور به رسو ل اللَّه صلی الله علیه و آله فی الآية «بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ» هو:

شیء آخر غير أصل الرسالة.

وهو شیء اختصّت السماء به، وليس هو من اجتهاد رسول اللَّه وعندياته.

وأن هذا الشیء ليس أمراً عادياً أو حكماً فرعياً، بل هو شیء كبير بدرجة أن عدم تبليغه يساوق عدم تبليغ الرسالة.

وأن عدم تبليغه من قبلك يارسول اللَّه صلی الله علیه و آله وأنت فی آخر حياتك يساوی عدم تبليغ الرسالة التی بلغتها واستغرقت ثلاثاً وعشرين سنة وجهوداً عظيمة وتضحيات جساماً وأموالًا كثيرة... وأن كل هذا سيذهب سدی إن لم تبلغ يارسول اللَّه صلی الله علیه و آله «ما أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ».

وأن هذا الشیء يثير فی نفس رسول اللَّه الخوف أو التردد، أو أن يؤخره

ص: ۲۶۶

إلی وقت آخر أكثر مناسبة فيحتاج معه إلی «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ». فيمنع هذا المقطع من الآية كل ذلك ويلقی الحجة عليه بتحذيره من التأخر فی الأداء.

إذن هوشیء مهم جداً يحتاج معه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلی دعم خاص من السماء وتسديد خاص أيضاً «واللَّه يعصمك من الناس».

فيكون تقدير الكلام هكذا:

إن لم تبلغه فما بلغت رسالته.

فالآية جاءت وأمرته بتبليغ شیء آخر غير الرسالة فما هو هذا الشیء؟

إنه القول الذی ذكره الفخر الرازی فی تفسيره الكبير قولًا عاشراً وهذا نصه:

القول العاشر:

نزلت الآية فی فضل علی بن أبی طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: «من كنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك یاابن أبی طالب، أصبحت مولای ومولی كل مؤمن ومؤمنة. وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علی (۱).

وهذا هو قول الإمامية وتنطبق عليه النكات التی تستخلص من الآية نفسها، وهو ما أيدته روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام ومن غيرهم.

ويخلص السيد الطباطبائی فی تفسيره للآية إلی القول التالی:...

«ومن جميع ما تقدم يظهر أن تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب اللَّه لهذا الدين من يقوم مقام النبی صلی الله علیه و آله فی حفظه وتدبير أمره، وإرشاد الأمة القائمة به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصی إلی مرحلة القيام بالحامل النوعی، ويكون ذلك إكمالًا للدين بتحويله من صفة الحدوث إلی صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة، وليس يبعد أن يكون قوله تعالی: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

۱- أنظر: تفسير الرازی، الآية.

ص: ۲۶۷

الْکِتابِ لَوْ یَرُدُّونَکُمْ مِنْ بَعْدِ إِیمانِکُمْ کُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» (۱)

باشتماله علی قوله: «حتی یأتی» إشارة إلی هذا المعنی.

وهذا یؤید ما ورد من الروایات أن الآیة نزلت یوم غدیر خم، وهو الیوم الثامن عشر من ذی الحجة سنة عشر من الهجرة فی أمر ولایة علی علیه السلام، وعلی هذا فیرتبط الفقرتان أوضح الارتباط، ولا یرد علیه شی من الإشکالات المتقدمة...

ثم یواصل السید حدیثه حتی یصل به إلی:

«فمحصل معنی الآیة: الیوم- وهو الیوم الذی یئس فیه الذین کفروا من دینکم- أکملت لکم مجموع المعارف الدینیة التی أنزلتها إلیکم بفرض الولایة، وأتممت علیکم نعمتی وهی الولایة التی هی إدارة أمور الدین وتدبیرها تدبیراً إلهیاً، فإنها کانت إلی الیوم ولایة اللَّه ورسوله، وهی إنما تکفی ما دام الوحی ینزل، ولا تکفی لما بعد ذلک من زمان انقطاع الوحی، ولا رسول بین الناس یحمی دین اللَّه ویذبّ عنه، بل من الواجب أن ینصب من یقوم بذلک، وهو ولی الأمر بعد رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله القیم علی أمور الدین والأمة.

فالولایة مشروعة واحدة، کانت ناقصة غیر تامة حتی إذا تمّت بنصب ولی الأمر بعد النبی، وإذا کمل الدین فی تشریعه، وتمت نعمة الولایة فقد رضیت لکم- من حیث الدین- الإسلام الذی هو دین التوحید الذی لا یعبد فیه إلا اللَّه ولا یطاع فیه- والطاعة عبادة- إلا اللَّه ومن أمر بطاعته من رسول أو ولی.

فالآیة تنبئ عن أن المؤمنین الیوم فی أمن بعد خوفهم، وأن اللَّه رضی لهم أن یتدیّنوا بالإسلام الذی هو دین التوحید، فعلیهم أن یعبدوه ولا یشرکوا به شیئاً بطاعة غیر اللَّه أو من أمر بطاعته...» (۲).

۱- البقرة: ۱۰۹.

۲- انظر تفسیر المیزان للعلامة الطباطبائی، الآیة، وفیه بحث قیم و نافع.

ص: ۲۶۸

وختاماً نقول:

إن الواقعة التاريخية التى حدثت فى غدير خم وما تعرّض له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من اتهام بمحاباة ابن عمه، كما عن بعضهم، وبعدم قبول من آخرين بعد ذلك، قد يكون كل هذا وغيره هو ما يبرر خشيته صلى الله عليه و آله.

صحيح أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يتعرّض حينها إلى أذى عظيم منهم، إلا أنهم راحوا يحيكون المؤامرات للإيقاع بمشروعه فى الإمامة بعد ذلك.

وصدق القائل:

فلم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً أضيعا

فالإمامة أمر عظيم وخطير، ودورها فى الأمة مسؤولية ولها آثار ليست سهلة، لأنها مكملة لدور النبوة التى ختمت برسول اللَّه صلى الله عليه و آله، بل لا ـ تقل أهمية عن ذلك الدور فى بناء فكر الأمة وعقيدتها ومعارفها والمحافظة عليها، وتجذير التغيير النفسى والاجتماعى فيها، ومنعها من الانحراف عن الصراط المستقيم، وصيانتها من التشتت والتمزق، وذلك بتقديم النموذج الرائع للإسلام النقى الأصيل، الذى لابد أن يتم عبر شخصيات قد صيغت صياغة خاصة وبنيت بناءاً متيناً وامتلكت قدرات وملاكات تفردت بها وجعلتها قادرة على مواصلة وظيفتها بكل وعى وعلم وخلق وحرص وصدق وإخلاص...

ص: ۲۶۹

مشاهد البعثة النبويّة الشريفة من خلال نهج البلاغة

الدكتور نادر الفضلى

تمهيد

نهج البلاغة: هو كتاب الحياة، كتاب الأخلاق، كتاب الإنسانية، كتاب الدين، كتاب العقيدة. وصدقاً ففى هذاالكتاب الشريف توجد الإجابة على كثير من التساؤلات، وحلولها العملية، وهو يلبى الكثير من الطلبات الفكرية والروحية فى حياة الناس.

لقد لقّبوا «نهج البلاغة» بلقبٍ ممتاز: «وليد القرآن» وما أليقَهُ من لقبٍ!!

فكما أنّ القرآن هو دليل الحياة فى الدنيا، ومرشد الإنسان إلى السعادة فى الآخرة؛ فإنّ تعاليم نهج البلاغة كذلك تضمن فلاحنا فى الدنيا و الآخرة.

وكما أنّ القرآن يؤمّن حاجات البشر إلى يوم القيامة؛ فنهج البلاغة كذلك يحتوى على تعاليم خالدة تؤمّن حاجاتٍ فكريّة وروحية للناس.

وكما أنّ القرآن أصبح بيننا- نحن المسلمين- غريباً مهجوراً وبعيداً؛ فوليد القرآن أصبح أكثر غربةً وهجراناً.

وكما أنّ من اللازم أن نتعرّف على القرآن وتعاليمه أكثر فأكثر؛ فكذلك من اللازم أن نتعرّف على نهج البلاغة ونطبّق تعاليمه الإلهيّة والسماويّة.

ص: ۲۷۰

ونريد الآن أن نتقدّم إلى الأمام خطوةً فخطوة، ونتعرّف على نهج البلاغة أكثر ونستأنس به أكثر. نريد أن نجبُرَ تقصيرنا ونترك الثرثرة وندخل ميدان التطبيق.

ونريد هنا أن نتعلّم نهج البلاغة، ونتعرّف على فصول مختارةٍ من هذا الكتاب المعجب، ونطبّق تعاليمه الحيوية فى حياتنا الفردية و علاقاتنا الاجتماعية.

ندعوكم إلى صُحبتنا على هذا الطريق المقدّس، معاً، سدّد اللّه خطواتكم فى السير أبداً على طريق علىّ عليه السلام.

ونتعرّف هنا على موضوع مهمّ و شيّق، وهو بحث النبوّة الخاصّة يعنى حوادث نبوّة سيّدنا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و ثمار بعثته، و اعتمادنا أساساً على ما نستفيده من كلمات الإمام علىّ عليه السلام، ونسعى أن نقدّم صورةً واضحةً وهادفة من حادثة البعثة النبويّة المثيرة.

نقدّم (رواية البعثة الشريفة) فى ستّة فصول، تحتوى على ثلاثين مشهداً، قال تعالى: «لَقَد جاءَكُم رَسُولٌ مِن أنفُسُكُم عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حَريصٌ عليكُم بِالمُؤمِنينَ رَؤفٌ رَحيمٌ»

إنّ الوقوف على الفترة الموحشة والسنوات السوداء للعالم فى عصر البعثة النبوية، وسماع رواية من كان هو يعيش تلك الفترة ويستمدّ من العلم الإلهىّ، وسماع حديث البعثة المثير من لسانه، وهو ممّن حضر ونظر ذلك الحدث المثير والوحيد فى التاريخ، لهو أمرٌ شيّق ولذيذ!.

ومعرفة الحوادث التى استتبعتها البعثة، وما جرى على يد الرسول والمسلمين الصادقين الأوائل من المواقف الرجولية، فى ذلك العالم المضطرب حينذاك، وبلسان ذلك الراوى العظيم نفسه، أيضاً أمرٌ ملفت وشيّق.

فلنسمع حديث البعثة الشريفة من وريثها الإمام علىّ عليه السلام؛ كى تصبح معرفتنا

ص: ۲۷۱

والتفاتنا إلى هذا الحدث العجيب وآثاره مصباحاً يضیءُ لنا فی حیاتنا فی هذا العالم المضطرب الذی لا یعدو ذلک العصر المظلم.

الفصل الأوّل: العالم فی عصر البعثة

المشهد الأوّل: الهرج و المرج العالمی

المشهد الثانی: سعة الضلال

المشهد الثالث: حکومة الشیطان

المشهد الرابع: زوال الدنیا

المشهد الخامس: من أیام العرب

المشهد الأوّل: الهرج و المرج العالمی

«أَرْسَلَهُ علی حِینِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَ اعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ وَ انْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وَ تَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَ الدُّنْیَا کَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، علی حِینِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا وَ إِیَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَ اغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَی وَ ظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَی، فَهِیَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِی وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ وَ طَعَامُهَا الْجِیفَةُ، وَ شِعَارُهَا الْخَوْفُ وَ دِثَارُهَا السَّیْفُ (۱).

المشهد الثانی: سعة الضلال

بَعَثَهُ وَ النَّاسُ ضُلَّالٌ فِی حَیْرَةٍ، وَ حَاطِبُونَ فِی فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْکِبْرِیَاءُ، وَ اسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِیَّةُ الْجَهْلَاءُ حَیَارَی فِی زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ (۲).

۱- نهج البلاغة: ۱۲۱، الخطبة ۸۹؛ اعتمدنا النص الذی حققه الدکتور صبحی الصالح، طبعة أولی، دار الکتاب اللبنانی، بیروت، ۱۳۸۷- ۱۹۶۸.

۲- نهج البلاغة: ۱۴۰، الخطبة ۹۵.

ص: ۲۷۲

وَ أَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَ طَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِی اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَی غَيْرِه (۱). ابْتَعَثَهُ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِی غَمْرَةٍ، وَ يَمُوجُونَ فِی حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَ اسْتَغْلَقَتْ علی أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ (۲).

المشهد الثالث: حكومة الشيطان:

النَّاسُ فِی فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَ تَزَعْزَعَتْ سَوَارِی الْيَقِينِ، وَ اخْتَلَفَ النَّجْرُ وَ تَشَتَّتَ الأَمْرُ، وَ ضَاقَ الْمَخْرَجُ وَ عَمِیَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَی خَامِلٌ وَ الْعَمَی شَامِلٌ، عُصِیَ الرَّحْمَنُ وَ نُصِرَ الشَّيْطَانُ وَ خُذِلَ الإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَ تَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَ دَرَسَتْ سُبُلُهُ وَ عَفَتْ شُرُكُهُ، أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَ وَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلامُهُ وَ قَامَ لِوَاؤُهُ، فِی فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَ وَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِهَا وَ قَامَتْ علی سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِی خَيْرِ دَارٍ وَ شَرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَ كُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَ جَاهِلُهَا مُكْرَمٌ (۳).

المشهد الرابع: زوال الدنيا:

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلی الله عليه و آله بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الانْقِطَاعُ، وَ أَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاعُ، وَ أَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا علی سَاقٍ، وَ خَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَ أَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِی انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَ اقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَ تَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَ انْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَ انْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَ عَفَاءٍ مِنْ أَعْلامِهَا وَ تَكَشُّفٍ مِنْ

۱- نهج البلاغة: ۴۴، الخطبة ۱.

۲- نهج البلاغة: ۲۸۳، الخطبة ۱۹۱.

۳- نهج البلاغة: ۴۶، الخطبة ۲.

ص: ۲۷۳

عَوْرَاتِهَا، وَ قِصَرٍ مِنْ طُولِهَا (۱).

المشهد الخامس: فی أيّام العرب:

إِنَّ اللَّه بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَ أَمِيناً على التَّنْزِيلِ، وَ أَنْتُمْ- مَعْشَرَ الْعَرَبِ- على شَرِّ دِينٍ وَ فِی شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَ حَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَ تَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَ تَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَ الآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ (۲).

فَإِنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لا يَدَّعِی نُبُوَّةً وَ لا وَحْياً (۳).

الفصل الثانی: حادثة البعثة

المشهد الأوّل: الرسول المختار من اللَّه

المشهد الثانی: شاهد البعثة

المشهد الثالث: الشكّ والإنكار

المشهد الرابع: علامات النبوّة

المشهد الخامس: آية الإيمان

المشهد الأوّل: الرسول المختار من اللَّه

اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَ مِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَ ذُؤَابَةِ الْعلياءِ، وَ سُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَ مَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَ يَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ. طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وأَحْمَى

۱- نهج البلاغة: ۳۱۴، الخطبة ۱۹۸.

۲- نهج البلاغة: ۶۸، الخطبة ۲۶.

۳- نهج البلاغة: ۱۵۰، الخطبة ۱۰۴.

ص: ۲۷۴

مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذلِكَ حَيْثُ الحاجَةُ إليهِ، مِن قُلُوبٍ عُمْيٍ وآذانٍ صُمٍّ وألْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الغَفْلَةِ ومَوَاطِنَ الحَيْرَةِ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الحِكْمَةِ ولَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ العُلُومِ الثَاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذلِكَ كَالأَنْعَامِ السَائِمَةِ والصُخُورِ القَاسِيَةِ (۱).

حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَ أَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَ انْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَ أُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ، وَ شَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ وَ بَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ وَ ثَمَرٌ لا يُنَالُ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَ بَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ وَ شِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَ زَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَ سُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَ كَلامُهُ الْفَصْلُ وَ حُكْمُهُ الْعَدْلُ (۲).

المشهد الثاني: شاهد البعثة

وَ لَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلى الله عليه و آله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَ مَحَاسِنَ أَخْلاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَ نَهَارَهُ، وَ لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَماً وَ يَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، وَ لَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ؛ فَأَرَاهُ وَ لا يَرَاهُ غَيْرِي، وَ لَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وَ خَدِيجَةَ وَ أَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ وَ أَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عليهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟

فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَ تَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَ لَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَ إِنَّكَ لَعلى خَيْرٍ (۳).

المشهد الثالث: الشكّ والإنكار

وَ لَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صلى الله عليه و آله لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَ لا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَ نَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَ

۱- نهج البلاغة: ۱۵۶، الخطبة ۱۰۸.

۲- نهج البلاغة: ۱۳۹، الخطبة ۹۴.

۳- نهج البلاغة: ۳۰۰، الخطبة ۱۹۲.

ص: ۲۷۵

أَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَ رَسُولٌ، وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صلى الله عليه و آله: وَ مَا تَسْأَلُونَ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَ تَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صلى الله عليه و آله:

إِنَّ اللَّه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّه لَكُمْ ذَلِكَ أَ تُؤْمِنُونَ؟ وَ تَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟ قَالُوا:

نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَاتَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ، وَ إِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ، وَ مَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ (۱).

المشهد الرابع: علامات النبوّة

قَالَ صلى الله عليه و آله: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ! إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّه وَ الْيَوْمِ الآخِرِ وَ تَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّه؛ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ، بِإِذْنِ اللَّه. فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَ جَاءَتْ، وَ لَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَ قَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله مُرَفْرِفَةً، وَ أَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأعلى على رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا على مَنْكِبِي، وَ كُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صلى الله عليه و آله، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا- عُلُوّاً وَ اسْتِكْبَاراً-: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَ يَبْقَى نِصْفُهَا. فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَ أَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله. فَقَالُوا- كُفْراً وَعُتُوّاً-: فَمُرْ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ. فَأَمَرَهُ صلى الله عليه و آله فَرَجَعَ (۲).

المشهد الخامس: آية الإيمان

قال عليّ: فَقُلْتُ أَنَا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ، يَا رَسُولَ اللَّه، وَ أَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّه تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ وَ إِجْلالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَ هَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا؟- يَعْنُونَنِي-.

وَ إِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّه لَوْمَةُ لائِمٍ، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ وَ كَلامُهُمْ كَلامُ الأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ وَ مَنَارُ النَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّه

۱- نهج البلاغة: ۳۰۱، الخطبة ۱۹۲.

۲- نهج البلاغة: ۳۰۱، الخطبة ۱۹۲.

ص: ۲۷۶

وَ سُنَنَ رَسُولِهِ، لا يَسْتَكْبِرُونَ وَ لا يَعْلُونَ وَ لا يَغُلُّونَ وَ لا يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ وَ أَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ (۱).

الفصل الثالث: صعوبات البعثة

المشهد الأوّل: الجهد فى سبيل الهداية

المشهد الثانى: الجهاد فى سبيل اللّه

المشهد الثالث: الصحابة الصادقون

المشهد الرابع: المقاومة والنصر

المشهد الخامس: نعمة الإسلام

المشهد الأوّل: الجهد فى سبيل الهداية

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَ قَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ، لا يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ اجْتِمَاعٌ على تَكْذِيبِهِ وَ الْتِمَاسٌ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ (۲).

وَ نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَ تَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ، وَ قَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَدْنَوْنَ وَ تَأَلَّبَ عليه الْأَقْصَوْنَ، وَ خَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَ ضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ وَ أَسْحَقِ الْمَزَارِ (۳).

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ وَ شَاهِداً على الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ، وَ لا مُقَصِّرٍ، وَ جَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ، وَ لا مُعَذِّرٍ، إِمَامُ مَنِ اتَّقَى وَ بَصَرُ مَنِ اهْتَدَى (۴).

۱- نهج البلاغة: ۳۰۲، الخطبة ۱۹۲.

۲- نهج البلاغة: ۲۸۱، الخطبة ۱۹۰.

۳- نهج البلاغة: ۳۰۷، الخطبة ۱۹۴.

۴- نهج البلاغة: ۱۷۳، الخطبة ۱۱۶.

ص: ۲۷۷

المشهد الثانی: الجهاد فی سبیل اللّه

وَ لَقَدْ کُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه صلی الله علیه و آله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَ أَبْنَاءَنَا وَ إِخْوَانَنَا وَ أَعْمَامَنَا، مَا یَزِیدُنَا ذَلِکَ إِلَّا إِیمَاناً وَ تَسْلِیماً، وَ مُضِیّاً علی اللَّقَم وَ صَبْراً علی مَضَضِ الْأَلَم وَ جِدّاً فِی جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَ لَقَدْ کَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَ الْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا یَتَصَاوَلانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَیْنِ، یَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَیُّهُمَا یَسْقِی صَاحِبَهُ کَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَ مَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَی اللَّه صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْکَبْتَ وَ أَنْزَلَ علینَا النَّصْرَ حَتَّی اسْتَقَرَّ الْإِسْلامُ مُلْقِیاً جِرَانَهُ وَ مُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ، وَ لَعَمْرِی لَوْ کُنَّا نَأْتِی مَا أَتَیْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّینِ عَمُودٌ، وَ لا اخْضَرَّ لِلإِیمَانِ عُودٌ (۱).

المشهد الثالث: الصحابة الصادقون

لَقَدْ رَأَیْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلی الله علیه و آله فَمَا أَرَی أَحداً یُشْبِهُهُمْ مِنْکُمْ، لَقَدْ کَانُوا یُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَ قَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَ قِیاماً، یُرَاوِحُونَ بَیْنَ جِبَاهِهِمْ وَ خُدُودِهِمْ وَ یَقِفُونَ علی مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِکْرِ مَعَادِهِمْ، کَأَنَّ بَیْنَ أَعْیُنِهِمْ رُکَبَ الْمِعْزَی مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ، إِذَا ذُکِرَ اللَّه هَمَلَتْ أَعْیُنُهُمْ حَتَّی تَبُلَّ جُیُوبَهُمْ، وَ مَادُوا کَمَا یَمِیدُ الشَّجَرُ یَوْمَ الرِّیحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ وَ رَجَاءً لِلثَّوَابِ (۲).

أَیْنَ الْقَوْمُ الَّذِینَ دُعُوا إِلَی الإِسْلامِ فَقَبِلُوهُ وَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْکَمُوهُ، وَ هِیجُوا إِلَی الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَی أَوْلادِهَا، وَ سَلَبُوا السُّیُوفَ أَغْمَادَهَا وَ أَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَ صَفّاً صَفّاً، بَعْضٌ هَلَکَ وَ بَعْضٌ نَجَا، لا یُبَشَّرُونَ بِالْأَحْیَاءِ وَ لا یُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَی، مُرْهُ الْعُیُونِ مِنَ الْبُکَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّیَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ

۱- نهج البلاغة: ۹۱، الخطبة ۵۶.

۲- نهج البلاغة: ۱۴۳، الخطبة ۹۷.

ص: ۲۷۸

مِنَ الـدُّعَاءِ، صُـفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ، على وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِـعِينَ، أُولَئِكَ إِخْوَانِی الذَّاهِبُونَ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَ نَعَضَّ الْأَيْدِی على فِرَاقِهِمْ (۱).

المشهد الرابع: المقاومة والنصر

قَدْ صُـرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ، وَ ثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ، دَفَنَ اللَّه بِهِ الضَّغَائِنَ، وَ أَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً وَ فَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ وَ أَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلامُهُ بَيَانٌ وَ صَمْتُهُ لِسَانٌ (۲).

وَ أَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ الصَّفِیُّ وَ أَمِينُهُ الرَّضِـیُّ صلى الله عليه و آله، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ وَ ظُهُورِ الْفَلَجِ وَ إِيضَاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَـةَ صَادِعـاً بِهَـا، وَ حَمَـلَ على الْمَحَجَّةِ دَالًّا عليهـا، وَأَقَامَ أَعْلامَ الاهْتِـدَاءِ وَ مَنَارَ الضِّيَاءِ، وَ جَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْـلامِ مَتِينَـةً وَ عُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً (۳).

جَعَلَهُ اللَّه بَلاغاً لِرِسَالَتِهِ، وَ كَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَ رَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ وَ رِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ (۴).

المشهد الخامس: نعمة الإسلام

الْحَمْـدُ للَّهالَّذِی شَرَعَ الْإِسْـلامَ، فَسَـهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرِدَهُ وَ أَعَزَّ أَرْكَانَهُ على مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ وَ سِـلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَ شَاهِـداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ وَ نُوراً لِمَنِ اسْـتَضَاءَ بِهِ، وَ فَهْماً لِمَنْ عَقَلَ وَ لُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَ تَبْصِـرَةً لِمَنْ عَزَمَ وَ عِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَ نَجَاةً لِمَنْ صَـدَّقَ وَ ثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَ رَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ وَ جُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ وَ أَوْضَحُ الْوَلائِجِ، مُشْرَفُ الْمَنَارِ مُشْـرِقُ الْجَوَادِّ مُضِـیءُ الْمَصَابِيـحِ كَرِيمُ الْمِضْـمَارِ رَفِيعُ الْغَايَـةِ جَامِعُ الْحَلْبَـةِ مُتَنَافِسُ السُّبْقَـةِ شَـرِيفُ الْفُرْسَانِ، التَّصْـدِيقُ مِنْهَاجُهُ وَ الصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ وَ الْمَوْتُ غَايَتُهُ وَ الدُّنْيَا

۱- نهج البلاغة: ۱۷۷، الخطبة ۱۲۱.

۲- نهج البلاغة: ۱۴۱، الخطبة ۹۶.

۳- نهج البلاغة: ۲۶۹، الخطبة ۱۸۵.

۴- نهج البلاغة: ۳۱۵، الخطبة ۱۹۸.

ص: ۲۷۹

مِضْمَارُهُ وَ الْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ وَ الْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ (۱).

الفصل الرابع: ثمار البعثة

المشهد الأوّل: البيّنة الخالدة

المشهد الثانی: الطلعة الأبدية

المشهد الثالث: نهاية الرسالة

المشهد الرابع: التأسّی بالرسول

المشهد الخامس: وديعة النبوّة

المشهد الأوّل: البيّنة الخالدة

ثُمَّ أَنْزَلَ عليه الْكِتَابَ، نُوراً لا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَ سِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَ بَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَ مِنْهَاجاً لا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَ شُعَاعاً لا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَ فُرْقَاناً لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَ تِبْيَاناً لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَ شِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَ عِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَ حَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ، فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَ بُحْبُوحَتُهُ، وَ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَ بُحُورُهُ، وَ رِيَاضُ الْعَدْلِ وَ غُدْرَانُهُ، وَ أَثَافِيُّ الإِسْلامِ وَ بُنْيَانُهُ، وَ أَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَ غِيطَانُهُ، وَ بَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَ عُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَ مَنَاهِلُ لا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَ مَنَازِلُ لا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَ أَعْلامٌ لا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَ آكَامٌ لا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ، جَعَلَهُ اللَّه رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَ رَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَ مَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَ دَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَ نُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَ حَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَ مَعْقِلًا مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَ عِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَ سِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَ هُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وَ عُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَ شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَ فَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَ مَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَ جُنَّةً لِمَنِ اسْتَلأَمَ، وَ عِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَ حَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَ حُكْماً لِمَنْ قَضَى (۲).

۱- نهج البلاغة: ۱۵۳، الخطبة ۱۰۶.

۲- نهج البلاغة: ۳۱۵، الخطبة ۱۹۸.

ص: ۲۸۰

المشهد الثانی: الطلعة الأبدیة

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الإِسْلامَ دِینُ اللَّهِ الَّذِی اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ وَ اصْطَنَعَهُ علی عَیْنِهِ وَ أَصْفَاهُ خِیَرَهَ خَلْقِهِ، وَ أَقَامَ دَعَائِمَهُ علی مَحَبَّتِهِ، أَذَلَّ الأَدْیَانَ بِعِزَّتِهِ، وَ وَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَ أَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِکَرَامَتِهِ، وَ خَذَلَ مُحَادِّیهِ بِنَصْرِهِ، وَ هَدَمَ أَرْکَانَ الضَّلالَهِ بِرُکْنِهِ، وَ سَقَی مَنْ عَطِشَ مِنْ حِیَاضِهِ، وَ أَتْأَقَ الْحِیَاضَ بِمَوَاتِحِهِ، ثُمَّ جَعَلَهُ لا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَ لا فَکَّ لِحَلْقَتِهِ وَ لا انْهِدَامَ لأَسَاسِهِ وَ لا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ وَ لا انْقِلاعَ لِشَجَرَتِهِ وَ لا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ وَ لا جَذَّ لِفُرُوعِهِ وَ لا ضَنْکَ لِطُرُقِهِ وَ لا وُعُوثَهَ لِسُهُولَتِهِ، وَلاسَوَادَ لِوَضَحِهِ وَ لا عِوَجَ لانْتِصَابِهِ وَ لا عَصَلَ فِی عُودِهِ، وَ لا وَعَثَ لِفَجِّهِ وَ لا انْطِفَاءَ لِمَصَابِیحِهِ وَ لا مَرَارَهَ لِحَلاوَتِهِ، فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِی الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وَ ثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا، وَ یَنَابِیعُ غَزُرَتْ عُیُونُهَا، وَ مَصَابِیحُ شَبَّتْ نِیرَانُهَا، وَ مَنَارٌ اقْتَدَی بِهَا سُفَّارُهَا، وَأَعْلامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَ مَنَاهِلُ رَوِیَ بِهَا وُرَّادُهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِیهِ مُنْتَهَی رِضْوَانِهِ وَ ذِرْوَهَ دَعَائِمِهِ وَ سَنَامَ طَاعَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِیقُ الأَرْکَانِ رَفِیعُ الْبُنْیَانِ مُنِیرُ الْبُرْهَانِ مُضِیءُ النِّیرَانِ عَزِیزُ السُّلْطَانِ مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُعْوِذُ الْمَثَارِ، فَشَرِّفُوهُ وَ اتَّبِعُوهُ وَ أَدُّوا إِلَیْهِ حَقَّهُ وَ ضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ (۱).

المشهد الثالث: انتهاء عصر الرسول

اللهم اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِکَ وَ نَوَامِیَ بَرَکَاتِکَ علی مُحَمَّدٍ عَبْدِکَ وَ رَسُولِکَ، الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ وَ الْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَ الْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَ الدَّافِعِ جَیْشَاتِ الأَبَاطِیلِ وَ الدَّامِغِ صَوْلاتِ الأَضَالِیلِ، کَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِکَ، مُسْتَوْفِزاً فِی مَرْضَاتِکَ،

۱- نهج البلاغة: ۳۱۳، الخطبة ۱۹۸.

ص: ۲۸۱

غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَ لا وَاهٍ فِى عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ حَافِظاً لِعَهْدِكَ مَاضِياً على نَفَاذِ أَمْرِكَ، حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ وَ أَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَ هُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَ الآثَامِ، وَ أَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الأَعْلامِ وَ نَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَ خَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ وَ شَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ وَ بَعِيثُكَ بِالْحَقِّ وَ رَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ (۱).

المشهد الرابع: التأسّى بالرسول

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ صلى الله عليه و آله؛ فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَ عَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى، وَ أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّه الْمُتَأَسِّى بِنَبِيِّهِ، وَ الْمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ، قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً وَ لَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً، أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَ أَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عليه الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَ عَلِمَ أَنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَ حَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ وَ صَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ، وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّه وَ رَسُولُهُ وَ تَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّه وَ رَسُولُهُ لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ وَ مُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّه، وَ لَقَدْ كَانَ صلى الله عليه و آله يَأْكُلُ على الأَرْضِ وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ وَ يَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَ يَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِى، وَ يُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَ يَكُونُ السِّتْرُ على بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: يَا فُلانَةُ- لإِحْدَى أَزْوَاجِهِ- غَيِّبِيهِ عَنِّى؛ فَإِنِّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَ أَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَ أَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَ لا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَ لا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ وَ أَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَ غَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ، وَ كَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ، وَ لَقَدْ كَانَ فِى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله مَا يَدُلُّكَ على مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا، إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ وَ زُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ، أَكْرَمَ اللَّه مُحَمَّداً بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ؟ فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ؛ فَقَدْ كَذَبَ وَاللَّهِ الْعَظِيمِ بِالإِفْكِ الْعَظِيمِ. وَ إِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّه قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَ اقْتَصَّ أَثَرَهُ وَ وَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَ إِلَّا فَلا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّه جَعَلَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَ مُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَ مُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ،

۱- نهج البلاغة: ۱۰۱، الخطبة ۷۲.

ص: ۲۸۲

خَرَجَ مِنَ الدُّنْيا خَمِيصاً، وَ وَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيماً، لَمْ يَضَعْ حَجَراً على حَجَرٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَ أَجابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ وَقَائِداً نَطأُ عَقِبَهُ (۱).

المشهد الخامس: وديعة النبوّة

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَ لَجَأُ أَمْرِهِ وَ عَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَ مَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَ كُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَ أَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ (۲).

لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَ لا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عليهِ أَبَداً، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَ عِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَ بِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَ لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلايَةِ، وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَ الْوِرَاثَةُ، الآنَ، إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَ نُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ (۳).

الفصل الخامس: ما بعد البعثة

المشهد الأوّل: عروجُ النور

المشهد الثاني: الردّة إلى الجاهلية

المشهد الثالث: الفتنة العمياء

المشهد الرابع: حماية وحراسة

المشهد الخامس: الامّة الجاحدة للمعروف

المشهد الأوّل: عروجُ النور

وَ لَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعلى صَدْرِي، وَ لَقَدْ سَالَتْ نَفسهُ فِي كَفِّي،

۱- نهج البلاغة: ۲۲۷- ۲۲۹، الخطبة ۱۶۰.

۲- نهج البلاغة: ۴۷، الخطبة ۲.

۳- نهج البلاغة: ۴۷، الخطبة ۲.

ص: ۲۸۳

فَأَمْرَرْتُهَا على وَجْهِی، وَ لَقَدْ وُلِّیتُ غُسْلَهُ صلی الله علیه و آله وَ الْمَلَائِکَةُ أَعْوَانِی، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَ الْأَفْنِیَةُ، مَلَأٌ یَهْبِطُ وَ مَلَأٌ یَعْرُجُ، وَ مَا فَارَقَتْ سَمْعِی هَیْنَمَةٌ مِنْهُمْ یُصَلُّونَ علیهِ حَتَّی وَارَیْنَاهُ فِی ضَرِیحِهِ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّی حَیّاً وَ مَیِّتاً؟ (۱).

إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِیلٌ إِلَّا عَنْکَ وَ إِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِیحٌ إِلَّا علیکَ، وَ إِنَّ الْمُصَابَ بِکَ لَجَلِیلٌ وَ إِنَّهُ قَبْلَکَ وَ بَعْدَکَ لَجَلَلٌ (۲).

المشهد الثانی: الردّة إلی الجاهلیة

حَتَّی إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صلی الله علیه و آله رَجَعَ قَوْمٌ علی الْأَعْقَابِ، وَ غَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَ اتَّکَلُوا علی الْوَلَائِجِ، وَ وَصَلُوا غَیْرَ الرَّحِمِ، وَ هَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِی أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَ نَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِی غَیْرِ مَوْضِعِهِ، مَعَادِنُ کُلِّ خَطِیئَةٍ، وَ أَبْوَابُ کُلِّ ضَارِبٍ فِی غَمْرَةٍ، قَدْ مَارُوا فِی الْحَیْرَةِ، وَ ذَهَلُوا فِی السَّکْرَةِ علی سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَی الدُّنْیَا رَاکِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّینِ مُبَایِنٍ (۳).

المشهد الثالث: الفتنة العمیاء

أَمَا وَ اللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وَ إِنَّهُ لَیَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّی مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَی، یَنْحَدِرُ عَنِّی السَّیْلُ وَ لَا یَرْقَی إِلَیَّ الطَّیْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَ طَوَیْتُ عَنْهَا کَشْحاً، وَ طَفِقْتُ أَرْتَئِی بَیْنَ أَنْ أَصُولَ بِیَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ علی طَخْیَةٍ عَمْیَاءَ، یَهْرَمُ فِیهَا الْکَبِیرُ وَ یَشِیبُ فِیهَا الصَّغِیرُ وَ یَکْدَحُ فِیهَا مُؤْمِنٌ حَتَّی یَلْقَی رَبَّهُ، فَرَأَیْتُ أَنَّ الصَّبْرَ علی هَاتَا أَحْجَی، فَصَبَرْتُ وَ فِی الْعَیْنِ قَذًی وَ فِی الْحَلْقِ شَجًی أَرَی تُرَاثِی نَهْباً (۴).

۱- نهج البلاغة: ۳۱۱، الخطبة ۱۹۷.

۲- نهج البلاغة: ۵۲۷، الحکمة ۲۹۲.

۳- نهج البلاغة: ۲۰۹، الخطبة ۱۵۰.

۴- نهج البلاغة: ۴۸، الخطبة ۳.

ص: ۲۸۴

المشهد الرابع: حماية وحراسة

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ اللّه سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَ مُهَيْمِناً على الْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا مَضَى عليه السلام تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللّه مَا كَانَ يُلْقَى فِي رَوعِي وَ لا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه و آله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَ لا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ على فُلانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلام، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلامَ وَ أَهْلَهُ: أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عليّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلائِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَ زَهَقَ، وَ اطْمَأَنَّ الدِّينُ وَ تَنَهْنَهَ (۱).

المشهد الخامس: الامّة الجاحدة للمعروف

قالَ على عليه السلام عِندَ دَفنِ سيدَة النِّساءِ فاطِمَة عليها السلام، كَالمُناجي به رَسُولَ اللّه صلى الله عليه و آله عِندَ قَبره: السَّلامُ عليكَ يا رَسُولَ اللّه، عَنّي وَ عَنِ ابنَتِكَ النّازِلَة فى جِوارِكَ وَ السَّريعَةِ اللِّحاقِ بِكَ، قَلَّ يا رَسُولَ اللّه عَن صَفيّتِكَ صَبرى، وَ رَقَّ عَنها تَجَلُّدى، إلّاأنَّ فِى التَّأسّى لى بِعَظيم فُرقَتِكَ وَ فادِحِ مُصيبَتِكَ مَوضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَد وَسَّدتُكَ فى مَلحُودَة قَبرِكَ وَ فاضَت بَينَ نَحرى وَ صَدرى نَفسُكَ، فَإنّا لِلّهِ وَ إنّا إليه راجِعُونَ، فَلَقَدِ استُرجِعَتِ الوَديعَة، وَ اخِذَتِ الرَّهينَة، أمّا حُزنى فَسَرمَدٌ، وَ أمّا لَيْلى فَمُسَهدٌ، إلى أن يختارَ اللّهُ لى دارَكَ الّتى أنتَ بها مُقيمٌ، وَ سَتُنَبِّئُكَ ابنَتُكَ بِتَضافُرِ امَّتِكَ على هضمِها، فَأحفِها السُّؤالَ وَ استَخبِرها الحالَ، هذا، وَ لَم يطُلِ العَهدُ، وَ لَم يخلُ مِنكَ الذِّكرُ، وَ السَّلامُ عليكُما سَلامَ مُوَدِّعٍ لا قالٍ وَ لا سَئِمٍ، فَإن أنصَرِفْ فَلا عَن مَلالَة، وَ إن أُقِم فَلا

۱- نهج البلاغة: ۴۵۱، الكتاب ۶۲.

ص: ۲۸۵

عَن سُوءِ ظَنٍّ بِما وَعَدَ اللَّه الصّابِرين (۱).

الفصل السادس: امتداد البعثة

المشهد الأوّل: التاريخ يعيد نفسه

المشهد الثانى: فتنة آخر الزّمان

المشهد الثالث: طريق الفلاح

المشهد الرابع: الحجّة الخالدة

المشهد الخامس: طلائع الأمل

المشهد الأوّل: التاريخ يعيد نفسه

فَاعتَبِروا عِبادَ اللّه، وَ اذكُروا تيكَ الّتى آباؤُكم وَ اخوانُكم بِها مُرتَهنُونَ، وَ عليها مُحاسَبونَ، ولَعَمْرِى ما تَقَادَمَتْ بِكُمْ ولا بِهِم العُهُودُ، وَ لا خَلَتْ فى ما بَيْنَكُم وَبَينَهُمُ الأحقابُ وَ القُرونُ، وَ ما أنتُمُ اليومَ مِن يوم كُنتُم فى أصلابِهِم بِبَعيدٍ، وَ اللّه ما أسمَعَهُمُ الرَّسولُ شَيئاً إلّاوَ ها أنا ذَا اليومَ مُسمِعكُمُوه، وَ ما أسماعُكُمُ اليومَ بِدوُنِ أسماعِهِم بِالأمسِ، وَ لا شُقَّت لَهمُ الأبصارُ وَ لا جُعِلَت لَهمُ الأفئِدَة فى ذلِكَ الزّمانِ إلّاوَ قَد اعطيتُم مِثلَها فى هذا الزّمانِ، وَ وَاللّه ما بَصُرتُم بَعدَهم شَيئاً جَهلوه، وَ لا اصفيتُم به وَحُرِمُوه، وَ لَقَد نَزَلَت بِكُمُ البَلِيةُ جائِلًا خِطامُها، رِخواً بِطانُها، فَلا يغُرَّنَّكُم ما أصبَحَ فِيه أهلُ الغُرورِ، فَإنّما هوَ ظِلٌّ مَمدودٌ، إلى أجَلٍ مَعدودٌ (۲).

المشهد الثانى: فتنة آخر الزّمان

إنّه سَيأتى عليكُم مِن بَعدى زَمانٌ لَيسَ فِيه شَىءٌ أخفى مِنَ الحَقِّ وَ لا أظهرَ مِنَ الباطِلِ، وَ لا أكثَرَ مِنَ الكَذبِ على اللّهِ وَ رَسُولِه، وَ لَيسَ عِندَ أهلِ ذلِكَ الزّمانِ سِلعَة أبوَرَ مِنَ الكِتاب إذا تُلِى حَقَّ تِلاوَتِه، وَ لا أنفَقَ منه إذا حُرِّفَ عَن مَواضِعِه، وَ لا فِى

۱- نهج البلاغة: ۳۱۹، الخطبة ۲۰۲.

۲- نهج البلاغة: ۱۲۲، الخطبة ۸۹.

ص: ۲۸۶

البِلادِ شَیءٌ أنکَرَ مِنَ المَعروف، وَ لا أعرَفَ مِنَ المُنکَرِ، فَقَد نَبَذَ الکِتابَ حَمَلَتُه وَتَناساه حَفَظَتُه، فَالکتاب وأهْلُهُ یومَئِذٍ طَریدانِ، مَنفِیّانِ، وَ صاحِبانِ مُصطَحِبان فی طَریقٍ واحِدٍ، لا یؤویهما مُؤوٍ؛ فَالکِتابُ وَ أهلُه فی ذلِکَ الزَّمانِ فِی النّاسِ وَ لَیسا فِیهم، وَ مَعَهم وَ لَیسا مَعَهم، لأنَّ الضَّلالَة لا تُوافِقُ الهدی، وَ إن اجتَمَعا فَاجتَمَعَ القَومُ علی الفُرقَة وَ افتَرَقوا علی الجَماعَة، کَأنَّهم أئمَّةُ الکتاب وَ لَیسَ الکِتابُ إمامَهم، فَلَم یبقَ عِندَهم مِنه إلّا اسمُه، وَ لا یعرِفونَ إلّاخَطَّه وَ زُبرَه، وَ مِن قَبلُ ما مَثَّلوا بِالصّالِحینَ کُلَّ مُثلَةٍ، وَ سَمّوا صِدقَهم علی اللّه فِریةً، وَ جَعَلوا فِی الحَسَنَة عُقوبَةَ السَّیئة (۱).

المشهد الثالث: طریق الفلاح

فَأینَ تَذهبُونَ؟ وَ أنّی تُؤفَکُونَ؟ وَ الأَعلامُ قائِمَة وَ الآیاتُ واضِحَة، وَ المَنارُ مَنصُوبَة، فَأینَ یُتاه بِکُم؟ بَل کَیفَ تَعمَهونَ؟ وَ بَینَکُم عِترَة نَبِیّکُم وَ هم أَزِمَّةُ الحَقِّ وَأعلامُ الدّینِ وَ أَلسِنَة الصِّدقِ، فَأَنزِلُوهم بِأَحسَنِ مَنازِلِ القُرآنِ وَ رِدوُهم وُرودَ الهیمِ العِطاشِ.

أیّها النّاس! خُذُوها عَن خاتَمِ النَّبیینَ صلی الله علیه و آله: إنَّه یموتُ مَن ماتَ مِنّا وَ لَیسَ بِمَیتٍ، وَ یَبْلی مَن بَلِیَ مِنّا وَ لَیسَ بِبالٍ، فَلا تَقُولوا بِما لا تَعرِفُونَ، فَإنَّ أکثَرَ الحَقِّ فِیما تُنکِرونَ، وَ أعذِروا مَن لا حُجَّة لَکُم علیه، وَ أنا هوَ!

ألَم اعمَل فِیکُم بِالثِّقلِ الأکبرِ؟ وَ أترُک فِیکُم الثِّقلَ الأصغَرَ؟ وَرَکَزتُ فِیکُم رایة الإیمانِ؟ وَ وَقَفتُکُم علی حُدُودِ الحَلالِ وَالحَرام، وَ ألبَستُکُمُ العافِیة مِن عَدلی وَ فَرَشتُکُمُ المَعروفَ مِن قَولی وَفِعلی، وَأرَیتُکُم کَرائِمَ الأخلاقِ مِن نَفسی، فَلا تَستَعمِلوا الرّأی فی ما لا یُدرِکُ قَعرَه البَصَرُ وَ لا یَتَغلغَلُ إلَیه الفِکَرُ (۲).

المشهد الرابع: الحجّة الخالدة

اللّهمَّ بَلی! لا تَخلُو الأرضُ مِن قائِمٍ للّهِ بِحُجَّة، إمّا ظاهِراً مَشهوراً، وَ إمّا خائِفاً مَغمُوراً؛ لِئلّا تَبطُلَ حُجَجُ اللّهِ وَ بَیّناتُه، و کَم ذا؟ وَ أینَ؟

۱- نهج البلاغة: ۲۰۴، الخطبة ۱۴۷.

۲- نهج البلاغة: ۱۱۹، الخطبة ۸۷.

ص: ۲۸۷

اولئِكَ- وَاللّهِ- الأقلّونَ عَدَداً، وَالأعظَمونَ عِندَ اللّهِ قَدراً، يحفظُ اللّه بهم حُجَجَه وَ بَيّناتِه، حَتّى يُودِعُوها نُظَراءَهم وَ يزرَعُوها فى قُلُوبِ أشباهِهِم، هجَمَ بِهِم العِلمُ على حَقيقَةِ البَصيرة، وَ باشَروا رُوحَ اليقين، وَاستَلانوا مَا استَوعَرَه المُترَفُونَ، وَ أنِسُوا بِمَا استَوحَشَ مِنه الجاهِلُونَ، وَ صَحِبُوا الدُّنيا بِأبْدانٍ أرواحُها مُعَلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأعلى، أُولئِكَ خُلَفاءُ اللّهِ فى أرضِه، وَ الدُّعاة إلى دينِه، آه آه شَوقاً إلى رُؤيتِهم (۱).

المشهد الخامس: طلائع الأمل

فَلَبِثتُم بَعدَه ما شاءَ اللّه حَتّى يطلِعَ اللّهُ لَكُم مَن يجمَعُكم وَ يضُمّ نَشرَكُم، فَلا تَطمَعُوا فى غَير مُقبِلٍ، وَ لا تَيأسُوا مِن مُدبِرٍ، فَإنَّ المُدبِرَ عَسى أن تَزِلَّ بِهِ إحدى قائِمَتيهِ وَ تَثبُتَ الاخرى فَترجِعا حَتّى تَثبتا جَميعاً. ألا إنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله كَمَثلِ نُجُومِ السَّماءِ، إذا خوى نَجمٌ، طَلَعَ نَجمٌ، فَكَأنَّكُم قد تَكامَلَتْ مِنَ اللّهِ فِيكُم الصّنائِعُ، وَ أراكُم ما كُنتُم تَأمُلونَ (۲).

لَتعطِفَنَّ الدُّنيا علينا بَعدَ شِماسِها عَطفَ الضَّروسِ على وَلَدِها،- وَ تَلا عَقيبَ ذلِكَ-: «وَ نُريدُ أن نَمُنَّ على الّذينَ استُضعِفُوا فِى الأرضِ وَ نَجعَلَهم أئِمَّةً وَ نَجعَلَهُمُ الوارِثينَ» (۳).

۱- نهج البلاغة: ۴۹۷، الحكمة ۱۴۷.

۲- نهج البلاغة: ۱۴۶، الخطبة ۱۰۰.

۳- نهج البلاغة: ۵۰۶، الحكمة ۲۰۹.

ص: ۲۸۸

مجتمع النبی صلی الله علیه و آله فی الجاهلیهٔ

عبد الخالق الصائغ

تمهید

لکی یتسنی لنا الوقوف علی عظمهٔ نبیّنا صلی الله علیه و آله یلزم أن نحیط بالظروف التی عمل فیها علی نشر دعوهٔ الحق، فنطّلع علی الأحوال الاجتماعیهٔ والدینیّهٔ التی کانت سائدهٔ فی ذلک المحیط- العبادات والعادات- والتی استطاع هذا النبی العظیم أن یغیّرها ویغیّر أهلها..

هنا وباختصار، حاولت أن أکتب عن ذلک المجتمع بما یسمح به المقام، کی یصیر بإمکاننا تصوّر مدی الجهد الکبیر الذی بذله صلی اللَّه علیه وآله فی سبیل التغییر، لیس تغییر ذلک المجتمع فحسب، بل تغییر مسار الإنسانیّهٔ ککل، وذلک حین أخرج الناس من الظلمات إلی النور، فانتشرت دعوته فی أصقاع الأرض، فحیثما تذهب فی قارات العالم الخمس تجد أمامک أثر هذا العمل ملموساً من خلال:

لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.. فانظر إلی عظمهٔ هذا الإنسان الاستثنائی من خلال معرفهٔ بیئهٔ عمله.

کان المجتمع الجاهلی الذی ولد فیه النبی صلی الله علیه و آله مجتمعاً بسیطاً لا- یعرف تعقیدات الحضارهٔ، یعیش أعرافاً وتقالید متوارثهٔ، توارثها الأبناء عن آبائهم ولم یناقشوا

ص: ۲۸۹

فیها، فکانت هـذه التبعیّـة من غیر تدبّر، وقد عبّر القرآن الکریم عن حالهم هذه فی آیات کثیرة منها قوله تعالی فی سورة المائدة: «وَإِذَا قِیلَ لَهُم تَعَالَوْاْ إِلَی مَا أَنزَلَ اللّه وَإِلَی الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَیْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ کَانَ آبَاؤُهُمْ لَا یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَلَا یَهْتَدُونَ» (۱)، وفی سورة الأعراف: «وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَیْها آبَاءنَا...» (۲)، وفی سورة لقمان: «وَإِذَا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّه قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَیْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ کَانَ الشَّیْطَانُ یَدْعُوهُمْ إِلَی عَذَابِ السَّعِیرِ» (۳).

فکانوا یرتعون فی جاهلیتهم الجهلاء، لا یصغون لکلمة الخلاص التی جاءهم بها سیّد الخلق صلی الله علیه و آله: قولوا لا إله إلا اللّه تفلحوا.

وفی هـذا المجتمع الحنیفی المنشأ فی عقائده، حصلت تغیّرات عدیدة فی مسائل العبادة والعقائد، نتجت عن تباعد الزمن عن الحنیفیة، وقد جرّ هذا التباعد بالتالی إلی ظهور عبادة الأصنام التی کانت السبب فی إطلاق لفظ الجاهلیة علیه کما سیأتی لاحقاً، وکان سبب العبادة لها التقلید علی الأکثر، حتی عندما تکلّموا عن نشوء هذه العبادة فی مجتمع مکة علی ید عمرو بن لحی الخزاعی قالوا: إنه جاء بها من نواحی الأردن، وسیأتی الکلام فیه تحت عنوان مستقل، وقیل عن عمرو هذا إن العرب حین غلبت خزاعة علی البیت ونفت عنه جرهم جعلت منه ربّاً، لا یبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه کان یطعم الناس ویکسو فی الموسم فربما نحر فی الموسم عشرة آلاف بدنة وکسا عشرة آلاف حلة (۴).

والنتیجة أن القوم وجدوا آباءهم علی هذا الأمر فتبعوهم بلا تدبّر، وکانت تظهر نتائج التدبر فی بعض الأحیان عند التأمّل فی حال هذا المعبود، وقصّة صنم عمرو بن الجموح التی رواها ابن هشام تدلّک علی حالهم فی ذلک وإلیک القصة:

۱- المائدة: ۱۰۴.

۲- الأعراف: ۲۸.

۳- لقمان: ۲۱.

۴- معجم البلدان، الحموی ۵: ۴.

ص: ۲۹۰

قال ابن هشام فی سیرته: کان عمرو بن الجموح سیداً من سادات بنی سلمة وشریفاً من أشرافهم، وکان قد اتخذ فی داره صنماً من خشب یقال له: مناة، کما کانت الأشراف یصنعون، تتخذه إلهاً تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتیان بنی سلمة: معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح فی فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، کانوا یدلجون باللیل علی صنم عمرو ذلک فیحملونه فیطرحونه فی بعض حفر بنی سلمة، وفیها عذر الناس منکساً علی رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قال: ویلکم من عدا علی آلهتنا هذه اللیلة؟ قال: ثم یغدو یلتمسه حتی إذا وجده غسله وطهّره وطیبه، ثم قال: أما واللّه لو أعلم من فعل هذا بک لأخزینه! فإذا أمسی ونام عمرو عدوا علیه ففعلوا به مثل ذلک؛ فیغدو فیجده فی مثل ما کان فیه من الأذی، فیغسله ویطهره ویطیبه، ثم یعدون علیه إذا أمسی فیفعلون به مثل ذلک؛ فلما أکثروا علیه استخرجه من حیث ألقوه یوماً فغسله وطهره وطیبه ثم جاء بسیفه فعلّقه علیه، ثم قال: إنی واللّه ما أعلم من یصنع بک ما تری، فإن کان فیک خیر فامتنع، فهذا السیف معک.

فلما أمسی ونام عمرو عدوا علیه فأخذوا السیف من عنقه، ثم أخذوا کلباً میتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فی بئر من آبار بنی سلمة فیها عذر من عذر الناس، ثم عدا عمرو بن الجموح فلم یجده فی مکانه الذی کان به.. فخرج یتبعه حتی وجده فی تلک البئر منکساً مقروناً بکلب میت، فلما رآه وأبصر شأنه وکلّمه من أسلم من قومه فأسلم برحمة اللّه وحسن إسلامه (۱).

إن هذه القصّة تغنیک عن غیرها بعد أن تجعلک تسخر من عقول تلک الأقوام فیما ذهبت إلیه فی عبادتها لتلک الجمادات..

هل کان فی الجاهلیة شیء من خیر؟

قبل الخوض فی وصف أهل الجاهلیة، قد یکون من الملائم التعرّض لهذا العنوان، وهو الحدیث عن فضائل کان یتحلّی بها أهل هذا المجتمع علی ما فیه من

۱- سیرة ابن هشام: ۳۲۲.

ص: ۲۹۱

عظائم الآثام، التی تودی بمقترفها فی أسفل درک الجحیم، وعلی رأس تلک الآثام الشرک الذی لیس بعده ذنب، لذا وُصف فی محکم الکتاب بقوله تعالی: «إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ» (۱)، ولکن وبالرغم مما کان فیه القوم، فقد کان البعض منهم یتحلّی بأصناف من الفضائل والصفات الحمیدة، کالکرم والشجاعة والنخوة وحفظ العهود وغیرها من جمیل الصفات؛ ولا یغیب عنا حدیث النبی صلی الله علیه و آله المشهور: «إنما بعثت لأتمم مکارم الأخلاق» الذی رواه غیر واحد (۲)، والذی یدلّک علی وجود شیء منها بین الناس، وجاء لیکمل ما بین أیدیهم من مکارم الأخلاق. وأیضاً تجدر الإشارة هنا إلی حدیث الإمام أبی عبد اللَّه الصادق علیه السلام الذی رواه الحر العاملی فی الوسائل، والذی ذکر فیه شیئاً من حال العرب فی عباداتهم وقربهم من الحنیفیة، واستدل علی ذلک بشواهد عدیدة منها أنهم کانوا یغتسلون من الجنابة، والاغتسال من خالص شرائع الحنیفیة، وکانوا یختتنون وهو من سنن الأنبیاء، وإنّ أول من فعل ذلک إبراهیم الخلیل؛ وکانوا یغسلون موتاهم ویوارونهم فی القبور ویلحدونهم؛ وحرّمت العرب نکاح المحارم النسبیة؛ وکانوا یعظّمون بیت اللَّه الحرام ویحجون إلیه ویقولون: بیت ربّنا... (۳).

وقد ورد فی کتب التواریخ أنّ بعضاً من جمیل صنعهم أقرّوه علی شکل عهود ومواثیق کحلف الفضول الذی «تعاقدوا وتعاهدوا علی أن لا یجدوا بمکّة مظلوماً من أهلها وغیرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وکانوا علی من ظلمه حتی تردّ علیه مظلمته» (۴). ثم تجدّد هذا الحلف فی دار عبد اللَّه بن جدعان، قال ابن الأثیر فی الکامل: ثم إن قبائل من قریش تداعت إلی ذلک الحلف فتحالفوا فی دار عبد اللَّه بن جدعان لشرفه وسنّه، وکانوا بنی هاشم وبنی المطلب وبنی أسد بن

۱- لقمان: ۱۳.

۲- کما فی کنز العمال، المتقی الهندی ۳: ۱۶، ح ۵۲۱۷؛ و السنن الکبری للبیهقی ۱۰: ۱۹۲؛ وغیرها.

۳- راجع نص الحدیث فی وسائل الشیعة آل البیت ۲: ۱۷۷؛ لأن ما نقلناه هنا کان مضمون الحدیث.

۴- سیرة ابن هشام: ۱۱۱.

ص: ۲۹۲

عبد العزی وزهرة بن کلاب وتیم بن مرة... وشهده رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال حین أرسله اللَّه تعالی: لقد شهدت مع عمومتی حلفاً فی دار عبد اللَّه بن جدعان ما أحبّ أن لی به حمر النعیم [النعم] ولو دعیت به فی الإسلام لأجبت (۱).

وروی فی سیرة ابن هشام ما یشیر الی هذا الحضور (۲). وقد ظل هذا الحلف ساریاً حتی فی الإسلام علی ما ورد فی بعض الکتب.

روی ابن الأثیر فی الکامل أنه کان بین الحسین بن علی بن أبی طالب وبین الولید بن عتبة بن أبی سفیان منازعة فی مال کان بینهما، والولید یومئذ أمیر علی المدینة لعمّه معاویة، فتحامل الولید لسلطانه فقال له الحسین: أقسم باللَّه لتنصفنی أو لآخذن سیفی ثم لأقومن فی مسجد رسول اللَّه ثم لأدعون بحلف الفضول؛ فقال عبد اللَّه بن الزبیر وکان حاضراً: وأنا أحلف باللَّه لو دعا به لأجبته حتی ینصف من حقه أو نموت؛ وبلغ المسور بن مخرمة الزهری فقال مثل ذلک؛ وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد اللَّه التیمی فقال مثل ذلک؛ فلما بلغ الولید ذلک أنصف الحسین من نفسه حتی رضی (۳).

وروی أیضاً أن الإمام الحسین علیه السلام دعی بهذا الحلف عند تشییع أخیه الحسن المجتبی علیه السلام وخروج بنی أمیّة وأحلافهم مع مروان، لمنعه من دفن أخیه بجوار جدّه المصطفی صلی الله علیه و آله، قال ابن عساکر فی ترجمة الحسن علیه السلام فی تاریخ دمشق: «فصاح حسین بحلف الفضول، فاجتمعت بنو هاشم وتیم وزهرة وأسد وبنو جعونة بن شعوب من بنی لیث قد تلبّسوا السلاح...» (۴).

وکان مما عندهم من جمیل الصفات: الجوار وحسن الجوار، فإذا ما أجار شخص شخصاً، فإنّ المجیر فی هذه الحالة قد یکون مستعداً للتضحیة بنفسه وأهله

۱- الکامل فی التاریخ لابن الأثیر ۲: ۴۱.

۲- سیرة ابن هشام: ۱۱۲.

۳- الکامل فی التاریخ ۲: ۴۱- ۴۲.

۴- ابن عساکر، ترجمة الحسن علیه السلام فی تاریخ دمشق: ۲۲۲.

ص: ۲۹۳

فى سبيله، وتحكى كتب السير كيف أن النبى صلى الله عليه و آله دخل مكة بعد رجوعه من الطائف بجوار المطعم بن عدى، وكان ذلك بعد أن فقد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حاميه وكافله، عمه أبو طالب سلام اللَّه عليه الذى ما إن انتقل ابن أخيه إلى كنفه حتى فضّله على بنيه فى الرعاية، وكان يحرص عليه حرصاً منقطع النظير؛ ويلمس المتتبع للتاريخ ذلك بسهولة، خاصة بعد البعثة وحين صرّح صلى الله عليه و آله أنه مبعوث من اللَّه، وكان فى ذلك يتحدّى كلّ قريش فى دفاعه عن النبى صلى الله عليه و آله، فلم يكن يدعهم ليصلوا إليه بسوء، وقد صرّح بذلك حين قال:

واللَّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسّد فى التراب دفيناً

وبلغ الأمر أنه آثر أن يكون محاصراً مع النبى صلى الله عليه و آله الذى آمن به على أن يسلمه للقوم، حتى مات سلام اللَّه عليه فى السنة العاشرة للبعثة (۱)، وذلك بعد مواقف عظيمة تنم عن سموّ إيمان؛ ولشدة تأثر النبى صلى الله عليه و آله بفقده سمّى ذلك العام عام الحزن حيث فقد فيه أيضاً- إلى جانب العم العظيم- زوجته الوفيّة أم المؤمنين السيدة خديجة سلام اللَّه عليها. ولم يكن له بُد من الخروج من مكة بعد هذه الحادثة، فقد جاءه الوحى من ربه، فقال له جبرئيل عليه السلام: إن اللَّه عزوجل يقرؤك السلام، ويقول لك: اخرج عن مكة فقد مات ناصرك (۲)، ما كان له أن يعود ما لم يكن له من يحميه، فاختار صلى الله عليه و آله المطعم.

وقد ورد فى كتب التواريخ والسير أن المطعم لبس سلاحه ومعه بنوه وبنو أخيه ودخلوا المسجد فاستقبلهم أبو جهل، وقال للمطعم: أمجير أم تابع؟ فقال: بل مجير، فقال أبو جهل: قد أجرنا من أجرت (۳). ومضى صلى الله عليه و آله يتابع دعوته فى جوار المطعم

۱- السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة المصطفى ۳: ۲۲۱.

۲- الشيخ المفيد، إيمان أبى طالب: ۲۴.

۳- كما فى كتب السير: راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسنى: ۲۲۴.. وقد حفظ النبى صلى الله عليه و آله ذلكللمطعم ونوّه به يوم بدر..

ص: ۲۹۴

ویعرض نفسه علی القبائل أیام الموسم ویسألهم النصرة. وقد حفظ النبی صلی الله علیه و آله للمطعم ما کان منه، وقال فی أسری بدر من المشرکین کما روی عنه صلی الله علیه و آله: لو کان المطعم حیاً وکلمنی فی هؤلاء النتنی لترکتهم له (۱).

وکان بوسع الرجل أن یردّ جوار من أجاره، ولکن المجیر کان یفضّل أن یفعل ذلک المستجیر علانیة کما فی قصّة رد عثمان بن مظعون لجوار الولید (۲).

وکانت النخوة والنجدة متأصّلة فیهم لاسیّما ضمن أفراد القبیلة الواحدة والتی یمکن أن یعبّر عنها بالعصبیّة القبلیّة (۳)؛ لذلک کانت هذه موضع تفاخر فی شعر تلک الفترة حتی قال شاعرهم:

لا یسألون أخاهم حین یندبهم فی النائبات علی ما قال برهان (۴)

وقول الآخر:

إذا استُنجدوا لم یسألوا من دعاهم إلی أیّ حیٍّ أم بأیّ مکانِ (۵)

أما الکرم، فکان من دواعی الفخر عندهم، وقد بلغ فیه البعض أسمی المنازل، ویکفی ذکر حاتم الطائی وکرمه الذی ذاع فی الأقطار.. حتی أن النبی صلی الله علیه و آله مدح هذه الخصلة فیه عندما حدّثته سفانة ابنة حاتم عن أبیها، وما کان فیه من الصفات، فقال لها رسول اللّه صلی الله علیه و آله: یا جاریة! هذه صفة المؤمن، لو کان أبوک مسلماً لترحمنا علیه، خلّوا عنها! فإن أباها کان یحب مکارم الأخلاق، واللّه یحب

۱- ابن حجر، فتح الباری ۶: ۱۷۳؛ و ذکره فی سبل السلام ۴: ۵۶؛ و مسند أبی یعلی ۱۳: ۴۱۲، وتجدر الإشارة هنا أن المطعم کان من المشارکین فی نقض الصحیفة وفک الحصار عن المسلمین فی الشعب.

۲- للمزید راجع ابن هشام: ۲۶۹.

۳- الدکتور علی الوردی، دراسات فی طبیعة المجتمع العراقی: ۵۷.

۴- والقول لقریط بن أنیف العنبری.

۵- هذا البیت لودّاک بن ثُمیل المازنیّ.

ص: ۲۹۵

مکارم الأخلاق (۱).

أما الوفاء فیکفی فیه حاجب بن زرارة وقوسه الذی رهنه عند کسری (۲)، وکذا السموأل الذی ضحّی بولده کی یفی لامرئ القیس فیما أودع عنده (۳).

وأختم الکلام هنا بحدیث رسول اللّه صلی الله علیه و آله الذی تکلم فیه عن نفسه، وأنّه صفوة الخلق عندما قال: «.. ثم خلق (اللّه) الخلق فاختار من الخلق بنی آدم، واختار من بنی آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قریشاً، واختار من قریش بنی هاشم، واختارنی من بنی هاشم، فأنا من خیار إلی خیار...» فهذا الحدیث یدل أن هؤلاء القوم کانوا من ذوی المکانة العالیة بین من عاصرهم من شعوب الأرض، ولکن الکلام یقع فی أکبر جریمة یمکن أن یرتکبها مخلوق وهی الشرک باللّه العظیم، حیث هو الفیصل فی التقییم، والذی أدی بدوره إلی الابتعاد عن اللّه تعالی حیث تراکمت المعاصی، فأدت إلی حجب ما یمکن أن یتسلل من نور

۱- ذکره صاحب التذکرة الحمدونیة وصاحب الأغانی، کما ذکره الأبشیهی فی المستطرف فی کل فن مستظرف ۱: ۲۹۲.

۲- عن العقد الفرید لابن عبد ربه قال: إن حاجب بن زرارة وفد علی کسری لما منع تمیماً من ریف العراق، فاستأذن علیه، فأوصل إلیه: أسید العرب أنت؟ قال: لا؛ قال: فسید مضر؛ قال: لا؛ قال: فسید بنی أبیک أنت؟ قال: لا. ثم أذن له، فلما دخل علیه، قال له: من أنت؟ قال: سید العرب؛ قال: ألیس قد أوصلت إلیک، أسید العرب؟ فقلت: لا، حتی اقتصرت بک علی بنی أبیک فقلت: لا؟ قال له: أیها الملک، لم أکن کذلک حتی دخلت علیک، فلما دخلت علیک صرت سید العرب؛ قال کسری: آه، املؤا فاه دراً. ثم قال: إنکم معشر العرب غدر، فإن أذنت لکم أفسدتم البلاد، وأغرتم علی العباد، وآذیتمونی. قال حاجب: فإنی ضامن للملک أن لا یفعلوا؛ قال: فمن لی بأن تفی أنت؟ قال: أرهنک قوسی. فلما جاء بها ضحک من حوله وقالوا: لهذه العصا یفی! قال کسری: ما کان لیسلمها لی لشیء أبداً فقبضها منه، وأذن لهم أن یدخلوا الریف. ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارد بن حاجب إلی کسری یطلب قوس أبیه؛ فقال له: وقد وفی له قومه ووفی هو للملک. فردها علیه وکساه حلّة.

فلما وفد إلی النبی صلی الله علیه و آله عطارد بن حاجب وهو رئیس تمیم، وأسلم علی یدیه، أهداها للنبی صلی الله علیه و آله، فلم یقبلها...

۳- عن التذکرة الحمدونیة لابن حمدون ۳: ۱۲: والعرب تضرب المثل فی الوفاء بالسموأل، وهو ابن عریض بن عادیاء الأزدی... وکان من خبره أن امرأ القیس بن حجر أودعه أدراعاً مائة، فأتاه الحارث بن ظالم ویقال: الحارث بن أبی شمر الغسانی لیأخذها منه، فتحصّن منه السموأل، فأخذ ابناً له غلاماً وناداه: إما إن أسلمت إلی الأدراع وإما إن قتلت ابنک، فأبی السموأل أن یسلم الأدراع إلیه، فضرب الحارث وسط الغلام بالسیف فقطعه...

ص: ۲۹۶

إلى تلك القلوب.. ثم إن إلقاء نظرة إلى المجتمعات المحيطة بالعرب تجعل الناظر يشعر بالفرق بين مجتمع العرب وغيرهم، وعلى الظاهر أن العرب على ما كانوا فيه، فقد كانوا خيراً من غيرهم.

المراد بالجاهلية

نعود إلى الجاهلية وما يراد بها، فقد قيل: إن المراد بها الجهل التوحيدى الدينى لا الجهل بعلم من العلوم.. فقد أفادت صلات العرب الحضارية مع العالم، وظاهرة بناء أقدم سد ركامى (مأرب)، الدخول فى صفقات منتظمة وأحلاف وعقود بأنهم كانوا على دراية بقضايا عصرهم، فالجاهلية ليست سوى الجهل بتوحيد اللّه تعالى، وذكرت دوائر المعارف والكتب بأن اليهودية أطلقت كلمة الجاهليين على الأقوام الذين سبقوا ظهورها.. وأما تحديد فترة الجاهلية، فهى فى نظر المفسّرين تمتد من الجاهلية الجهلاء أو الجاهلية الأولى التى كافحها النبى إبراهيم عليه السلام إلى الجاهلية الثانية التى ناضلها النبى محمد صلى الله عليه و آله.. (١).

على أنّ بعض المؤلفين قال: إن لفظ الجاهليّة شاع بعد الهجرة إلى المدينة، كما

١- الأدب الجاهلى للسيد جعفر الحسينى: ١٦- ١۵، مع بعض التصرف.

ص: ۲۹۷

أنّ آخر قال: وكانت قريش تسمى فى الجاهلية العالمية لفضلهم وعلمهم. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

ألسنا أهل مكة عالمياً وأدركنا السلام بها رطابا (۱)

أول عبادة الأصنام

وإذا ما قلنا بأن الجاهلية تعنى الجهل بتوحيد اللّه تعالى، لزم أن نلمح إلى ما روى عن أوّل عبادة الأصنام ونشأتها؛ فقد روى ابن هشام فى سيرته أنّ عمرو بن لحى الخزاعى هو أوّل من سنّ هذه العبادة؛ حيث جاء بصنم من أرض البلقاء يدعى هبل (۲)؛ وفى هذا دلالة واضحة على أن هذا الأمر الخطير- الشرك- لم يكن معروفاً فى مكة قبل أن يأتى به عمرو بن لحى هذا، فقد جاء به من الأطراف البعيدة فى شمال جزيرة العرب، وكانت تلك المنطقة أقرب إلى نفوذ الروم.

هذا، وقد ورد فى كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى أن أول من غيّر الحنيفية وبحر البحيرة وسيّب السائبة وجعل الوصيلة والحام عمرو بن لحى، وهو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولى البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام، ورأى الأصنام تُعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية.. (۳) وكما ورد فى كتاب الحور العين: وأول من دعا العرب إلى عبادة الأوثان، وغيّر دين إسماعيل: خزاعة واسمه عمرو بن لحى، واسم لحى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى.. (۴).

ولعظيم ما اقترف عمرو بن لحى، فقد ذكره النبى صلى الله عليه و آله فى أهل النار فى مواطن

۱- أبو هلال العسكرى، الأوائل ۱: ۷۳؛ والسلام الحجارة، والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة.

۲- سيرة ابن هشام: ۷۳.

۳- الأوائل لأبى هلال العسكرى ۱: ۶۶.

۴- الحور العين لنشوان الحميرى: ۲۲۰.

ص: ۲۹۸

عدیدة، ولا یذهب عنّا حدیث النبی صلی الله علیه و آله: «من سنّ سنّة سیئة» ففی وصیة النبی لابن مسعود کما فی مکارم الأخلاق (۱): یا ابن مسعود: إیاک أن تسنّ سنّة بدعة، فإن العبد إذا سنّ سنّة سیئة لحقه وزرها ووزر من عمل بها، قال اللَّه تعالی: «وَنَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ»، وقال سبحانه: «یُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ یَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ».

وفی جامع البیان عن محمد بن إبراهیم بن الحرث التیمی أن أبا صالح السمان، حدّثه أنه سمع أبا هریرة یقول: سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول لأکثم بن الجون الخزاعی:

یا أکثم! رأیت عمرو بن لحی بن قمعة بن خندف یجر قُصْبَه فی النار، فما رأیت من رجل أشبه برجل منک به ولا به منک فقال أکثم: أیضرّنی شبهه یا نبی اللَّه؟ قال: لا، لأنک مؤمن وهو کافر، وإنه کان أول من غیّر دین إسماعیل ونصب الأوثان، وسیّب السوائب فیهم (۲).

وفی کنز العمال عن زید بن أسلم، قال: قال النبی صلی الله علیه و آله: «.. ولقد عرفت أول الناس سیّب السوائب، ونصب النصب، وغیّر عهد إبراهیم، عمرو بن لحی، ولقد رأیته یجرّ قُصْبَه فی النار، ویؤذی أهل النار جرّ قصبه» (۳).

عبادة و معتقدات وعادات الجاهلیة

وإذا کان الکلام کذلک، فلنلقی نظرة علی بعض المعتقدات والعادات التی

۱- الطبرسی، مکارم الأخلاق: ۴۵۴.

۲- جامع البیان لابن جریر الطبری ۷: ۱۲۰، وفیه قال: وذلک أن الناقة إذا تابعت ثنتی عشرة إناثاً لیس فیها ذکر سیّبت، فلم یرکب ظهرها ولم یجز وبرها ولم یشرب لبنها إلا ضیف. فما نتجت بعد ذلک من أنثی شقّ أذنها ثم خلی سبیلها مع أمها فی الإبل، فلم یرکب ظهرها ولم یجز وبرها ولم یشرب لبنها إلا ضیف، کما فعل بأمها فهی البحیرة ابنة السائبة. والوصیلة: أن الشاة إذا نتجت عشر إناث متتابعات فی خمسة أبطن لیس فیهنّ ذکر جعلت وصیلة، قالوا: وصلت، فکان ما ولدت بعد ذلک لذکورهم دون إناثهم، إلا أن یموت منها شی فیشترکون فی أکله ذکورهم وإناثهم. والحامی: أن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات لیس بینهنّ ذکر حمی ظهره، ولم یرکب، ولم یجز وبره، ویخلی فی إبله یضرب فیها، لا ینتفع به بغیر ذلک. یقول اللَّه تعالی ذکره: «ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِیرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَلا وَصِیلَةٍ وَلا حامٍ...- إلی قوله- وَلا یَهْتَدُونَ».

۳- الهندی، کنز العمال ۲: ۴۰۳ الحدیث ۴۳۶۱؛ قُصْبه: بضم القاف وسکون الصاد أی أمعاءه.

ص: ۲۹۹

کانت سائدة فی تلک الفترة:

العبادة

کان أکثر العرب من المشرکین، فکان لکل قبیلة صنم، لا بل کان هناک أصناماً خاصة ببعض الأشخاص، منها صنم عمرو بن الجموح الآنف الذکر؛ قال ابن إسحاق: واتخذ أهل کل دار فی دارهم صنماً یعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسّح به حین یرکب، وإذا قدم من سفره تمسّح به (۱)، وقریب منه ما ورد فی کتاب الأصنام للکلبی (۲)، أما أشهر الآلهة التی عبدوها فهی کما جاء فی بعض الکتب:

۱- هبل:

الذی جاء به عمرو بن لحی علی ما رواه ابن هشام (۳)، وکان علی بئر فی جوف الکعبة (۴)، ولکن الذی نصبه غیر عمرو بن لحی، بحسب ما أورده الکلبی فی کتابه الأصنام حیث قال: وکانت لقریش أصنام فی جوف الکعبة وحولها وکان أعظمها عندهم هبل، وکان فیما بلغنی من عقیق أحمر علی صورة الإنسان، مکسور الید الیمنی. أدرکته قریش کذلک، فجعلوا له یداً من ذهبٍ. وکان أوّل من نصبه خزیمة بن مدرکة بن إلیاس بن مضر. وکان یقال له: هبل خزیمة، وکان فی جوف الکعبة.. (۵) وعلیه فهو معارض لما فی السیرة النبویة لابن هشام.

ثم إن هناک أصناماً ذکرت أسماؤها فی القرآن الکریم، کما فی قوله تعالی:

«أَفَرَأَیْتُمُ اللّاتَ وَالْعُزَّی وَمَناةَ الثّالِثَةَ الْأُخْرَی» وأیضاً: «وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا یَغُوثَ وَیَعُوقَ وَنَسْراً»، أما هذه الأصنام المذکورة فهی:

۱- ابن هشام: ۷۷.

۲- الکلبی، الأصنام: ۳۴.

۳- ابن هشام: ۷۳.

۴- المصدر نفسه: ۷۶.

۵- الأصنام: ۲۸.

ص: ۳۰۰

۲- مناة:

وقد كانت العرب تسمّى عبد مناة وزيد مناة. وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله. وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له... ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج (۱).

۳- اللات:

كان فى الطائف، وهى أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكان يهودى يلت عندها السويق. وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك، وكانوا قد بنوا عليها بناءاً، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمى زيد اللات وتيم اللات (۲). وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى (۳).

۴- العزى:

وهى أحدث من اللات و مناة كما عن ابن الكلبى فى كتاب الأصنام، حيث قال: وذلك أنى سمعت العرب سمت بهما قبل العزى.. كانت بوادٍ من نخلة الآشمية، يقال له: حراض، بإزاء الغمير، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة.

وذلك فوق ذات عرقٍ إلى البستان بتسعة أميال. فبنى عليها بساً، يريد بيتاً. وكانوا يسمعون فيه الصوت. وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى. وكانت أعظم الأصنام عند قريش. وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح...

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فإنهن الغرانيق العلى (۴).

۵- يغوث:

اتّخذته مذحج وأهل جرش (۵).

۱- النجم: ۱۹- ۲۰، و نوح: ۲۳.

۲- الأصنام: ۱۱، ۱۵.

۳- كتاب الأصنام: ۲۷، وأيضا عن اللات راجع ابن هشام: ۷۳ الهامش.

۴- كتاب الأصنام: ۱۷- ۱۸.

۵- المصدر نفسه: ۸.

ص: ۳۰۱

۶- سواع:

اتخذته هذیل، فکان برهاط من أرض ینبع، وکانت سدنته بنو لحیان (۱).

۷- ود:

اتخذته کلب بدومة الجندل (۲).

۸- یعوق:

اتخذته خیوان، فکان بقریةٍ لهم یقال لها: خیوان من صنعاء، علی لیلتین مما یلی مکة (۳).

۹- نسر:

اتخذته حمیر، فعبدوه بأرض یقال لها: بلخع (۴)..

وکان لهم أساف ونائلة قیل: إنهما کانا مسخین (۵). وکان لهم غیرها، ولکن اقتصرنا علی أشهرها حتی لا نطیل..

ومن شدّة تعلّق أهل الجاهلیّة بأصنامهم، فقد کانوا یستمهلون النبی صلی الله علیه و آله بعض الوقت «لتودیعها» حین کان یرسل من یحطمها؛ فیأبی علیهم ذلک.

ومن جمیل ما یروی فی الباب قولهم: إن أبا أحیحة، وهو سعید بن العاص بن أمیة بن عبد شمس بن عبد مناف مرض مرضه الذی مات فیه. فدخل علیه أبو لهبٍ یعوده، فوجده یبکی. فقال: ما یبکیک یا أبا أحیحة؟ أمن الموت تبکی ولا بد منه؟ قال: لا. ولکنی أخاف أن لا تُعبد العزی بعدی. قال أبو لهب: واللَّه ما عبدت حیاتک لأجلک، ولا تترک عبادتها بعدک لموتک! فقال أبو أحیحة: الآن علمت أن لی خلیفة! وأعجبه شدّة نصبه فی عبادتها(۶).

وحکی أیضاً من لطائف المقام أنّه کان لمالکٍ وملکان ابنی کنانة، بساحل جدة

۱- المصدر نفسه: ۷.

۲- الأصنام: ۷.

۳- المصدر نفسه: ۸.

۴- المصدر نفسه: ۹.

۵- المصدر نفسه: ۶؛ ابن هشام ۷۶، وللمزید عن أصنام العرب راجع کتاب الأصنام للکلبی وکتاب السیرة: ۸۱- ۷۲.

۶- الأصنام: ۲۳.

ص: ۳۰۲

وتلک الناحیهٔ صنم یقال له: سعد، وکان صخرهٔ طویلهٔ. فأقبل رجل منهم بإبلٍ له لیقفها علیه، یتبرک بذلک فیها، فلما أدناها منه، نفرت منه وکان یهراق علیه الدماء.

فذهبت فی کل وجهٍ وتفرقت علیه. وأسف فتناول حجراً فرماه به، وقال: لا بارک اللّه فیک إلهاً! أنفرت علی إبلی!. ثم خرج فی طلبها حتی جمعها و انصرف عنه، وهو یقول:

أتینا إلی سعدٍ لیجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد!

وهل سعد إلا صخرهٔ بنوفهٔ من الأرض لا یدعی لغی ولا رشد (۱)

وعن البصائر والذخائر لأبی حیان التوحیدی: کانت بنو حنیفهٔ اتخذوا إلهاً من حیس، فعبدوه دهراً، ثم أصابتهم مجاعهٔ فأکلوه، فقال رجل من بنی تمیم:

أکلت حنیفهٔ ربّها من جوع قدیم بها ومن إعواز

بعض معتقدات الجاهلیّهٔ

بعد أن تکلمنا فی العبادهٔ نذکر بعض ما کان یعتقده بعضهم فی أمور منها:

المعاد:

فقد کانوا یعتقدون أن الإنسان إذا مات فنی، ولیس هناک بعث، تدل علیه آیات عدیدهٔ منها قوله تعالی: «وَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلَی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ أَفْتَرَی عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَم بِهِ جِنَّهٌ بَلِ الَّذِینَ لَا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِٔ فِی الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِیدِ» (۲).

الروح:

فی مروج الذهب للمسعودی: من العرب من یزعم أنّ النّفس طائر ینبسط فی الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم یزل یطیف به مستوحشاً یصدح علی قبره، ویزعمون أنّ هذا الطائر یکون صغیراً ثم یکبر حتّی یکون کضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش ویوجد فی الدیار المعطّلهٔ، ومصارع القتلی والقبور، وأنّها لم تزل عند ولد المیت ومخلّفه لتعلم ما یکون بعده فتخبره (۳).

۱- الأصنام: ۴۱- ۴۰.

۲- سبأ: ۷- ۸.

۳- عن الشعائر من الجاهلیهٔ إلی الإسلام للشیخ محمد فاضل المسعودی: ۱۲۲.

ص: ۳۰۳

الملائکة:

قال تعالی: «وَيَجْعَلُونَ للَّهالْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ» (۱)

، قال العلامة الطباطبائی فی المیزان: وقد قیل: إن خزاعة وکنانة کانوا یقولون: إن الملائکة بنات اللَّه (۲).

الجن:

اعتقدوا أنها کانت تخالطهم فی کل مکان، لذا کانوا یستعیذون بها، حتی حکی أن رجلًا حل وادیاً، وکان معه ولد له، فاستعاذ بعظیم الوادی- کما جرت العادة- فعدا السبع علی ولده فقال:

قد استعذنا بعظیم الوادی من شر مافیه من الأعادی

فلم یجرنا من هزبر عاد

وکان إذا مرض أحدهم وطالت علّته حسبوا أنّ الجِنّة مسّته عقوبةً له علی قتله حیّة أو یربوعاً أو قنفذاً أو غزالًا أو أرنباً، وهی من مراکب الجن وأحبابها فقدّموا الدیة للجن.. علی جمال من طین.. وقت الغروب، فاذا أصبحوا ووجدوا الجمال علی حالها قالوا: إنّ الدیة لم تقبل، فزادوا فیها، وإن رأوها قد تساقط وتبدد ما علیها من حب قالوا قبلت، واستبشروا بشفاء المریض (۳).

۱- النحل: ۵۷.

۲- المیزان فی تفسیر القرآن ۱۲: ۲۷۴.

۳- المیزان فی تفسیر القرآن ۱۲: ۲۷۴.

وانظر: الشعائر من الجاهلیة إلی الإسلام: ۱۱۰- ۱۰۸؛

وابن طباطبا العلوی، عیار الشعر: ۶۱، ۶۴؛

وکذا کتاب الأوائل لأبی هلال العسکری: ۲۷؛

الحیوان للجاحظ؛ ۳: ۱۳۵؛

والتذکرة الحمدونیة ۷: ۲۰۵، ۳۳۴؛

وسیرة ابن هشام، وقریب منه ما ورد فی کتاب الأوائل؛

والبیان والتبیین للجاحظ: ۵۸۹- ۵۸۸؛

والوافی بالوفیات، صلاح الدین الصفدی ۲۴: ۲۱۵؛

وابن الکلبی، الأصنام: ۴- ۱، ۱۰۲- ۱۰۳؛

ص: ۳۰۴

وکانوا یزعمون أنّ من علّق علی نفسه کعب أرنب لن تقربه أو تمسّه الجن بأذی (۱).

شعائرهم وعاداتهم

لا بأس بالکلام عن بعض الشعائر والعادات التی کانت موجودة فی الجاهلیة وهی مدرجة تحت عناوین مختارة منها:

الاستسقاء:

کان لهم شعائر خاصة فیه، فکما عن کتاب الحیوان للجاحظ فقد کانوا إذا تتابعت علیهم الأزَمَات ورَکَدَ علیهم البلاءُ، واشتدّ الجَدْب، واحتاجوا إلی الاستِمْطار، استجمعوا وَجمعُوا ما قَدَرُوا علیه من البَقَر، ثم عقَدُوا فی أذنَابها وبینَ عَراقِیبها، السَّلَعَ والعُشَر، ثمَّ صعدوا بها فی جبلٍ وعْرٍ، وأشعَلُوا فیها النِّیرانَ، وضجُّوا بالدُّعاء والتضرُّع، فکانوا یَرَوْن أنّ ذلک من أسبابِ السُّقیا.. (۲)

التطیّر:

وقد شاع فی العرب زجر الطیر والوحش للتفاؤل بها، قال الجاحظ فی کتاب الحیوان: وأصل التطیُّر إنما کان من الطّیر ومن جهة الطیر، إذا مرَّ بارحاً أوْ سانحاً، أو رآه یتفلی وینتَتِف، حتی صاروا إذا عاینوا الأعورَ من النّاس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلک وتطیَّروا عندها، کما تطیَّروا من الطیر إذا رأوها علی تلک الحال، فکان زجر الطّیر هو الأصل، ومنه اشتقوا التطیّر، ثمَّ استعملوا ذلک فی کلِّ شیء (۳).

ومن عاداتهم التی ذکرها ابن طباطبا العلوی فی کتابه عیار الشعر (۴):

علاج الملدوغ:

فقد کانوا یعلقون الحلی والجلاجل علی السلیم (وهو الذی لدغ من أفعی أو غیرها) لیفیق.

۱- ابن طباطبا العلوی، معیار الشعر: ۶۴.

۲- کتاب الحیوان للجاحظ، وکذا کتاب الأوائل لأبی هلال العسکری: ۲۷؛ وابن طبا طبا العلوی، عیار الشعر: ۶۱.

۳- الحیوان: ۳: ۱۳۵.

۴- ابن طباطبا العلوی، عیار الشعر باب سنن العرب وتقالیدها: ۵۳- ۶۵.

ص: ۳۰۵

دفع العین:

وکانوا لـدفعها یفقؤون عین الفحل إذا بلغت إبل أحـدهم ألفاً، فإن زادت عن الألف فقؤوا العین الأخری، یقولون: إن ذلک یدفع عنها الغارة والعین.

وفی ذلک یقول قائلهم یشکر ربه علی ما وهب له:

وهبتها وأنت ذو امتنان یفقأ فیها أعین البعران

فعلهم خلف من لا یحبون عوده إلیهم: وکانوا یوقدون خلف المسافر الذی لا یحبون رجوعه ناراً، ویقولون: أبعده اللّه وأسحقه. وأوقد ناراً إثره. وفی ذلک یقول شاعرهم:

وذمة أقوام حملت ولم نکن لنوقد ناراً إثرهم للتندّم

ضرب الثور لتشرب البقر: وکانوا یضربون الثور إذا امتنعت البقر من الماء، ویقولون: إن الجن ترکب الثیران فتصدّ البقر عن الشراب. قال الأعشی:

فإنی وما کلفتمونی وربکم لیعلم من أمسی أحق وأحوبا

لکالثور والجنی یرکب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا

وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا لیضربا

رمی السنّ للشمس: وکان من عاداتهم أن الصبی منهم یحذف سنه إذا سقطت فی عین الشمس، ویقول: أبدلینی بها أحسن منها، ولیجر فی ظلمها إیاتک... قال أبو دؤاد: ألقی علیه إیاه الشمس أدرانا (۱).

الرتم:

وکعقدهم خیطاً یسمونه الرتم فی غصن شجرة أو ساقها، إذا سافر أحدهم وتفقد ذلک الخیط عند رجوع المسافر منهم فإن وجده علی حاله قضی بأن أهله لم تخنه، وإن رآه قد حلّ حکم بأنها قد خانته. قال ابن حمدون فی التذکرة الحمدونیة: الرتم شجرٌ معروفٌ. کانت العرب إذا خرج أحدهم إلی سفرٍ عمد إلی

۱- والغریب أن هذه العادة ما زالت سائدة فی بعض المجتمعات للآن حیث رأیت بعض الأطفال یفعلون ذلک..

ص: ۳۰۶

هـذا الشـجر فعقـد غصـناً منه بغصنٍ، فإذا عاد من سـفره إن وجده قد انحل قال: قد خانتنی امرأتی، وإن وجده علی حاله قال: لم تخنی (۱).

لدفع الوباء:

وزعموا أن الرجل إذا أراد قریة فخاف وباءها فوقف علی بابها قبل أن یدخل فعشـر کما ینهق الحمار، ثم دخلها لم یصبه وباؤها. وقال عروة بن الورد فی ذلـک، وکـان خرج مع أصـحاب له إلی خیبر یمتـارون فخـافوا وباءهـا، فعشـروا وأبی عروة أن یفعـل، فلمـا دخلوها وامتاروا وانصرفوا نحو بلادهم لم یبلغوا مکانهم إلا وعامتهم میت أو مریض إلا عروة، فقال:

لعمری لئن عشرت من خشیة الردی نهاق حمیر إننی لجزوع

انتهی ما نقلناه عن عیار الشعر، وقد ذکر غیرها من عادات فلتراجع فی محلها (۲)..

النسیء:

قال فی التذکرة الحمدونیة بعد ذکر قوله تعالی: «إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیَادَةٌ

۱- التذکرة الحمدونیة لابن حمدون ۷: ۳۳۴.

۲- ککتاب الشعائر بین الجاهلیة والإسلام، وکتاب عیار الشعر، باب سنن العرب وتقالیدها، والتذکرة الحمدونیة: ۷.

ص: ۳۰۷

فِی الْکُفْرِ..» (۱)

النسیء تأخیر الشیء، وکانوا یحرّمون القتال فی المحرم، ثم إذا عزموا أن یقاتلوا فیه جعلوا صفراً کالمحرم وقاتلوا فی المحرم وأبدلوا صفراً منه.

فأعلم اللّه عز وجل أن ذلک زیادةٌ فی کفرهم لیواطئوا عدة ما حرم اللّه، فیجعلون صفراً کالمحرم فی العدد، ویقولون: إن هذه أربعة أشهر بمنزلة أربعة، والمواطأة:

المماثلة والموافقة. والأشهر الحرم: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة (۲).

وفی سیرة ابن هشام قال: قال ابن إسحاق: وکان أول من نسأ الشهور علی العرب فأحلّت منها ما أحلّ وحرمت منها ما حرم القلمس؛ وهو حذیفة بن عبد بن فقیم... بن کنانة بن خزیمة ثم قام بعده علی ذلک ابنه عباد... ثم قام... أبو ثمامة جنادة بن عوف، وکان آخرهم وعلیه قام الإسلام، وکانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إلیه، فحرّم الأشهر الحرم الأربعة رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم، فإذا أراد أن یحل شیئاً أحل المحرم فأحلوه، وحرم مکانه صفر فحرموه، لیواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم، فإذا أرادوا الصدر قام فیهم فقال: اللهم إنی قد أحللت لک أحد الصفرین الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل (۳)...

وقد ورد فی خطبة النبی صلی الله علیه و آله فی حجّة الوداع إشارة إلی ما کان من أمرهم فی النسیء فقال صلی الله علیه و آله: «أیُّها الناس! إنّ النّسیء زیادةٌ فی الکُفْر یَضَلُّ به الذّینَ کَفَرُوا یُحِلّونه عاماً ویُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِیُوَاطُئوا عِدَّةَ مَا حَرَمَ اللّه فَیُحِلّوا مَا حَرَمَ اللّه، إنّ الزّمانَ قد استدار کهیئته یَوْمَ خلق اللّه السّمواتِ والأرض، وإنّ عِدَّةَ الشّهُورِ عِنْدَ اللّه اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتابِ اللّه یَوْمَ خَلَقَ السّموات وَالأَرْض، مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثلاثة متوالیات وواحدٌ فرد: ذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرم، ورَجب الذی بین جُمادی وشعبان، ألا هَلْ بلَّغت؟.. (۴).

۱- التوبة: ۳۷.

۲- التذکرة الحمدونیة.

۳- سیرة ابن هشام، وقریب منه ما ورد فی کتاب الأوائل.

۴- البیان والتبیین للجاحظ: ۵۸۹- ۵۸۸.

ص: ۳۰۸

وأد البنات

ومن أبشع العادات التی کانت عندهم وأد البنات، ولا أدری من أین کانت لدیهم کل تلک القسوة حتی کانوا یقدمون علی هذا الفعل، ولا أظنّ أن أباً یستطیع أن یفکّر فی فعل کهذا لمجرد أنه یعیش الفقر، علی أن القرآن وصف حالهم تلک فی آیات منها قوله تعالی: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ کَظِیمٌ* یَتَوَارَی مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَیُمْسِکُهُ عَلَی هُونٍ أَمْ یَدُسُّهُ فِی التُّرَابِ أَلَا سَاء مَا یَحْکُمُونَ» (۱)، وقال تعالی: «وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلادَکُمْ خَشْیَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِیَّاکُم إنَّ قَتْلَهُمْ کَانَ خِطْءاً کَبِیراً» (۲)، قال ابن حمدون فی التذکرة الحمدونیة: وکانوا یقتلونهن کما ذکر تعالی خشیة إملاقٍ، وقد ذکر أنهم کانوا یقتلونهنّ خوف العار وأن یسبین ولیس یمتنع وقوع السببین، وقد جاءت أخبارهم دالةً علیهما. وکان قیس بن عاصمٍ المنقری یئد بناته، وکان من وجوه قومه له من المال ما شاء (۳).

وإذا أردت أن تنظر إلی مبلغ قسوتهم فی هذا الأمر فانظر الی ما رواه أصحاب المصنّفات منهم الصفدی فی الوافی بالوفیات، حیث قال فی ترجمة قیس بن عاصم:

قیس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبید الحارث المنقری التمیمی أبو علی، وقیل: أبو طلیحة، وقیل: أبو قبیصة، والأول أشهر، قدم فی وفد تمیم علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله سنة تسع.. أقبل علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال: کنت أخاف سوء

۱- النحل: ۵۸- ۵۹.

۲- الإسراء: ۳۱.

۳- التذکرة الحمدونیة ۷: ۳۳۰.

ص: ۳۰۹

الأحدوثة والفضيحة فى البنات، فما ولدت لى بنية قط إلا وأدتها، إلا بنيّة كانت لى ولدتها أمها وأنا فى سفر، فدفعتها إلى أخوالها فكانت فيهم. فقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتنى المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً. ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت فى قرونها شيئا من الخلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت فى عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية فقد أعجبنى جمالها وكيسها، فبكت ثم قالت: هذه ابنتك، كنت خبرتك أنى ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى اشتغلت أمها ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة وجعلتها فيها وهى تقول: يا أبه، ما تصنع بى؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهى تقول: يا أبه أمغطى أنت بالتراب، أتاركى وحدى ومنصرف عنى؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها، فدمعت عين النبى صلى الله عليه و آله ثم قال: إن هذه لقسوة وإن من لا يَرحم لا يُرحم (۱).

شعائر العبادة (الحج)

بغض النظر عن قرابين الأصنام وما كانوا يتوجهون به إليها، نذكر أهم ما بقى من شعائر دين إبراهيم عليه السلام وهو الحج، إذ لم يبق من الدين على ما يبدو غير هذه الشعيرة، لأن التزاماتهم اندثرت فصاروا يأكلون الميتة والدم ويشربون الخمر ويستحلون ما حرّم اللَّه، فلا معلم للدين فى ذلك الوقت غير هذه العبادة على ما شابها من تشويه بإضافة أو حذف.

قال ابن الكلبى فى كتابه الأصنام: وفيهم على ذلك (الشرك وعبادة الأصنام) بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت نزار تقول إذا ما أهلت: لبيك اللهم! لبيك!

لبيك! لا شريك لك! إلا شريك هو لك!

۱- الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى ۲۴: ۲۱۵؛ وكذا التذكرة الحمدونية ۲: ۲۰۵.

ص: ۳۱۰

تملکه وما ملک!

ویوحّدونه بالتلبیة، ویدخلون معه آلهتم ویجعلون ملکها بیده...

وکانت تلبیة عک، إذا خرجوا حجاجاً، قدّموا أمامهم غلامین أسودین من غلمانهم، فکانا أمام رکبهم. فیقولان: نحن غرابا عک!

فتقول عک من بعدهما: عک إلیک عانیه، عبادک الیمانیه، کیما نحج الثانیة!

وکانت ربیعة إذا حجّت فقضت المناسک ووقفت فی المواقف، نفرت فی النفر الأول ولم تقم الی آخر التشریق (۱).

قال ابن الکلبی عن حجّ الأوس والخزرج:.. فکانوا یحجون فیقفون مع الناس المواقف کلها، ولا یحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه (مناة) فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده. لا یرون لحجهم تماماً إلا بذلک... وهذا الصنم هدمه علی علیه السلام فی عام الفتح (۲).

قال ابن إسحاق: وقد کانت قریش لا أدری أقبل الفیل أم بعده ابتدعت رأی الحمس رأیاً رأوه وأداروه فقالوا: نحن بنو إبراهیم وأهل الحرمة وولاة البیت وقطان مکة وساکنها، فلیس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شیئاً من الحل کما تعظمون الحرم، فإنکم إن فعلتم ذلک استخفّت العرب بحرمتکم... فترکوا الوقوف علی عرفة والإفاضة منها، وهم یعرفون ویقرون أنها من المشاعر، والحج، ودین إبراهیم علیه السلام؛ ویرون لسائر العرب أن یفیضوا منها،... ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساکن الحل والحرم مثل الذی لهم بولادتهم إیاهم، یحل لهم ما یحل لهم، ویحرم علیهم ما یحرم علیهم (۳).

وعلیه صار الناس أیام الجاهلیة ثلاثة أقسام:

۱- ابن الکلبی، الأصنام: ۱- ۴.

۲- المصدر نفسه: ۱۲- ۱۳.

۳- سیرة ابن هشام: ۱۵۶ حدیث الحمس.

ص: ۳۱۱

فمنهم الحمس، و قبائل الحمس من العرب قریش کلها، وخزاعة؛ لنزولها مکة، ومجاورتها قریشاً. وکل من ولدت قریش من العرب وکل من نزل مکة من قبائل العرب (۱). والقسم الآخر الطلس، وقبائل الطلس وهم سائر أهل الیمن، وأهل حضرموت، وعک وعجیب وإیاد بن نزار؛ وما سواهم من العرب فهم قبائل الحلة کتمیم بن مرّ کلها غیر یربوع، ومازن، وضبة... (۲). وقد ذکر ابن حبیب البغدادی فی المحبّر أحوالهم فی الحج بحسب أصنافهم بشیء من التفصیل فقال (۳):

کانت الحمس قد شدّدوا علی أنفسهم فی دینهم؛ فکانوا إذا نسکوا لم یسلوا سمناً ولم یطبخوا أقطاً، ولم یدخروا لبناً، ولم یحولوا بین مرضعة ورضاعها حتی یعافه، ولم یحرکوا سعراً ولا ظفراً، ولا یبتنون فی حجهم شعراً ولا وبراً ولا صوفاً ولا قطناً، ولا یأکلون لحماً، ولا یمسّون دهناً، ولا ـ یلبسون إلا ـ جدیداً، ولا ـ یطوفون بالبیت إلا فی حذائهم وثیابهم، ولا یمسون المسجد بأقدامهم تعظیماً لبقعته، ولا یدخلون البیوت من أبوابها، ولا یخرجون إلی عرفات. یقولون: نحن أهل اللّه، ویلزمون مزدلفة حتی یقضوا نسکهم، ویطوفون بالصفا والمروة إذا انصرفوا من مزدلفة، ویسکنون فی ظعنهم قباب الأدم الحمر.

وکانت الحلة یحرمون الصید فی النسک، ولا یحرمون فی غیر الحرم، ویتواصلون فی النسک، ویمنح الغنی ماله أو أکثره فی نسکه، فیسلا فقراؤهم السمن، ویجتَزّون من الأصواف والأوبار والشعار ما یکتفون له، ولا یلبسون إلا ثیابهم التی نسکوا فیها، ولا یلبسون فی نسکهم الجدد، ولا یدخلون من باب دار ولا باب بیت ولا یؤویهم ظل ماداموا محرمین، وکانوا یدهنون ویأکلون اللحم، وأخصب ما یکونون أیام نسکهم؛ فإذا دخلوا مکة بعد فراغهم، تصدقوا بکل حذاء وکل ثوب لهم، ثم استکروا من ثیاب الحمس تنزیهاً للکعبة أن یطوفوا

۱- کتاب المحبر لمحمد بن حبیب البغدادی: ۱۷۸، وعدّ قبائل الحمس.

۲- المصدر نفسه: ۱۷۹، وعدّ فیه القبائل من الحلة والطلس.

۳- المصدر نفسه: ۱۷۹- ۱۸۱.

ص: ۳۱۲

حولها إلا فی ثیاب جدد. ولا یجعلون بینهم وبین الکعبة حذاء، یباشرونها بأقدامهم. فإن لم یجدوا ثیاباً طافوا عراة. وکان لکل رجل من الحلة حرمی من الحمس یأخذ ثیابه، فمن لم یجد ثوباً طاف عریاناً. وإنما کانت الحلة تستکری الثیاب للطواف فی رجوعهم إلی البیت، لأنهم کانوا إذا خرجوا حجاجاً لم یستحلّوا أن یشتروا شیئاً ولا یبیعوه حتی یأتوا منازلهم، إلا اللحم. وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله حرمی عیاض بن حمار المجاشعی، کان إذا قدم مکة طاف فی ثیاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

وکانت الطلس بین الحلة والحمس، یصنعون فی إحرامهم ما یصنع الحلة، ویصنعون فی ثیابهم ودخولهم البیت ما یصنع الحمس؛ وکانوا لا یَتَعَرّون حول الکعبة، ولا یستعیرون ثیاباً، ویدخلون البیوت من أبوابها، وکانوا لا یئدون بناتهم، وکانوا یقفون مع الحلة ویصنعون ما یصنعون.. انتهی ما نقلناه عن المحبّر.

وقد انتهی هذا التصنیف وما کان من شعائر بعد مجیء الإسلام، حیث أرسی النبی صلی الله علیه و آله قواعد یشترک فیها کل الناس، حیث لا فرق بین عربی وأعجمی إلا بالتقوی، ولکن لم یکن هذا بالأمر الیسیر، بعد مضی أجیال وأجیال علی تلک الأحوال؛ فقد کانت معاناة النبی صلی الله علیه و آله أکبر من أن توصف فی سبیل التغییر، حتی قال صلی الله علیه و آله: «ما أوذی أحد مثل ما أوذیت فی اللّه» (۱).

هذا منتهی الکلام باختصار عن حال الجاهلیة، عبادات وعادات ومعتقدات، وقد ختمنا بشعیرة الحج، لأنها بقیّة دین إبراهیم علیه السلام، والبقیة الباقیة منه، والحمد للّهرب العالمین...

۱- کنز العمال ۳: ۱۳۰، ح ۵۸۱۸.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهـم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهـمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز
القائمیة
اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹